

أمراء البيان

تأليف
محمد كرد علي

الجزء الأول

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

أمراء البيان

أمراء البيان

تأليف
محمد كرد علي

الجزء الأول

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1433هـ 2012

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد – القاهرة
25938411-25922620 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كرد على ، محمد بن عبد الرزاق بن محمد كرد على ، 1876-1953
امراء البيان / تاليف: محمد كرد على
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2011
مج 1 ، 24 سم
تدمك : 978-977-341-548-4
1- اللغويون
ا- العنوان

ديوى: 924

رقم الايداع:2011/17913

غرض هذا الكتاب

قصدنا بتسويد هذه الأوراق تصوير عشر صور حية في الجملة لعشرة من أمراء البيان. تصدينا لوصف عصورهم في السياسة والمدنية، وحاولنا الإلماع إلى العوامل المهمة في تنشئتهم وحياتهم، وتوخينا تحليل أدبهم وعلمهم، وعرضنا لمواضع الإجادة فيها خلفوه من كلامهم. ترجمنا لعبد الحميد بن يحيى الكاتب، وعبد الله بن المقفع، وسهل بن هارون، وعمرو بن مسعدة، وإبراهيم بن العباس الصولي، وأحمد بن يوسف الكاتب، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وعمرو بن بحر الجاحظ، وأبي حيان التوحيدي، وابن العميد؛ وهم العشرة المبشرة بالبلاغة في عصر العرب الزاهر، يوم أضحى اللسان العربي لغة حضارة وعلم، وكان في القرن الأول لغة دين وأدب. وعسى أن يكون من نرسم طريقتهم عون على تمثل أساليبهم في الرشاقة والجزالة. والبيان العربي كالإسلام لا يحيا إلا بالاستقاء من رءوس عيونه الصافية.

مصادر الكتاب

من كتب الرجال:

تاريخ الكتاب والوزراء للجهشياري (المتوفى٣٣١-طبع ليبسيك)، تاريخ الوزراء لأبي هلال الصابي (٤٤٨-بيروت)، يتيمة الدهر للثعالبي (٤٣٠-دمشق)، طبقات الأدباء لياقوت (٦٢٦-القاهرة)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء للأنباري (٥٧٧-القاهرة)، الأنساب للسمعاني (٥٦٢-لندرا)، حكماء الإسلام للبيهقي (٥٧٠-مخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق)، أخبار الحكماء للقفطي (٦٢٤-ليبسيك)، طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٦٨٨-القاهرة)، وفيات الأعيان لابن خلكان (٧٦١-القاهرة)، فوات الوفيات للصلاح الكتبي (٧٦٤-القاهرة)، عيون التواريخ له (مخطوط في دار الكتب الظاهرية)، تاريخ بغداد لابن الخطيب (٤٦٣-القاهرة)، تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧١-مطبوع ومخطوط دمشق ودار الكتب الظاهرية)، تهذيب الأسماء للنووي (٦٧٧-أوربا)، الأوراق للصولي (٣٣٥-القاهرة)، ذكر المعتزلة لأحمد بن يحيى المرتضى (٨٤٠-حيدر آباد الدكن)، لسان الميزان لابن حجر (٨٥٢-حيدر آباد الدكن)، طبقات الشافعية للسبكي (٧٣١-القاهرة)، بغية الوعاة للسيوطي (٩١١-القاهرة)، الوافي بالوفيات للصفدي (٧٦٤-مخطوط في دار الكتب المصرية)، نكتب الهميان له (القاهرة)، ميزان الاعتدال للذهبي (٧٤٨-القاهرة)، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٣٠-ليدن)، رجال النجاشي (بمباي)، طبقات الشعراء للجمحي (٢٣٢-ليدن).

من كتب التاريخ:

تاريخ الرسل والملوك للطبري (٣١٠-ليدن)، صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي (ليدن)، مروج الذهب للمسعودي (٣٤٦-باريز)، التنبيه والإشراف له (ليدن)، تاريخ اليعقوبي (٢٧٨-ليدن)، تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني (في نحو سنة ٣٥٠-ليبسيك)، تجارب الأمم لمسكويه (٤٢١-ليدن والقاهرة)، مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (٦٥٤-شيكاغو)، الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (٢٨٢-ليدن)، كامل التواريخ لابن الأثير (٦٣٠-القاهرة)، تاريخ ابن خلدون (٨٠٨-القاهرة)، السلوك في دول الملوك للمقريزي (٨٤٥-القاهرة)، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم له (ليدن)، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤-القاهرة)، دول الإسلام الذهبي (حيدر آباد الدكن)، الفخري لابن الطقطقي (٧٠٩-القاهرة)، المختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء (٧٣٢-القاهرة)، شذرات الذهب لابن العماد (١٠٨٩-القاهرة)، الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (القاهرة)، تاريخ الدول المنقطعة للأزدي (مخطوط في دار الكتب المصرية)، أنساب الأشراف للبلاذري (٢٧٩-القدس)، المنتظم لابن الجوزي، وجامع العبر لابن أيبك (مخطوطان في دار الكتب المصرية).

من كتب البلدان والرحلات والخطط:

معجم البلدان لياقوت (ليبسيك)، مناقب بغداد لابن الجوزي (٥٧٩-بغداد)، فتوح البلدان للبلاذري (ليدن)، أحسن التقاسيم للمقدسي (بعد سنة ٣٧٥-ليدن)، الأعلاق النفيسة لابن رسته (القرن الثالث-ليدن)، كتاب البلدان لابن الفقيه (أواخر القرن الثالث-ليدن)، مسالك الممالك للأصطخري (القرن الرابع-ليدن)، محاسن أصفهان للمافروخي (القرن الخامس-طهران) مسالك الأبصار لابن فضل

الله العمري (٧٤٩-القاهرة)، التعريب بالمصطلح له (القاهرة)، رحلة ابن جبير (٦١٤-ليدن)، خطط مصر للمقريزي (القاهرة)، خطط الشام للمؤلف (دمشق).

من كتب الأدب:

الكامل للمبرد (٢٨٥-ليبسيك)، العقد الفريد لابن عبد ربه (٣٢٨-القاهرة)، الموشح للمرزباني (٣٨٤-القاهرة)، اختيار المنظوم والمنثور لطيفور (٢٨٠-مخطوط في دار الكتب المصرية)، كتاب بغداد له (ليبسيك)، إعجاز القرآن للبلاقلاني (٤٠٣-القاهرة)، كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (في حدود الأربعمائة-إستانبول)، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (٤٧١-القاهرة)، عيون الأخبار لابن قتيبة (٢٧٠-القاهرة وستراسبورج)، زهر الآداب للحصري (٤٥٣-القاهرة)، جمع الجواهر في الملح والنوادر له (القاهرة)، نهاية الأرب للنويري (٧٣٣-القاهرة)، نشوار المحاضرة للتنوخي (٣٨٤-القاهرة)، الفرج بعد الشدة له (القاهرة)، شرح نهاية البلاغة لابن أبي الحديد(٦٥٦-القاهرة)، صبح الأعشى للقلقشندي (٨٢١-القاهرة)، خزانة الأدب للبغدادي (١٠٩٣-القاهرة)، أمالي السيد المرتضى (٤٣٦-القاهرة)، أمالي ابن الشجري (٥٤٢-القاهرة)، سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (٤٦٦-القاهرة)، قانون البلاغة لابن حيدر البغدادي (٥٧١-القاهرة)، المثل السائر لابن الأثير (٦٣٧-القاهرة)، الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد (طهران)، المحاسن والمساوئ للبيهقي (٣٢٠-جيسين)، نقد النثر المنسوب لقدامة (٣٢٠-القاهرة)، نقد الشعر لقدامة (إستانبول)، البيان والتبيين للجاحظ (٢٥٥-القاهرة)، رسائل الجاحظ ومنها البخلاء والمحاسن والأضداد، وفصول مختارة منه لعبيد الله بن حسان وغيرها تربو على عشرين رسالة (طبع ليدن والقاهرة وحلب وبغداد ودمشق)، ومنها كتاب التاج المنسوب للجاحظ

(القاهرة)، كليلة ودمنة لابن المقفع (١٤٣-بيروت)، الدرة اليتيمة له (بيروت)، لباب الآداب لابن منقذ (٥٨٤-القاهرة)، الظرف والظرفاء للوشاء (٣٢٥-ليدن)، طراز المجالس للخفاجي (١٠٦٩-القاهرة)، بدائع البدائه لابن ظافر (٦٢٣-القاهرة)، ديوان محمد بن عبد الملك الزيات (مخطوط في دار الكتب المصرية)، ديوان الحماسة لأبي تمام (٢٢٨-القاهرة)، ديوان أبي تمام (بيروت)، ديوان المتنبي (٣٥٤-القاهرة)، ديوان البحتري (٢٨٤-إستانبول)، حماسة الخالديين (القرن الرابع-مخطوط في دار الكتب المصرية)، نفح الطيب للمقري (١٠٤١-القاهرة)، المضاف والمنسوب للثعالبي وكذلك من غاب عنه المطرب وخاص الخاص والمعارف ولطائف المعارف ونثر النظم وحل العقد والكناية والتعريض والمنتحل وسحر البلاغة وثلاث رسائل وأربع رسائل وخمس رسائل (طبع ليدن والإسكندرية والقاهرة ودمشق وإستانبول)، الفوائد والقلائد ومرآة المروآت والشكوى والعتاب للثعالبي (وهي مخطوطة في دار الكتب المصرية)، الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦-القاهرة)، المختار من شعر بشار للخالديين (القاهرة)، المؤتلف والمختلف للآمدي (٣٧٠-القاهرة)، الصديق والصداقة لأبي حيان التوحيدي (بعد الأربعمائة-إستانبول)، البصائر والذخائر له (مخطوطة في دار الكتب المصرية)، التصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكري (٣٨٢-القاهرة)، ديوان المعاني لأبي هلال العسكري (القاهرة)، رسائل الخوارزمي (٣٨٣-إستانبول)، رسائل الهمذاني (٣٩٨-بيروت)، رسائل البلغاء للمؤلف (القاهرة)، سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة (٧٦٨-القاهرة)، شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون (القرن السادس- ليدن)، شرح ديوان خطب ابن نباتة لطاهر الجزائري (١٢٣٨-بيروت)، شرح مقامات الحريري للشريشي (٦١٩-القاهرة)، طوق الحمامة لابن حزم (٤٥٦-ليدن)، محاضرات الراغب (٥٠٢-القاهرة)، رسالة الغفران للمعري (٤٤٩-

القاهرة) رسالة ابن الفارح (في رسائل البلغاء-القاهرة)، رسائل المعري (أكسفورد-بيروت).

من كتب العلوم المختلفة:

تقييد العلم للخطيب البغدادي (مخطوط في دار الكتب المصرية)، إحصاء العلوم للفارابي (٣٣٩-القاهرة)، مفاتيح العلوم للخوارزمي (٣٨٧-ليدن)، طبقات الأمم لصاعد (٤٦٢-بيروت)، المزهر للسيوطي (القاهرة)، المشتبه في أسماء الرجال للذهبي (ليدن)، الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي (مخطوط في دار الكتب الظاهرية)، المقابسات له (القاهرة)، الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز (٣٦٦-صيدا)، هبة الأيام للبديعي (القاهرة)، تذكرة ابن حمدون (٥٤٦-القاهرة)، التذكرة الحمدونية (مخطوطة في إستانبول)، الدين والدولة لعلي بن ربن (٢٤٧-القاهرة)، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٤٦٣-القاهرة)، الانتصار للخياط (القاهرة)، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري (٣٢٤-إستانبول)، الملل والنحل للشهرستاني (٥٤٨-القاهرة)، الفصل في الملل والنحل لابن حزم (القاهرة)، الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي (٤٢٩-القاهرة)، الآثار الباقية للبيروني (٤٤٠-ألمانيا)، الفهرست لابن النديم (٣٨٥-ليبسيك)، كشف الظنون لكاتب جلي (١٠٦٧-القاهرة)، معجم المطبوعات العربية المعربة لسركيس (القاهرة)، كتاب الأموال للقاسم بن سلام (٢٢٤-القاهرة) المعارف لابن قتيبة وأدب الكاتب له (ليدن)، معالم الكتابة لابن شيث القرشي (القرن السادس-بيروت)، أساس البلاغة للزمخشري (٥٣٨-القاهرة)، لسان العرب لابن منظور (٧١١-القاهرة)، القاموس المحيط للفيروزآبادي (٨١٧-القاهرة)، تاج العروس للزبيدي (١٢٠٥-القاهرة)، معجم ما استعجم للبكري (٤٨٧-غوتنغن)، الإسلام والحضارة العربية للمؤلف (القاهرة)، القديم والحديث

للمؤلف أيضًا (القاهرة)، الأزمنة والأمكنة للمرزوقي (القرن الخامس-حيدرآباد الدكن)، أدب الكتاب للصولي (القاهرة)، الملاحن لابن دريد (٣٢١-القاهرة)، تلبيس إبليس لابن الجوزي (٥٩٧-القاهرة)، مقدمة ابن الصلاح (٦٤٣-حلب)، الحيوان للجاحظ (القاهرة)، التيسير والاعتبار للأسدي (القرن العاشر-مخطوط في دار الكتب المصرية)، مجلة المقتبس (القاهرة ودمشق)، مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق).

الكتب الفرنسية:

معلمة الإسلام Encyclopédie de l'Islam

فن النثر للانسون G.Lanson: L'art de la prose

تاريخ اللغة الفرنسية وآدابها لبتي دي جولفيل

Petit de Juleville: Histoire de la langue et de la littlérature françaiso.

سبع باكورات لاميرسون Emerson: Sept essays



البيان العربي

عهد الجاهلية:

تنافس العرب أيام الجاهلية في نظم القصيد والرجز وفي الخطب المنثورة، ورويت عنهم أمثال وأحاديث؛ وكان ما يفيض من قرائح شعرائها وخطبائها في المفاخرات والمنافرات والحمالات والمهادنات من دواعي الإعجاب و الاغتباط.

وما كان لكل عربي أن ينفتق لسانه بقول الجيد من الشعر أو النثر، فقد يأتي الجيل والجيلان، والقبيلة العظيمة لا يظهر فيها شاعر أو خطيب يعلي صوتها وصيتها، ويعدِّد من عام إلى عام مآثرها، ويرفع بها يبتده الضيم عن أهلها، ويرهب بسلطان بلاغته عدوَّها، وكان الشاعر عندهم يُفضَّل على الخطيب، فلما اتخذ الشعراء شعرهم آلة للتكسب، وابتذلوه في المديح والهجاء، علت منزلة الخطيب على منزلة الشاعر.

ولقد حُفِظَ من الشعر بعضه لطربهم به، وعجبهم بالعالي منه، ولأنه دوَّن مفاخرهم وخلَّد تاريخهم، وباد النثر على وفرته، إلا صفحات قليلة لو أنعمنا النظر في بعضها، لما أحجمنا عن القول بأنها واهية الإسناد، ظاهرة التصنيع؛ ومنها أمثلة في أمهات كتب الأدب لا تروقك ولا تشوقك، والغالب أن ما عُزي لعهد الجاهلية من المنثور كان مما أخذ بالمعنى كما نُقل معظم الأحاديث النبوية.

يقول الرقاشي: ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يُحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير.

ضاع تراث الجاهلية في النثر لفقدان التدوين، ولغلبة الأُمية على العرب، وما رواه الرواة كان من محفوظ الرجال، والحفظ عرضة للنقص والزيادة. وجاء الإسلام وليس في قريش غيرُ سبعة عشر رجلًا وبضع نساء يكتبون ويقرءون، وقريش سادة العرب وأنبه قبيلة فيهم، وأكثرهم حضارة وتمازجًا بالشعوب المجاورة، أما سائر بلاد العرب كاليمن فلم يُعرف فيها مَن يكتب.

شاعت الكتابة في الحيرة أكثر من غيرها من البلاد المتاخمة لجزيرة العرب، ويعلل المرزباني ذلك بأن أهل القرى ألطف نظرًا من أهل البداوة، وأنهم كانوا يكتبون لمجاورتهم أهل الكتاب، فأخذت قريش الكتابة عن إياد في الحيرة، ولما كان أهل القرى أكثر استعدادًا للحضارة ظهر الأنبياء فيهم، وما جاء رسول من أهل الوبر.

كَتبَ عدة كُتَّاب من أهل الحيرة في ديوان الأكاسرة، ومنهم عدي بن زيد، وزيد بن عدي، ولقيط بن يعمر الإيادي، وكان أكثم بن صيفي حكيم العرب يكاتب الملوك، ولأبناء جَفنة في البلقاء كتَّاب يكتبون عنهم في خاص أمورهم وعامهم، وكان المرقِّش كاتب الحرث بن شمر الغساني، وبذلك تبين أن الإياديين سبقوا إلى الكتابة، وما جاء خبر أكيد عن الغسانيين الذين جاوروا الروم في جنوب الشام وتصرفوا لهم.

ما علا شأن قريش في الكتابة إلا في الإسلام، ولا يعلم إذا كانت تراسل الملوك، إذ لم يكن لها نظام دولة ثابت، وكانوا إذا رأوا كتبًا كتبها أهل الكتاب استعظموها،

وعثروا في الإسلام على رسالة بخط عبد المطلب بن هاشم في قطعة أدَم، وذلك في إثبات حق له على رجل من العرب.

وإذ كانت الخطب والرسائل في ذاك العهد قاصرة الأغراض، وصادرة عن أناس على الفطرة، ليس لهم من المدنية مادة تدعوهم إلى الفلسفة والتوسع في الفكر، تجردت كتابتهم من كل صنعة وفن، ويقول الجاحظ: إنه لم يجد في خطب السلف الطيب، والأعراب الأقحاح ألفاظًا مسخوطة، ولا معاني مدخولة، ولا طبعًا رديئًا، ولا قولًا مستكرهًا، وأكثر ما وجد من ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين، ومن أهل الصنعة المتأدبين، سواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب، أو كان من نتائج التخير والتفكير.

عهد الإسلام:

والمعقول أن أسلوب الجاهليين في الكلام المنثور لا يختلف عن الأسلوب المتبع في الرسائل والخطب أول الإسلام؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خاطب قومه بالطريقة التي يفهمونها، وتقع من نفوسهم الموقع الحسن. وما قَدرَت العرب بلاغته حق قدرها إلا لأن بلاغتهم ضرب من بلاغته، والبليغ يدرك من هو أبلغ منه. وفي كتب النبي إلى عماله، وإلى رؤساء القبائل، وإلى الأمراء والملوك، ومنها ما أملاه بنفسه أو كتبه له كتابه فأقرَّهم عليه، مثال من بلاغة الأقدمين من العرب، وقد رأيناه -صلوات الله عليه- ينكر على من يسجعون الكلام، وينهى عن السجع على نحو سجع الكهان، وكانوا يسجعون للإغراب والتأثير والزينة.

كان الرسول يتوخى إذا كتب لغير العرب، أن يوجز القول، ويقلَّ من اللفظ الذي لا يتفهمه كل إنسان، حتى يسهل نقل كلامه إلى ألسن من كتب إليهم من غير

العرب، كما كان إذا خاطب قبائل من غير قريش أو كاتبهم يستعمل ألفاظًا مألوفة لا يعرفها القرشيون، ذلك لأن مقصده الإفهام، والبليغ من الكلام ما فُهم وأبقى في النفس أثرًا.

أوتي الرسول جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارًا، وكلامه جزل رشيق، لا تعمّل فيه ولا غموض، وروي عنه أنه قال: «أبغضكم إليَّ الثرثارون المتشدقون» يريد أهل الإكثار وأصحاب التقعير في الكلام. والتقعير: التكلم بأقصى الفم، والتشدق: تكلف البلاغة. نعم كان نزورًا يذم المكثار، ويترسل في القول، ويكره الانبعاق في الكلام؛ أي: الاندفاع فيه. وقال: نضَّر الله وجه رجل أوجز في كلامه، واقتصر على حاجته. فأصْلح الرسول العربي لغة التخاطب والتكاتب، كما جاء لإصلاح المعاد والمعاش. وكذلك يقال في بلاغة الصحابة ومن أخذوا عن الرسول، وكذلك يقال فيمن أخذ عن الصحابة من التابعين وتابعيهم والخلفاء والأمراء، يمتاز أفراد منهم بالبلاغة كما يتمايزون برجحان العقل.

وكتب الناس إلى أواخر القرن الأول على النمط الذي عرفوه عن الرسول آخذين بالطبع، بعيدين عن الإطناب، ومن ذلك أمثلة كثيرة في كتب التاريخ والسير، ومن أهمها رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء وقد كتبت على أسلوب عصرها، لا تعمّل فيها ولا سجع ولا مزاوجة، لفظها على قدر معناها.

ما عدا أسلوب الكتب، أسلوب الرسائل والخطب. بيد أن تدوين الكتب تأخر قليلًا، ومن أول ما دوّن ما كتبه صاحب الرسالة لعمرو بن حزم وغيره في الصدقات والديات والفرائض والسنن، وما كان يكتبه عمر من الحديث، وقد أمره الرسول بتقييد العلم، وأشار إليه أن يكتب خطبته في عام الفتح إلى أبي شاه، وكان واثلة بن

الأسقع يملي على الناس الأحاديث وهم يكتبونها بين يديه، وألف زيد بن ثابت كتابًا في الفرائض، وأُلف كتاب في قضاء علي في عهد ابن عباس، وأمر معاوية أن يدون ما يتحدث به إلى عَبيد بن شَرْيَة من أخبار عاد وثمود وجُرهم. وكان عبيد من القدماء في الحكمة والخطابة مثل أسقف نجران وأكيدر صاحب دومة الجندل. كل أولئك كان الأساس الأول الذي قام عليه التأليف في القرن الثاني، بالرواية وذكر السند، ولم يصل إلينا من خطب القوم ومحاوراتهم ورسائلهم إلا ما لا بال له.

أسلوب القرآن:

أما أسلوب القرآن فهو فوق كل أسلوب، وأسمى من كل كلام، لم يعهد العرب مثله في نظام القول وترتيبه، وما استطاعت، على كثرة فصحائها في دهر نزوله، أن تحتذي مثاله في أسلوبه وأداء معانيه، وقد أريدوا على ذلك وتُحدوا عليه. والقرآن حسَّن ملكة الكتابة والخطابة، كما كان كذلك تأثيره في الشعراء، فجاء الشعر الإسلامي أرق من الشعر الجاهلي.

ولقد قال بعض العارفين: إن في القرآن المرسل والمسجع والمزدوج. والمرسل ما يطلق فيه الكلام إطلاقًا ولا يقطع أجزاء، بل يرسل إرسالًا من غير تقيد بقافية ولا غيرها. والمسجع ما أتى قطعًا والتزمت في كل قافيتين منه قافية واحدة. والمزدوج أن يشبه الكلام بعضها بعضًا في السجع أو الوزن. وقالوا: إنه لا يحسن منثور الكلام، ولا يحلو حتى يكون مزدوجًا، ولا تكاد تجد لبليغ كلامًا يخلو من الازدواج.

يقول ابن خلدون: إن القرآن وإن كان من المنثور، إلا أنه خارج عن الوصفين، وليس يسمى مرسلًا مطلقا ولا مسجعًا، بل تفصيل آياته ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها، ويثني من غير

التزام حرف لا يكون سجعًا ولا قافية، ويسمى آخر الآيات فواصل، إذ ليست أسجاعًا، ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي قوافٍ.

وذهب المعتزلة إلى نفي السجع من القرآن، وقال الباقلاني: إن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن، لأن اللفظ يقع فيها تابعًا للمعنى. وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه، وبين أن يكون المعنى منتظمًا دون اللفظ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع، كان مستجلبًا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى، وقال أيضًا: ولو كان القرآن سجعًا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلًا فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال هو سجع معجز، لجاز لهم أن يقولوا شعر معجز؛ كيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر، لأن الكهانة تنافي النبوات وليس كذلك الشعر.

وسواء كان القرآن سجعًا أو ما يشبه السجع، فهو من الكلام المنثور الذي لا تبلغ قرائح البلغاء مداه، ما عرف شبيه له بهذه الروعة وهذه العبقة. يقول الجاحظ: لو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه، ولو استعان بجميع قحطان ومعد بن عدنان. وقال أيضًا: ولو أن رجلًا قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة لتبين له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى به أبلغ العرب لأظهر عجزه عنه لغة ولفظًا.

الأسـلوب الأول:

احتفظت الكتابة والخطابة في عصر الصحابة ومن بعدهم بالطريقة التي ما حذقوا غيرها، وهي تدور على توفية المعنى واللفظ حقهما، مع البعد عن الإطناب والمبالغة، والقصد إلى الإيجاز والسهولة، يرسلون الكلام إرسالًا بلفظ سمح، ومخرج سهل، إملاآتهم كأحاديثهم، ابنة السليقة وربيبة الغريزة، خالية من كل ما هو متكلف مصنّع، «بكلمات مؤلفات، إن فسرت بغيرها عُطّلت، وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة إذا سُمعت، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلبت»، وكانوا يقولون: البلاغة هي التقرب من البعيد، والتباعد من الكلفة، والدلالة بقليل على كثير، وقالوا: البلاغة إيجاز في غير عجز، وإطناب في غير خطل. وإن البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى. وقال علي بن أبي طالب: ما رأيت بليغًا قط إلا وله في القول إيجاز، وفي المعاني إطالة، وقيل لأبي عمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ قال: نعم ليسمع منها. قيل: فهل كانت توجز؟ قال: نعم ليحفظ عنها.

لا جرم أن الإيجاز من طبع العرب وطبيعة لغتهم، وتخير الألفاظ من شأن كل بليغ. والعرب كما قال ابن جني تعنى بألفاظها وتصلحها وتهذبها وتلاحظ أحكامها. قال: فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها، وأفخم قدرًا في نفوسها؛ فأول ذلك عنايتها بألفاظها، فإنها لما كانت عنوان معانيها، وطريقًا إلى إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها وبالغوا في تجييدها وتحسينها، ليكون ذلك أوقع لها في السمع، وأذهب في الدلالة على القصد. وللمتأخرين آراءكثيرة في هذا الشأن، ومنها ما قاله الجرجاني: «لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك، وقولهم يدخل الأُذن

بلا إذن. فهذا مما لا يشك العاقل في أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى، وأنه لا يتصور أن يُراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة».

كانوا يكتبون الرسالة في المقصد الكبير، ويضعون الخطاب في أعظم المعضلات، في إيجاز لا فضول فيه، عار عن المقدمات والتزويق، يقيمون لكل لفظ معناه، ولكل معنى لفظه، وجودة اللفظ تبع لجودة المعنى، «وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة، وعلى طريق الخطباء مشت الكتاب»، ذلك لأن «الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية؛ وقد تتشاكلان أيضًا من جهة الألفاظ والفواصل، فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتّاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، والفرق بينهما أن الخطبة يشافه بها بخلاف الرسالة، والرسالة تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة». قال ذلك العسكري، وذكر غيره أن الخطابة نوع من منثور الكلام، تأخذ من النثر تصوير الحقائق وإبلاغها النفوس من دون إتعاب ذهن، ولا تكلف في الأداء، ومن النظم سلاسته، وتأثيره في النفس.

تبدل الأسلوب:

عرضت بواعث كثيرة لأولي الأمر من العرب بكثرة الفتوح، وانتشار الإسلام، وتمازج الفاتحين بأجناس من الأمم، فاحتيج إلى التعاهد والتعاقد، والتدريب والترتيب، والمرادات والمشادات، ودعت الحال إلى أن يخطب ويكتب في ضروب من الكلام، وما خرج الكاتبون مع هذا عن معهود طريقتهم، لا يتعدون إذا أطالوا في رسائلهم الأسلوب القديم بحال؛ يتوسعون في المعاني للإقناع والتأثير، واستيفاء الموضوع من عامة أطرافه، ويبقون الألفاظ والتراكيب على النسج الذي عرفوه، لا يكثرون من اللفظ إلا بقدر ما يصورون المعاني، ويجمعون شتيت المقاصد، ولا

يستخدمون من الكلمات إلا الشائعة في الاستعمال، ولا من المعاني ما يعلو عن أذهان عامة الطبقات، ولا من السجع إلا ما وافق الطبع.

وزادت مع الزمن أعمال الملك والسلطان، وحدثتْ للناس مشاكل وعضل، وخيف ضياع العلم، فدعت الضرورة إلى تدوين أمهات المسائل في الدين واللغة والشعر والأخبار والسير، والكتابة لم تبرح على ما كانت، يتبسطون في الفكر والشرح، ويبعدون عن التزيد والتزيين، ويراعون الإيجاز ما أمكن، ويحتفظون أبدًا بالطريقة المأثورة عن أهل الصدر الأول؛ فكان التوسع في الأغراض والمطالب فقط، وما خرجوا عن الألفاظ والقوالب المشهورة. وفي كلام التابعين، ومن جاء بعد عصرهم من رواة العلم، جمل قليلة تقرأها في كتب التفسير والسنة والتاريخ والرجال، فتناديك بأن الطريقة القديمة في أداء الكلام لم يدخلها تغيير ولا تبديل.

جاء من الأمويين كُتَّاب بلغاء، وخطباء أبيناء، جروا في ترتيب دولتهم على سنة من تقدمهم في الرسائل والعهود. وفي الموجزات من رسائل عمر بن عبد العزيز مثال من البلاغة، لولا أن اختلط كلامه بما كتبه له كُتَّابه، كان يكتب بيده إلى عماله في الأمصار ويكتب كُتَّابه في المسائل العادية. كان من بلغاء الكتاب ومصاقع الخطباء، ولما بويع بالخلافة دعا إليه كاتبًا فأملى كتابًا واحدًا من فيه إلى يد الكاتب بغير نسخة، فأملى أحسن إملاءً وأبلغه وأوجزه، ثم أمر بذلك الكتاب فنسخ إلى كل بلد، وكتب إلى عامله على المدينة، وقد سأله قراطيس: «دقق القلم وأوجز الكتاب فإنه أسرع للفهم».

جرى بعض خلفاء الأمويين على نهج عمر بن عبد العزيز في الإيجاز، وبعضهم على التطويل؛ وقيل: إن الوليد أول من جود القراطيس، وجلل الخطوط، وفخم المكاتبات، وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد، فإنهما

جريا في المكاتبات على طريقة السلف، ثم جرى الأمر بعدهما على ما سنه الوليد بن عبد الملك، إلا أن صار الأمر إلى مروان بن محمد فعمدوا إلى الإطناب. ولنا أن نقول بعد هذا: إن القرن الأول كان قرن الإيجاز والفطرة، والقرن الثاني قرن التطويل والإيجاز معًا، والناس يتخرجون في البيان تخرجًا، ويجوّد من أوتي طبعًا سليمًا، ولكل زمان ما يليق به من البيان كما قالوا.

الأعاجم والعربية:

كان أخوف ما يخافه العرب على اللغة سراية اللحن إليها، وما أهمهم ما دخل من التطويل على الرسائل والخطب، وما سرى من تغيير طفيف إلى نسج الكلام، كالإكثار من السجع والازدواج. والغالب أن اللحن أخذ يشيع في الناس من عهد الرسول، فقد روي أنه سمع رجلًا لحن في كلامه فقال: «أرشدوا أخاكم فإنه ضل»، ورووا أيضًا أن أحد ولاة عمر كتب إليه كتابًا لحن فيه، فكتب إليه عمر أن قَنِّع كاتبك سوطًا. وعلة الامتناع من الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر ما «شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها».

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك كان لحانًا، وكان عبد الملك فصيحًا، وعرف بلحن ابنه، فقال له: إنك يابني لا تصلح للولاية على العرب وأنت تلحن. وجعله في بيت وجعل معه من يعلمه الإعراب. وإذا لم يكن للخليفة أو الأمير حظ من العربية، وقسط جزيل من البلاغة، فكيف يخطب في أيام الجمع والأعياد، وفي النوازل الكارثة.

سأل الحجاج -وهو من أبلغ الخطباء- يحيى بن يعمر: هل يلحن عنبسة بن سعيد؟ قال: نعم، كثيرًا. قال: فأخبرني عني، هل ألحن؟ قال: لا، أنت أفصح الناس. قال: لتخبرني، قال: إنك تلحن لحنًا خفيفًا، تزيد حرفًا أو تنقص حرفًا، وتجعل (إن) في موضع (أن). ويقال: إن الحجاج قال له: عزمت عليك لتخبرني (عن نفسه). وكانوا يعظمون عزائم الأمراء. فقال يحيى: نعم في كتاب الله، قال: ذاك أشنع، ففي أي شيء في كتاب الله؟ قال: قرأت: {قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله} فترفع (أحبَّ) وهو منصوب. قال: إذًا لا تسمعني ألحن بعدها، ونفاه إلى خراسان، وما احتمل له قوله: إنه قد يلحن، وعدَّ ذلك سُبّة على مثله.

وطبيعي أن يزيد اللحن بدخول الأعاجم في الدين وتمازجهم بالعرب، وأن تضعف ملكة البلاغة في القول والكتابة، بتكاثر كُتَّاب الدولة الأموية وعمالهم من أبناء الروم والفرس والقبط والبربر، ولا سبيل إلى أن يكون الدخيل كالأصيل حذو القُذّة بالقُذة، في منازع التصوير والتفكير والتحبير.

وإذا عرفنا أن اختلاط العرب بالفرس بدأ من عهد الأكاسرة عن طريق الحيرة، حتى إن بهرام جور بن يزدجرد وضعه أبوه عند النعمان بن المنذر ملك الحيرة ليتأدب بآداب العرب، ويعرف أيامها وأخبارها، وأن الحضارة باكرت الحيرة كما باكرت جنوب الشام، وأن شعراء الجزيرة كانوا يفدون على المناذرة والغساسنة فيلقون صدورًا رحبة، ويتقبل أمراء ذينك الإقليمين أماديح شعراء العرب بقبول حسن - إذا عرفنا هذا فلا علينا أن نقول: إن صلات العرب والفرس استحكمت قبل البعثة

بزمن طويل، وكثرت في الفتح وفود الشعراء على بعض أمراء العرب من الفاتحين في فارس، واقتضى نصب كُتَّاب يكتبون لهم في أغراضهم المختلفة.

وَقَرَ في صدور الشعراء والكُتَّاب من العرب ما رأوه في أرض فارس من مدنية قديمة، فأخذوا ينقلون ما رأوا أمتهم في حاجة إليه، وأخذت الدولة العربية عن فارس «قوانين الملك والمملكة، وترتيب الخاصة والعامة، وسياسة الرعية»، وكانت «أكثر المعربات مأخوذة من الفارسية». ولما نقلت الدواوين على عهد عبد الملك بن مروان من الفارسية والرومية والقبطية إلى اللغة العربية انتقل جمهور كبير من الكُتَّاب والحُسَّاب من الأعاجم إلى حجر العرب يكثرون سوادهم.

ولما كان معظم من دانوا بالإسلام من الفرس لأول الأمر أكثر من الروم والقبط -والفرس مجوس تُقصد كالمشركين هدايتهم أولًا ويتسامح مع أهل الكتاب- كثر عديد الكتاب من الفرس بالضرورة، وزاد عدد من ينزلون بلادهم من العرب، لتولي الأحكام وإدارة الملك، وسرت إليهم بعض عادات الفرس من حَيث لا يشعرون، وأمسوا يغرقون في التبجيل والتحميد، ويستعملون ذلك في الرسائل والخطب، وظلت كتابة الكتب بمعزل. وبهذا تكوَّن الأسلوب الفارسي. وكان عبد الملك بن مروان كثيرًا ما يقول: «إن رَوْح بن زنباع -وهو من المشهورين بالخطابة والعلم والسياسة- شامي الطاعة، عراقي الخط، حجازي الفقه، فارسي الكتابة».

وتجلت في القرن الثاني الطريقة الفارسية في العربية، ووضع عبد الحميد بن يحيى أساس هذا الأسلوب المطوّل، وكان يحسن الفارسية، وهو أول من أطال الرسائل، ولم يعهد تطويل مثل تطويله في أهل القرن الأول، اللهم إلا ما كان من رسالة علي بن أبي طالب إلى الأشتر النخعي، وهي في مطالب إدارية عظيمة، هذا إذا صحت نسبتها إلى أمير المؤمنين. فأسلوب القرن الثاني لم يخرج -والحالة هذه- عن

أسلوب أهل القرن الذي تقدمه بألفاظه وتراكيبه، اللهم إلا ما كان من سجع قليل، وشيء من مبالغة وتهويل، ولولا الإطالة لأشبهت كتابة أهل القرن الثاني كتابة أهل القرن الأول. دع ما كان من أفكار جديدة سرت بالترجمة والاختلاط، مما هو طبيعي في اللغات والأمم.

وتعليل هذا الغلو المستفيض في كتابة الفرس، وكتابة من تأثروا بآثارهم من كُتَّاب العرب، أن الفرس كانوا قبل حكم العرب يؤلهون ساداتهم وكبراءهم، وهؤلاء يسخرونهم كما يسخرون العبيد، وما على العبد إلا إرضاء سيده، والإدهان له. والإسلام لم ينزع كل ما تأصل في الطباع. وصار إيغال الفرس في التبجيل والتعظيم خلقًا لهم، وعادة متأصلة على الأيام، فظهر أثر ذلك في الكتابة -والكتابة مرآة صاحبها- على ما لم يعهد مثله للعرب فيما سبق من الآدباء. بدا ذلك قليلًا في بعض كُتَّاب القرن الثاني وشعرائه، وعمَّ وطمَّ في القرن الرابع.

ومن قارن بين ما كان يصدر من الرسائل عن الصحابة وخلفاء بني أمية وأوائل بني العباس، وما كان يصدر في مثل موضوعها عن كُتَّاب العباسيين في القرن الرابع يقع على فروق، يسوغ لك أن تقول معها: إن الكتابة انقلبت رأسًا على عقب، وإن بعض ما دبجه الكاتبون هذا القرن في السلطانيات خاصة والإخوانيات عامة، ليس إلا أسلوبًا فارسيًّا مهذبًا: ألفاظ كثيرة، وجناسات واستعارات، تشفُّ في الواقع عن حضارة، وما هي إلا نثر فيه الصنعة وفيه التصنع. والمدنية على جمالها لا تخلو في كل عصر من تعقيد، وقد سبقت الكتابة في هذا الباب فتبدل المطبوع بالمصنوع أو كاد.

جرى بعض الخلفاء الأول من بني العباس في الشرق وبني أمية في الغرب خلال القرن الثاني على طريقة أهل القرن الأول، يطيلون تارة ويوجزون أخرى،

وكذلك ساروا في الرسائل والخطب؛ ويزيد التمسك بالقديم إذا كان الخليفة كاتبًا بليغًا مصقعًا في ذاته، كالمنصور والرشيد والمأمون، وكانوا يعرفون للبلاغة قدرها، ويحملون كتابهم على الإيجاز، مراعاة لروح اللغة، واقتداء بسيرة أئمتها، وحرصًا على أن لا يصدر عن دواوينهم ما تنبو عنه الأذواق، ويغني قليله عن كثيره.

الأسلوب المنتشر:

رأى الناس بعد القرن الثاني أن من المصلحة الإسهاب في المكاتبات فأسهبوا، وبدأ إسهابهم ضئيلًا ثم عمَّ بعد. وقد أبان ابن قتيبة سبب الإسهاب والاقتضاب بقوله: وليس يجوز لمن قام مقامًا في تحضيضض على حرب، أو حمالة بدم، أو صلح بين العشائر، أن يقلل الكلام ويختصره، ولا لمن كتب إلى عامة كتابًا في فتح أو استصلاح أن يوجز، ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه تلكؤه في بيعته: «أما بعد، فإني أراك تقدم رجلًا وتؤخر أخرى، فاعتمد على أيهما شئت والسلام»، لم يعمل هذا الكلام في أنفسها عمله في نفس مروان، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر، ويعيد ويبدي، ويحذر وينذر.

ومثل هذا رأي صاحب الصناعتين قال: «إن المعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر والنهي سبيلها أن تؤكد غاية التأكيد، بجهة كيفية نظم الكلام لا بجهة كثرة اللفظ؛ ومثل ذلك ما يكتب من السلطان في أمر الأموال وجبايتها واستخراجها، ومنها الإحماد والإذمام، والثناء والتقريظ، والذم والاستصغار، والعذل والتوبيخ، فإن سبيل ذلك أن تشبع الكلام فيه، وكذلك فيما يكتبه العمال إلى الأمراء فمن فوقهم، وكذلك في الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة، والفتوح

الجليلة، وتفخيم النعم الحادثة، والترغيب في الطاعة، والنهي عن المعصية، سبيلها أن تكون مشبعة فتملأ الصدور، وتأخذ بمجامع القلوب».

وجملة الأمر: أن الكُتَّاب في القرن الثاني والثالث جروا على سنة القدماء في الرشاقة والجزالة، وخالفوهم في الأسلوب والوضع، على ما لا يعبث بمذاهب الكلام؛ فكان فيهم من يطيل ويسهب، وفيهم من يوجز ويقتضب، وفيهم من يبالغ في المعنى ويغلو، وفيهم من يقتصد في اللفظ ولا يسرف؛ فأسلوب ابن المقفع، وسهل بن هارون، وعمرو بن مسعدة، والجاحظ، إيجاز وتطويل بحسب الحال، والجاحظ إلى البسط أقرب في الأحايين، لأنه يقرر أنظارًا، ويضع تعاليم، ويفسر علمًا وأدبًا، ويشرح معارف وحقائق، ويحاج ويجادل، فليس له غنى عن التوسع في فنون الكلام، وإذا أفاض فكلامه كلام أهل القرن الثاني والثالث؛ أما بلاغته فبلاغة أهل القرن الأول، لا سجع في كلامه إلا ما جاء عفوًا، ولا تحس الصنعة فيه إلا إذا كان في تجديد المعاني والتراكيب، واستعمال الجزل من الألفاظ.

ونحن على حق إذا ادعينا، بعد الذي قدمنا، أن ملكة التطويل استحكمت أواخر القرن الثاني، بتكاثر عدد من نشأ من الفرس كتابًا وخطباء ومؤلفين، أدمجوا فيما أنشئوا إسرافهم في التعظيم والتطويل، واشتد تمازج من كانوا من أصل عربي من الكُتَّاب والمؤلفين والرواة بأهل فارس، حتى كادت دولة العباسيين تعد دولة فارسية لولا مكان الخليفة من العرب. وظهر الغلو في القول والإسراف في اللفظ، وتلوين المعاني وإبرازها في صور كثيرة، وتفنن بعض الكاتبين في إرسال الكلام، وأوغلوا في الصنعة والتثقيف، حتى أوشك البيان أن يصاب بما يخرجه عن رونقه القديم؛ فنصح جعفر بن يحيى، وهو أمير من أمراء البيان للكتاب قائلًا: إن استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا.

قال هذا في العهد الذي أخذ فيه الأعاجم يسطون على الأسلوب العربي على هذا الوجه، وفي تلك الحقبة كان العارفون يحاذرون ضياع الأسلوب القديم جملة، حتى إن المأمون رفع إلى مقام الوزارة كلًّا مِن عمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف الكاتب لما أُعجب به من توخيهما الإيجاز في الرسائل على طريقة القدماء، وقال يومًا: ما أعجب لكلام أحد كإعجابي بكتاب القاسم بن عيسى (أبي دُلَف) فإنه يوجز في غير عجز، ويصيب مفاصل الكلام، ولا تدعوه المقدرة إلى الإطناب، ولا تميل به الغزارة إلى الإسهاب، يجلي عن مراده في كتبه، ويصيب المغزى في ألفاظه.

نعم رفع الملوك من بني العباس بلغاء كتابهم إلى الوزارات، وقلما رفعوا شاعرًا لشعره، لأن الشعر خيال وحس، والكتابة عقل وحقيقة، وحاجة الممالك في تدبيرها إلى العقول أكثر من احتياجها إلى العواطف، والعلوم على اختلاف ضروبها تكتب نثرًا. ولما نظم المتأخرون متون العلم كالفرائض والقراءات والفقه والنحو وغيرها شعرًا أفسدوا الشعر، وما أفادوا العلوم والمتعلمين كبير أمر؛ وكان هذا العبث كالعبث بصنع الكلام يوم استخرجوا من نثر ابن المعتز ذاك الفن الذي سموه البديع، فأفسد نظام الكلام، وأخرج البيان عن أصوله وطرائقه إلى صنعة يقصد بها المجانسات في الألفاظ، والاستعارات والتشبيهات في المعاني.

والكُتَّاب كما يقول ابن قتيبة هم ألسنة الملوك، إنما يتراسلون في جباية خراج، أو سد ثغر، أو عمارة بلاد، وإصلاح فساد، أو تحريض على جهاد، أو احتجاج على فئة، أو دعاء إلى أُلفة، أو نهي عن فرقة، أو تهنئة بعطية، أو تعزية برزية، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب، ومعاظم الشئون التي يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوي آداب كثيرة ومعارف مفننة.

قال: والشعراء إنما أغراضهم التي يرمون نحوها، وغاياتهم التي يجرون إليها، وصف الديار والآثار، وذكر الأوطان، والحنين إلى الأهواء، والتشبيب بالنساء، ثم الطلب والاجتداء، والمديح والهجاء. ولذلك قال ابن خلدون: إن صاحب خطة الرسائل والكتابة لا بد أن يُتخير من أرفع طبقات الناس، وأهل المروءة والحشمة منهم، وزيادة العلم وعارضة البلاغة. وقال ابن سنان: منزلة الشاعر إذا زادت وتسامت لم ينل بها قدرًا عاليًا ولا ذكرًا جميلًا؛ والكاتب ينال بالكتابة الوزارة فما دونها من رتب الرياسة. قال: «وصناعة تبلغ بها إلى الدرجة الرفيعة أشرف من صناعة لا توصل صاحبها إلى ذلك؛ وإن أكثر النظم إذا كشف لا يعبر عن جد، ولا يترجم عن حق، وإنما الحذق فيه الإفراط في الكذب، والغلو في المبالغة، وأكثر النثر شرح أمور متيقنة وأحوال مشاهدة، وما كثر فيه الجد والتحقيق أفضل مما كثر فيه المحال والتغرير».

هذا غاية ما يقال في كُتَّاب الرسائل أو كُتَّاب الدواوين. أما شرف الكتابة والحاجة الحافزة إلى إتقانها في التأليف، فهو غني عن البيان بعد أن شاهدنا طبقات من المؤلفين كان من أعظم الدواعي لخلود تآليفهم إجادتهم الكتابة؛ ولا نذكر منهم إلا من وصلنا شيء مما كتبوه، كأبي يوسف صاحب أبي حنيفة، ومسلم صاحب الصحيح، وصالح بن جناح صاحب كتاب الأدب والمروءة، وابن حبان البستي وابن المدبر وابن جني وابن سلام وابن قتيبة والثعالبي والطبري والمسعودي والمقدسي والدينوري والبلاذري والمبرد وابن الداية وأبي بكر الصولي والقاضي التنوخي وابن عبد ربه والمرزباني وأبي هلال العسكري وقدامة والباقلاني وأبي الحسن الأشعري وعلي بن هندو ويحيى بن عدي وعبد القاهر الجرجاني وعلي بن عبد العزيز ومسكويه وابن حزم وأبي الفرج الأصبهاني وابن زيدون والبكري وابن طفيل والغزالي والراغب الأصفهاني والماوردي والقالي وأضرابهم.

وما سلم من كتبهم شاهد أبد الدهر على تفوقهم في البيان، وكان نبوغهم فيما عانوا من الفنون، مضافًا إلى براعتهم في الإنشاء، أعظم نعمة على الآداب العربية؛ وهؤلاء وضرباؤهم هم الذين رسخت بهم ملكة البيان العربي على مرور الأزمان، وفضلهم على الكتابة يوازي فضلهم في علوم أرادوا بثها، وقد يربو على فضل الشعراء على الأدب.

قال الجاحظ عن نفسه: إنه طلب علم الشعر عند الأصمعي فوجده لا يحسن إلا غريبه، فرجع إلى الأخفش فوجده لا يتقن إلا إعرابه، فعطف على أبي عبيدة فوجده لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، وقال: إنه لم يظفر بما أراد إلا عند أدباء الكُتَّاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات. والكُتَّاب يقدرون الشعر قدره أكثر مما يقدر الشعراء قدر الكتابة؛ واصطلح الكتاب كما قال ابن رشيق على ألفاظ بأعيانها سموها الكتابه فما تجاوزوها إلى ما سواها، وعرفوا معاني للبلاغة في النثر لم يتوفر للنظم مثلها؛ ولذلك كانت الإجادة في النثر أصعب من الإجادة في الشعر.

الأسلوب المتكلف:

هذا وإن في منثور الكُتَّاب من القرن الثاني إلى الخامس بل السادس إحسانًا دونه كل إحسان، والقليل الذي قرأناه لعمارة بن حمزة وإسماعيل بن صبيح وجعفر بن يحيى ويحيى بن جعفر وخالد بن جعفر وعلي بن عيسى وابن الفرات هو غرة في وجوه الكلام على غابر الأيام.

وكان لعلي بن عيسى «مذهب في الترسل، لا يلحقه فيه أحد ولا ابن الفرات»، وابن الفرات هو الذي وضع الألقاب في مخاطبة الملوك والأمراء والوزراء والعمال، وكانوا قبله يكتفون بالاسم والتكنية، ولا تلحظ في الكتابة من الصغير إلى الكبير

وبالعكس تعظيمًا ولا تصغيرًا، شأن العرب في مخاطبة بعضهم بعضًا، يتخاطبون بأسمائهم وكناهم، ويقتصرون في المكاتبات على اللباب دون القشور. ولم يطل عمر هذه المصطلحات في التلقيب؛ فالمواضعة والاصطلاح في الخطاب يتغير -كما قال ابن سنان- بحسب تغير الأزمنة والدول. قال: إن العادة القديمة قد هجرت ورفضت، واستجد الناس عادة بعد عادة، حتى إن الذي كان يستعمل في عصره في الكتب غير ما كان يستعمل في أيام أبي إسحق الصابي مع قرب زمانه من زمان ابن سنان.

هذا في بلاد الشرق. أما في الأندلس فقد ظلت دولتهم عربية في كل مظاهرها، لا تعرف التلقيب الذي أحدثه من جاوروا الفرس وأخذوا مدنيتهم وأدخلوا رجالهم في جملتهم. قالوا: وكان ابن قصيرة من كتاب الأندلس «على طريقة قدماء الكُتَّاب من إتيان جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أخذها متأخرو الكتاب، اللهم إلا ما جاء في رسائله من ذلك عفوًا من غير استدعاء».

وكذلك يقال في ابن بسام، فإنه أحسن تصوير من ترجم لهم من شعراء الجزيرة، كما أحسن في القرن الثامن لسان الدين بن الخطيب في تصوير رجال غرناطة. وظل كُتَّاب الأندلس على اقتفاء خُطا العرب في الكتابة حتى راجت في المشرق أساليب جديدة فحاكوها؛ وظلوا مع هذا أكثر ميلًا إلى الفطرة واقتصارًا على المعاني. وزعم ابن خلدون أن المتأخرين استعملوا أساليب الشعر وموازينه في المنثور، وأنهم هجروا المرسل وتناسوه خصوصًا أهل المشرق، قال: وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضىَ الحال، من أحوال المخاطَب والمخاطِب؛ هذا ما قاله. والأندلسيون من المتأخرين لم يكونوا في السجع والتطويل

دون المشارقة على ما تقرأ ذلك في نفح الطيب وقلائد العقيان ومطمح الأنفس وغيرها، حاشا المؤلفين منهم فقد داموا إلى آخر أيام الأندلس يكتبون بلا تعمّل في الجملة، وحييت الكتابة في دولة بني الأحمر آخر ملوك العرب في تلك الديار، والشعر الذي وصلنا منهم أكثر من النثر.

هجم السجع هجومًا مروعًا على الكلام المرسل فأضعف من قواه، ونال من قوامه بعد القرن الرابع؛ وكان أول من غالى في التزام الكتابة المسجوعة أبو إسحاق الصابي، وأبو بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني، والصاحب والعتبي، واقتفى أثرهم كُتَّاب الأندلس ومصر؛ وعدم التكلف غالب على البديع، فقد يتخلى عن السجع في رسائله، كما يترك الصابي ذلك في بعض عهوده. وقالوا: إن الصابي كان يكتب ما يراد، والصاحب يكتب ما يريد. وكان ابن العميد يعد في جملتهم، لولا أنه التزم طريقة المرسل وطريقة المسجوع معًا، ووضع طريقة الشعر المنثور. وقالوا: إنه أقل معاصريه احتفالًا بالسجع، مع أن الذي قرأناه له ينافي هذا القول، وكأنه أشبه بحلقة اتصال بين دور الكلام المطبوع، ودور الكلام المصنوع.

قالوا: بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد؛ وهو قول يحتاج إلى نظر، والعالم على ما يقول الباقلاني لا يخفى عليه الفضل بين رسائل عبد الحميد وطبقته وبين طبقة من بعده، حتى إنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد وبين رسائل أهل عصره ومن بعده، ممن برع في صنعة الرسائل وتقدم في شأوها، حتى جمع فيها بين طريقة المتقدمين وطريقة المتأخرين، فخلص لنفسه طريقة، وأنشأ لنفسه منهاجًا؛ فسلك تارة طريقة الجاحظ، وتارة طريقة السجع.

وضع الهمذاني طريقة المقامات، وقيل: إنه اقتبسها من ابن دريد، وعلى منواله نسج الحريري في القرن التالي على أسلوب مبتكر، لا يصلح للرسائل ولا للكتب،

وما هو إلا ضرب جديد من النثر، تقرأ في تضاعيفه الكلفة الظاهرة، وقد قلدها فيه الزمخشري والوطواط، ومن المتأخرين ابن الوردي والسيوطي، والسيوطي ولع كمعاصره ابن عبد الهادي أن يكتب في كل موضوع؛ ومعظم أبناء هذه العصور عصور السجع هم أهل تكلف وتصنع، وأبو العلاء المعري يندمج فيهم وإن تقدمهم في الميلاد؛ فهو حكيم لغوي غلب الغريب والسجع على ما كتب في رسائله، و«رسالة الغفران» لو خلت من السجع لكانت في موضوعها آية، وابن القارح في رسالته التي رد عليها أبو العلاء أكتب وأبلغ، وفي منثور المعري نشوفة ويبوسة لا تخفى على من تذوق البلاغة.

ذكر الثعالبي، وهو من أئمة الكتابة الذين جَوّدوا في المرسل والسجع، أن من النثر المسجع ومنها المرسل، قال: والمحمود في هذا الزمان -أي: في القرن الخامس- المرسل، إذا اشتمل على شيء من السجع يجيء عفوًا. وقال صاحب نقد النثر: «إن من أوصاف البلاغة السجع في موضعه، وعند سماحة القريحة به، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه؛ فإن السجع في الكلام كمثل القافية في الشعر، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها، والسجع مستغنًى عنه، فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله، وخطبه ومناقلاته، فذلك جهل من فاعله وعِي من قائله، وقد رويت الكراهية فيه عن رسول الله، ولو كان لزوم السجع في القول والإغراب فيه وفي اللفظ هي البلاغة، لكان الله عز وجل أولى باستعماله في كلامه الذي هو أفضل الكلام، ولكان النبي والأئمة المهديون قد استعملوهما ولزموا سبيلهما، وسلكوا طريقهمها، فأما ولسنا واجدين فيما بين أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا في المواضع اليسيرة، فهم أولى بأن يقتدى بهم ويحتذى بمنهاجهم».

وبأدنى نظر يلمح الناقد البصير ان علماء البيان، وإن كانوا يجنحون إلى تفضيل المرسل، جمجموا في حكمهم على السجع ولم يبينوا، لأن السجع في عصورهم أصبح زيًّا من أزياء البلاغة وله أنصار غُيُر عليه: فما جوزوا لأنفسهم أن يثلموه، وراعوا العرف اضطرارًا فحادوا بذلك عن الجادة. يقول العسكري: واعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك فيها السجع، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد، وكثير ما يقع ذلك في السجع، وقلما يسلم إذا طال من استكراه وتنافر. وقال ابن سنان: وبعض الناس يذهب إلى كراهة السجع والازدواج في الكلام، وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيرًا، وحجة من يكرهه أنه ربما وقع بتكلف وتعمل واستكراه، فأذهب طلاوة الكلام، وأزال ماءه؛ ووجه من يختاره أنه مناسبة بين الألفاظ يحسنها، ويظهر آثار الصنعة فيها. وأما الفواصل التي في القرآن، فإنهم سموها فواصل ولم يسموها أسجاعًا؛ وفرقوا فقالوا: إن السجع هو الذي يقصد في نفسه، ثم يحمل المعنى عليه، والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في أنفسها. اهـ. وصرح الرماني برأيه فقال: إن الفواصل بلاغة، والسجع عيب.

واعترف ابن الأثير في المثل السائر، وهو السجاع المنقطع النظير، بأنه لا يجود في فن السجع إلا الأفراد القلائل، فقال: واعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع؛ ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع، لكان كل أديب من الأدباء سجاعًا، وما من أحد منهم، ولو شدا شيئًا يسيرًا من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظًا مسجوعة ويأتي بها في كلامه؛ بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة، لا غثة ولا باردة، وأعني بقولي: غثة باردة أن صاحبها يصرف

نظره إلى السجع نفسه، من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة، وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها، وما يشترط له من الحسن، وهو في الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابًا من الكرسف، أو ينظم عقدًا من الخزف الملون؛ وهذا مقام تزلُّ عنه الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب الفن بعد الواحد؛ ومن أجل ذلك كان أربابه قليلًا، فإذا صُفي الكلام المسجوع من الغثاثة والبرودة فإن وراء ذلك مطلوبًا آخر، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعًا للمعنى، إلا أن يكون **المعنى فيه تابعًا للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموّه على باطن مشوّه، ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب. اهـ.**

ويقول عبد القاهر: وهو أبلغ من كتب في البيان بعد الجاحظ؛ العلماء يذمون من يحمله السجع والتجنيس على أن يضم لهما المعنى، ويدخل الخلل عليه من أجلهما، وعلى أن يتعسف في الاستعارة بسببهما، ويركب الوعورة، ويسلك المسالك المجهولة. ولا بأس بأن يزاد على قوله: إن أكثر من سجعوا أطالوا وأضاعوا المعاني، ولو تهيأ لكل ما كتبوا من يُجرى عليه قلم الحذف والإثبات لذهب نصف ما سطروه، ولكان الباقي سليمًا من التزيد، لا فضول في تضاعيفه، ولا حشو في حواشيه، أخذ من البلاغة والفصاحة حظًّا عظيمًا.

والبلاغة -كما قال ابن حيدر- ليست ألفاظًا ولا معاني، بل هي ألفاظ يُعَبَّر بها عن معان، ولكن ليس كما اتفق ولا كيفما وقع، لأن ذلك لو جرى هذا المجرى لكان أكثر الناس بليغًا، إذ كان أكثرهم يؤدي عن المعاني التي يولدها بألفاظ تدل عليها، لكنهم يخرجون من طريق البلاغة، ومنهاج الكتابة من وجهين: أحدهما: أن تكون الألفاظ مستكرهة مستوخمة، غير مرصوفة ولا منتظمة. والثاني: أن تكون كثيرة يُغني عنها بعضها، ويمكن أن يعبر عن المعنى الدال عليها بأقل منها.

وبعد أن أوصى بالإيجاز قال: وهذا مذهب العرب وعادتهم في العبارة فإنهم يشيرون إلى المعاني بأوحى إشارة، ويستحبون أن تكون الألفاظ أقل من المعاني في المقدار والكثرة، وذكر ابن أبي الإصبع أن المتقدمين كانوا لا يحفلون بالسجع جملة، ولا يقصدونه بتة إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام، واتفق على غير قصد ولا اكتساب، وإن كانت كلماتهم متوازنة، وألفاظهم متناسبة، ومعانيهم ناصعة، وعباراتهم رائقة، وفصولهم متقابلة؛ وتلك طريقة الإمام علي ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام، كابن المقفع، وسهل بن هارون، وأبي عثمان الجاحظ، وغير هؤلاء من الفصحاء والبلغاء.

قلنا: إن كتابة المسجعين لو خلت من هذا التكلف السمج لنالت قسطًا من البلاغة، وفي يقيننا أن ابن بُطلان وابن جبير وعبد اللطيف البغدادي أرقى كعبًا في البلاغة، بما وصفوه من البلدان والسكان، من القاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن الصيرفي، فإن الثلاثة الأولين أدوا المعاني الجليلة في الألفاظ القليلة، والآخرين على تمكنهم من نواصي اللغة تكلفوا الأسجاع فأضاعوا من مكانتهم. وكان ابن القفطي وابن أبي أُصيبعة وابن خلكان وابن العديم وابن الطقطقي والنويري إذا تخلوا عن السجع أجادوا كل الإجادة. وكذلك يقال في كتَّاب أهل القرن الثامن والتاسع أمثال ابن فضل الله العمري والصلاح الصفدي وابن منظور والمقريزي؛ ومن أعظمهم ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب، وما خطته أناملهما شاهد على وجه الدهر بأنهما غريبة عصرهما؛ وكتابة ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية من السهل الممتنع، والتلميذ أجزل من أستاذه بيانًا.

وقع هذا الضعف في اللغة باستيلاء الأعاجم على بلاد العرب وغيرها؛ وكانت دواوين الرسائل في العواصم من قبل، مدارس لتخريج الكُتَّاب في البلاغة، حتى في

العهد الذي اشتدت فيه حاجة العرب إلى تعرف لغات الأمم المجاورة لها في الغرب والشرق، و«تنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية وتفاهموا في غير اللغة العربية» كما قال صاحب اللسان، وكان فن الكتابة بمصر في زمن الدولة الفاطمية مثلًا غضًّا طريًّا؛ وديوان المكاتبات لا يخلو «من رأس يرأس مكانًا وبيانًا، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانًا»، وجاء فيهم مثل ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء على عهد الحافظ العبيدي، وكانت له «قوة على الترسل يكتب كما يشاء». يقول ابن خلدون: إن رافع راية البلاغة في الأندلس ابن حيان المؤرخ وابن عبد ربه والقسطلي. ولا شك أنه تقدمهم وتأخر عنهم كثير من العظماء في البلاغة، ومنهم ابن بسام والبلوطي والحصري والشاطبي وابن سيده وابن حناط الكفيف وابن خاتمة وعشرات أمثالهم من المؤلفين الكاتبين. ولم يكن البيان في الأندلس مقصورًا على الرجال بل شارك فيه النساء نظمًا ونثرًا، كما وقع لمعظم بلاد الإسلام أيام عزها، فأبدعن وأدهشن، وكن من المبرزات في رواية السنة منذ قام الرسول يهدي إلى دينه.

وعَفَّى القلقشندي وابن عربشاه والخفاجي وأضرابهم على محاسنهم، بما أخذوا أنفسهم به في القرن التاسع والعاشر من مذاهب السجع والجناس والتشبيه. وتناسى الكُتَّاب الكلام المرسل منذ القرن العاشر إلى أواسط القرن الثالث عشر، فقلَّ المجودون من المترسلين والمؤلفين، وندر الإبداع، وتراجع العلم والأدب، وما فتئ أرباب الأقلام يسترون نقص كلامهم بأسجاعهم وتطويلاتهم، ولا نذكر لمؤلف إبداعًا في هذه العصور، وأكثرهم أدنى إلى أن يُعَدُّوا نقلة ومحتذين منهم إلى أن يحسبوا كاتبين ومؤلفين، ودثر كثير مما كتبوا لاستغناء الناس عنه، ولأنه غير صالح للبقاء، وما بقي مما روعي فيه الطبع من التآليف والرسائل، فهو أندر من الكبريت الأحمر، ونيما طبع من كتب المتأخرين من اليمانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة من ذاك العهد مثال ترتجف أعصاب البلغاء من سماعه فضلًا عن تناقله.

نعم إن في بيان المتأخرين في عصور التدلي شناعة وهجانة، جاء ضعيف المادة، قلق الأسلوب، مبتذل اللفظ، مغموسًا في التقليد، محوكًا بالتعقيد؛ ولا نذكر كاتبًا مسترسلًا نشأ في القرون الأربعة المنحطة يصح عدّه في فحول الكتاب، لأنهم كلهم أهل سجع وبديع، وكلهم ألفوا اقتباس طريقة من سبقهم، فتغذى أدبهم من مادة ضعيفة، تسلسل فيها الوهن والجمود بكرور الأيام. وربما جاء في غضون تلك الأحقاب من لا بأس بأدبه، وكان يمكن أن يُتجوز في ضمه إلى سلك البلغاء، لو وقع إلى ديوان ملك يفهم منه ما يكتب له في هذا اللسان، ذلك لأن دولة العرب زالت بخروج الأندلس عن حكم المسلمين، وبقي قليل من الذَّماء في البيان في دولة الغرب الأقصى مشوبًا بعجمة بربرية، وبسقوط سائر بلاد العرب في حكم الأتراك العثمانيين، واستقلال فارس دولة فارسية، زاد الحال إعضالًا؛ فاعتمدت هاتان الدولتان على لسانيهما وأغفلتا العربية، خلافًا للمماليك في مصر، فإنهم رفعوا من أقدار المؤلفين والكاتبين في عهدهم، إلى ما يستغرب من أعاجم مثلهم، والفضل لمصر في ذلك، فإنها أدخلتهم في بوتقتها العربية فعرّبتهم. أما دولة الترك فإنها قضت -قصدًا أو عن غير قصد- على كل ما هو عربي في بلادها، وتآليف أشهر علمائها في العربية تشهد لهم بالعجمة في كل سطر دوّنوه.

إحياء الأسلوب القديم:

وما زالت الحال في هبوط حتى قام في مصر الإمام محمد عبده، وفي الشام اللغوي أحمد فارس في أواخر القرن الماضي، وردَّا اللغة إلى سهولتها الأولى بما كتباه وألفاه، فدبت الحياة في الكتابة في مصر والشام، يتعمد الكاتبون الأساليب الحديثة ممزوجة بديباجة القدماء، وساعد على ذلك انتشار اللغات الأجنبية بين بعض المثقفين من أبناء الضاد، وكثر المترجمون فاطلع من كانوا يعانون الأدب على طرق الأمم في تأدية المعاني، بل كان بعض المبرزين في الإنشاء هم ممن حذقوا لغة غربية مع

العربية. كل ذلك كان من العوامل في خروج الكتابة والتأليف عن أسلوب العهد المغولي، ومحاولة جميلة لإعادة اللغة إلى عصرها الذهبي. والفضل العظيم أيضًا لانتشار الصحف والمجلات بين الخاصة والعامة، ولانتظام المدارس بالنظام الغربي، حتى اضطرت المعاهد الدينية المحافظة كالأزهر والزيتونة أن تسير على الأسلوب الذي جرت عليه المدارس العصرية في التدريس والكتابة والتأليف، وشاع في كل بلد الأسلوب الرشيق الخالي من تلك الحلية البالية التي طالما غالى الكتاب في المباهاة بها، ونعني بها السجع المتكلف، واللعب بالألفاظ، وإهمال المعاني.

ويقلُّ اليوم في مجالس المتأدبين استعمال البديع والتسجيع ولو على سبيل التسلية. وما زال الإنشاء يقترب من الأسلوب البليغ، ويتفوق المجددون اليوم بعد اليوم في المخطوب والمكتوب، ويختفي السجع في ظلمات الليالي، ولا تكاد تجد له من يجوّزه في الخطب الدينية، ولا تمضي خمسون سنة أخرى حتى تعود الكتابة والخطابة إلى الرونق القديم على عهد بلغاء الكُتّاب.

وآخر من عرفناهم ممن يعطفون على السجع أحيانًا، وإن كان لهم في الكلام المرسل إحسان وإبداع، صديقنا أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، فإنه محافظ على الطريقة القديمة في مقدمات الكتب وعناوينها، يترسم خُطا ابن خلدون في مقدمة مقدمته واسم تاريخه الخالد. ومع أن ابن خلدون سيد من ترسل في المتأخرين وهو من أنصار التجدد، مال مع المحافظين في هذه الناحية على ما لم يعهد شبيه له في مؤلفي قرون المجد العربي، أهل القدوة والمثال الذي لا يحتذى غيره.



عبد الحميد الكاتب

عصره:

كان عصر عبد الحميد عصر الإقبال والإدبار في الدولة الأموية. بلغ الأمويون قمة مجدهم في عهد الوليد بن عبد الملك، وتم نقل الدواوين إلى اللسان العربي في الأقطار، فتجلت الدولة عربية في عامة مظاهرها، واتسعت الفتوح في الشرق والغرب، وكانت الأندلس من جملة ما فُتح؛ فأنشأ بنو أمية في الجنوب الغربي من أوربا مملكة عظيمة، وبدءوا بنشر العربية بين البربر وشعوب إسبانيا، وأقام الوليد المصانع العادية في الحجاز والشام وما إليهما، تخلد مجد الدولة العربية، وتخرج المسلمين في بيوت عبادتهم من سذاجة البداوة إلى نيقة[1] الحضارة، وكثرت في كل بلد المرافق العامة، وكان ينفق أكثر ما يفضل من جباية الدولة على استحداث المساجد ودور المرضى والترع والجسور والطرق.

وفي هذا العصر استخلف سليمان بن عبد الملك ابن عمه عمر بن عبد العزيز، فدُعي سليمان مفتاح الخير لرفعه المظالم، ورده المسيَّرين[2] وإخراجه المسجَّنين، وسار ابن عبد العزيز في الخلافة بسيرة العمرين أبي بكر وعمر، فأغنى الناس في عهده القصير، حتى لم يبق في أكثر الولايات من يأخذ الصدقة، وأبطل الحروب والغزوات، مجتزئًا بما فتحته العرب من البلاد، وحبب بحسن سيرته الإسلام إلى

---

(١) تنيق في مطعمه وملبسه: تجود وبالغ كتنوق، والاسم النيقة.

(٢) سيره من بلده: أخرجه ونفاه.

الشعوب، فدخل الناس فيه أفواجًا، في بلاد الهند والترك والخزر والبربر والقبط، وكانت صلاته بالروم على أحسن ما تكون عليه صلات دولتين متجاورتين.

وجاء هشام بن عبد الملك يحيي سنة أجداده في حسن التدبير والسياسة، ويضع للأموال نظامًا لا غبن فيه على الراعي ولا على الرعية، واستخذت[1] الروم في أيامه فأسر ملكها، وكان موفقًا في أعماله، عدَّ عهده آخر أيام السعادة في بني أمية، فلم يهنئوا بعده بالملك، ولا هنئت بهم الرعية، لانتشار الخلاف على الخلافة بين بني مروان، واضطراب المملكة بتقاتل أبناء العم، واشتداد المماراة بين أولياء العهد؛ إذ كان من العادة أن يولي الخليفة عهده من بعده اثنين غالبًا، وبدت العداوة بين اليمانيين والمضريين، فكان فساد الجيش، وتنازع آل البيت الممالك، مؤذنين بذهاب الملك.

وفي هذا العصر كثرت هجرة العرب إلى البلاد التي أظلتها الراية الأموية، كفارس والعراق والشام ومصر وإفريقية والأندلس، وعاونتهم الدولة بإقطاعهم الأرضين الشاغرة، وجعلت في بعض الأقطار جزية أهل الذمة طُعمة[2] للمهاجرين، ترغيبًا لمن وراءهم للالتحاق بهم، فبدأ النقص في سكان جزيرة العرب، وذكّرت الغوائل بين قيس ويمن بما كان من الطوائل[3] في الجاهلية، ورجعت العرب بالعصبيات إلى عادات لهم حظرها الإسلام، فأدى ذلك بالملة والدولة إلى أسوأ مصير.

وفي هذه الحقبة جرى تدوين العلوم، ولا سيما الحديث، دُوِّن بأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقد حاذر ضياع السنة بانقضاء عصر الصحابة والتابعين، وكثر

(١) استخذى: خضع وذل.

(٢) الطعمة: الرزق.

(٣) الطائلة: العداوة، والجمع الطوائل، وهي الذحول والأوتار.

تدوين اللغة والشعر، وتعلقت همة عالم قريش وحكيم آل مروان خالد بن يزيد الأموي بنقل كتب الطب والكيمياء والنجوم والحرب والآلات إلى العربية، وأعطى التراجمة والفلاسفة، وقرّب أهل الحكمة ورؤساء كل صناعة، وهو أول من أنشأ خزانة كتب في الإسلام. ثم تُرجم كتاب في الطب وبدأ الأفراد بعد ذلك ينقلون من الفارسية والسريانية شيئًا من كتب السياسة والحكمة، يهدونها للخلفاء والأمراء من بني أمية.

وفي هذا الدور قوي أمر القدرية أو المعتزلة، وكانوا ظهروا بظهور الخوارج والشيعة، لما أنكر الخوارج على علي التحكيم في الخلافة يوم صِفِّين، وحكموا بكفر الفاسق، حكمهم بكفر من يسعى في سفك دماء المسلمين لمأرب دنيوي، وأخذ قوم يدعون المتساهل في دينه فاسقًا، ويجعلونه من المسلمين، وصرَّح بعضهم بأن الأمور كانت مقدرة عليه؛ وهبت خلال ذلك فرقة جاهرت بأن الإنسان مختار في أعماله، وأن الله لو أجبر الإنسان على عمله لم يؤاخذه عليه، وجعلوا الناس ثلاثة أقسام: مؤمن وكافر وفاسق، ومنعوا من تسمية الفاسق باسم المؤمن، واعتزلوا مجلس الحسن البصري فسموا المعتزلة، وهم الذين أحدثوا علم الكلام، وتابعهم في التأليف أناس ليسوا على مذهبهم، وهم الذين وسعوا بعدُ أصول الفقه، وأكثر المسائل المذكورة فيه هي من مبتكراتهم.

وأراد عمر بن عبد العزيز أن يستتيب القدرية، أو يخرجوا من بلاده، واشتد بعض آله في إرهاقهم، لكن بعض الخلفاء من أخلافه ذهبوا بعد حين مذهب القدر، ومنهم مروان بن محمد الذي كتب له عبد الحميد الكاتب وعُرف به.

أصله وخلقه:

هو عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب العامري من عامر بن لؤي. ولؤي ينتهي إليه شرف قريش، ومن ولده عامر بن لؤي وولده حسل ومعيص. وقد قيل في نسبه: إنه عبد الحميد بن يحيى بن سعد بن عبد الله بن جابر بن مالك بن حجر بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب. ومعظم الروايات ترجح أن والده كان من الموالي. وإذا صح ذلك كان من أصل غير عربي، اللهم إلا إذا ثبتت سلسلة نسبه التي انتهت بابن عامر بن لؤي بن غالب. وفي رواية أن جده من سبي القادسية. وإذا صحت نسبته إلى أصل فارسي فيكون جده انضم إلى عامر بن لؤي؛ وقد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحلف والموالاة فينتسب إليها. والاصطخري يقول: إن عبد الحميد كان ممن يصلح من الفرس للدواوين من الكُتَّاب والعمال والأدباء، وكان له في بني أمية ولاء ينسب إليهم؛ فنسبته إلى عامر نسبة ولاء إذًا.

والمولى عند العرب، دون الحر الصريح، وفوق العبد الرقيق في المرتبة؛ والمولى كالقريب ينزل منزلة ابن العم، يجب على صاحبه أن ينصره ويرثه إذا مات ولا وارث له، ومنه حديث الزكاة: «مولى القوم منهم». والمولى هو الصاحب والقريب والجار والحليف والجمع موالٍ، ويكون المولى مولى عَتاقة ومولى تَباعة؛ فمولى العتاقة هو الذي يكون عبدًا أو أسيرًا فيعتقه صاحبه فيصبح المعتَق للمعتِق مولًى؛ ومولى التباعة هو من يُصطنع أو يُحالف أي يستتبع. ومن الواء أيضًا مولى الرحم وهو من يتزوج في قَبيل فينسب إلى قبيلهم. ودية المولى نصف دية الحر، وكذلك حكمه في العقوبات يناله منها نصف ما ينال الحر؛ أما في المواريث فمولى العتاقة يورِّث مولاه ولا يرث منه، ومولى التباعة لا يرث ولا يورّث، وحكم مولى الرحم كحكم الأحرار يرث ويورث.

كان الموالي في الجاهلية من أجناس ونحل مختلفة، فلما كان الإسلام أصبح غير المسلمين ذمة؛ وجعلوا في الجاهلية دية المولى، وهو الحليف، خمسًا من الإبل، ودية الصريح عشرًا. والصريح الخالص النسب، والحليف عند العرب مولى؛ والولاء بفتح الواو: القرابة، وبالكسر: ميراث يستحقه المرء بسبب عتق شخص في مِلكه، أو بسبب عقد الموالاة. إذا عرفت هذا فليس أمامك ما يمنع من جعل عبد الحميد من أصل عربي، وإن كان جده مولى تباعة لا مولى عتاقة، كأن يكون قد تزوج من بني عامر وانضم إليهم بسبب. هذا على شريطة ضعف الرواية القائلة بأن أجداده من سبي القادسية، وهناك تكون الفارسية أعلق ببيته من شعرات قَصِّه[1].

وكان بنو أمية كثيرًا ما يعتمدون على الموالي في كتابتهم ودواوينهم، فلم تمنعهم أصولهم من تولي أهم مناصب الدولة؛ فقد كان من كُتَّاب معاوية مولاه عبد الرحمن بن درَّاج، وكان على ديوان الرسائل لعبد الملك بن مروان أبو الزعيزعة مولاه، وكتب للوليد على ديوان الخاتم شعيب النعماني مولاه، وعلى ديوان الرسائل جناح مولاه، وعلى المستغلات نُفيع بن ذؤيب مولاه؛ وكان يكتب لمسلمة سميع مولاه، وعلى ديوان الرسائل الليث بن أبي رقية مولى أم الحكم بنت أبي سفيان، وعلى ديوان الخاتم المولى نُعيم بن سلامة؛ وكان يكتب لعمر بن عبد العزيز الليث بن أبي فروة مولى أُم الحكم بنت أبي سفيان، وكتب له إسماعيل بن أبي حكيم مولى الزبير، وكتب للوليد بن يزيد سالم مولى سعيد بن عبد الملك، وكان عمرو بن الحارث مولى بني جُمح يتولى ليزيد بن الوليد الناقص ديوان الخاتم، وكان من الموالي على ديوان الرسائل لمروان بن محمد، عثمان بن قيس مولى خالد القَسري.

---

(١) القص والقصص (بفتح قافيهما): الصدر أو رأسه أو وسطه أو عظمه، وفي المثل: هو ألزم لك من شعرات قصك.

ولقد ساد الموالي منذ الصدر الأول فما تولوا الكتابة للخلفاء والأمراء فقط، بل تعدوا ذلك إلى الرواية والعلم، وصار الفقه في معظم البلدان إليهم، حتى إن عبد الملك بن مروان سأل الزهري عمن يسود الناس، فلما ذكر له طائفة من الموالي في البلاد قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا؛ فلما ذكر له النخعي، وكان من العرب. قال عبد الملك: ويلك يا زهري فرَّجت عني! والله لتسودن الموالي على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها. فقال الزهري: يا أمير المؤمنين، إنما هو أمر الله ودينه، من حفظه ساد، ومن ضيعه سقط.

إن ما اتصل بنا من أخبار عبد الحميد لم يصور لنا منه صورة تامة، فما عرفنا مولده، ولا البلد الذي ولد فيه من بلاد الشام، ولا نوع دراسته وأساتذته؛ ولكننا عرفنا أنه شامي عاصر بعض الخلفاء من الأمويين، وقيل: إنه من أهل الأنبار وسكن الرقة؛ فإن صحت هذه الرواية كان عراقيًّا غير شامي. وأطلق عليه ابن عبد ربه اسم عبد الحميد الأكبر، وعده ممن نَبُل بالكتابة، وكان قبل خاملًا، وقال: إنه كتب لعبد الملك بن مروان وليزيد، ثم لم يزل كاتبًا لخلفاء بني أمية حتى انقضت دولتهم، وفي هذا القول نظر؛ لأن عبد الملك تولى سنة خمس وستين، وتوفي سنة ست وثمانين، فلا تكون سن عبد الحميد يوم مقتله أقلَّ من سبعين أو خمس وسبعين، وهذا يناقض ما سيمر بك من أنه غُمز عليه سنة ١٣٢ وهو عند ابن المقفع، ولم يعرف الموكلون بالقبض عليه أيهما عبد الحميد، وابن المقفع إذ ذاك كان في الكهولة، فلا يعقل إلا أن يكون صاحب الشرطة العباسي عارفا على الأقل بأن صاحبه شيخ هرم؛ ويميل إلى أن عبد الحميد كتب أولًا لهشام بن عبد الملك الذي ولي سنة ١٠٥ ومات سنة ١٢٥ ثم لمروان.

والأرجح أن عبد الحميد تخرج في الكتابة بسالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه، ويقال: مولى المنذر بن عبد الملك، وقيل: سالم مولى سعيد بن عبد الملك، وكتب للوليد بن يزيد، ثم كتب له ابنه عبد الله بن سالم. وكان سالم ختن عبد الحميد؛ أي صهره زوج أخته، وهو أحد الفصحاء البلغاء، وقد نقل رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر، ونُقل له وأصلح هو، ولسالم رسائل مجموعة في نحو مائة ورقة، وبهذا يقال: إن عبد الحميد أخذ عن رجل بليغ يعرف الاستخراج من أدب اليونان وسياستهم، ولم يثبت أنه كان يعرف اليونانية كما وهم بعض أساتذة العصر، وربما شدا شيئًا من الأرمنية مدة مقامه في إرمينية كاتبًا لمروان. ويقول ابن هلال العسكري: إن عبد الحميد كان يحسن الفارسية وبأدب هذه اللغة تأدب، وعلى منوال حكمائها نسج، وأَلِف تطويل الرسائل واختصارها بحسب الحال. فمن الرومية أخذ بالواسطة، ومن الفارسية أخذ مباشرة، والفارسية ما كانت تقلُّ حكمة أهلها عن حكمة يونان.

ساعد عبد الحميد أدبه الفارسي على نبوغه في البلاغة العربية، ويقول عبد القاهر: إن من عرف أوضاع لغة من اللغات عربية كانت أو فارسية وعرف المغزى من كل لفظة، ثم ساعده اللسان على النطق بها، وعلى تأدية أجراسها وحروفها، فهو بيّن في تلك اللغة، كامل الأداة، بالغ من البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه، منتهٍ إلى الغاية التي لا مذهب بعدها.

كتب عبد الحميد قليلًا عن هشام بن عبد الملك كما عرف من رسالة كتبها عن هشام إلى يوسف بن عمر الثقفي وهو باليمن، وقد كان على اليمن منذ سنة ١٠٧؛ أي أن ديوان هشام كان المدرسة الأولى التي تخرج بأساتذتها عبد الحميد في علوم الإنشاء، ويمكن أن يقال: إنه كان من أول نشأته على اتصال مع من يعرف الخلفاء،

وما يقتضي لخدمة الحكومات من الأدوات، وذكروا أنه حدّث عن سالم بن هشام، ولعله سالم مولى هشام، وحدَّث عنه خالد بن برمك. وقالوا: إن عبد الحميد كان في حداثته معلمًا في الكوفة، ولعله مرن على حفظ مسائل كثيرة من تأديبه الأطفال زمنًا؛ والمؤدبون كانوا طبقة راقية في القرون الأولى للإسلام. وكانت الكوفة لما ألقى بها عصا الترحال لأول أمره محط رحال رجال العلم في الدين واللغة والنحو والتصريف، ولا شك أنه ثافن أهل البلاغة فيها وأخذ عنهم، وهناك حدث له غرام بتمثل كلام علي بن أبي طالب. فقد سئل: ما الذي خرَّجك في البلاغة؟ فقال: حفظ كلام الأصلع، يعني عليًّا، وكانت الكوفة من البلدان التي أحبها أمير المؤمنين وأحب أهلها وأحبوه.

وفي زمن لم نثبته جيدًا اتصل بمروان بن محمد وهو والٍ على إرمينية يحارب الخارج فيها على الخلافة، فكتب عنه، وحظي عنده، وانقطع إليه، ولما عقدت البيعة لمروان في الشام سجد مروان وأصحابه شكرا لله، إلا عبد الحميد، فقال له مروان: لِمَ لا سجدت؟ فقال: ولِمَ أسجد على أن كنت معنا فطرت عنّا؛ يعني بالخلافة؟ فقال: إذًا تطير معي، فقال: الآن طاب السجود وسجد. وكتب لمروان طول خلافته.

تُرى هل يكون الاختلاف في نسب عبد الحميد سببًا يدعونا إلى أن نرجح أن أجداده كانوا من سبي القادسية؟ وسواء صحت هذه النسبة أم لم تصح فإنه تأثر لا محالة بعادات الفرس وعرف أساليبهم في الكتاب والخطاب. وعلى كل فإن المجال الذي جال في عقل عبد الحميد كان فسيحًا بالنسبة لعصره وأهل طبقته، وكان من اتصل بهم قبل أن يلي الكتابة عن الخليفة جماعة من المنظور إليهم في الأمة، ولهذا ولغيره؛ أي لمولده في الشام وتنقله في البلاد، دخل كبير في اتساع عقله وتجاربه.

كان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يحب عبد الحميد حبًا جمًّا، ويرفع منزلته بين الكُتَّاب والعمال «ولا يرى الدنيا إلا به» لعلمه بنبوغه وتفرده في صناعته، وذهابه بفضل البلاغة وما ينبغي لها، حتى عرض عليه -لما أيقن أن أمره أدبر، وهزائمه تواترت، وسلطانه صائر إلى الزوال- أن يكون مع أعدائه لتسلم حياته، قائلًا: إنا نجد في الكتب أن هذا الأمر زائل عنا لا محالة، وسيضطر إليك هؤلاء القوم -يعني ولدَ العباس- لأدبك، وإن إعجابهم بك يدعوهم إلى حسن الظن بك، فاستأمِن إليهم، وأظهر الغدر بي، فلعلك تنفعني في حياتي أو بعد مماتي، فقال له: وكيف لي بأن يعلم الناس جميعًا أن هذا عن رأيك، وكلهم يقول: إني غدرت بك، وصرت إلى عدوك؟ وأنشد:

وذنبي ظاهر لا شك فيه ... لمبصره وعذري بالمغيب

وأنشد أيضًا:

أُسِرُّ وفاءً ثم أُظهر غدرةً ... فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين إليك، وأقبحهما بي، ولكني أصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك. وهكذا تجلَّت في عبد الحميد فضيلة الوفاء، فآثر أن يُقتل مع صاحبه، على أن يتخلى عنه يوم الكريهة والشدة، وتجلت فيه خلة الشجاعة والاعتقاد بالأقدار؛ فهو الرجل الذي شارك سيده في سعادته وبلائه.

قيل: لما زال أمر مروان أتى المنصور بخواص مروان، وفيهم عبد الحميد والبعلبكي المؤذن وسلام الحادي، فهمَّ بقتلهم جميعًا فقال سلام: استبقني يا أمير المؤمنين فإني أُحسن الحداء، قال: وما بلغ من حدائك؟ قال: تعمد إلى إبل فتظمئها ثلاثة أيام ثم توردها الماء، فإذا بدأت تشرب رفعتُ صوتي بالحداء، فترفع رؤوسها

وتدع الشرب، ثم لا تشرب حتى أسكت. فأمر المنصور بإبل ففعل بها ذلك، فكان الأمر كما قال، فاستبقاه وأجازه وأجرى عليه. وقال له البعلبكي: استبقني يا أمير المؤمنين فإني مؤذن منقطع القرين. قال: وما بلغ من أذانك؟ قال: تأمر جارية فتقدم إليك طستًا، وتأخذ بيدها إبريقًا، وتصب الماء على يدك، فأبتدئ بالأذان فتدهش ويذهب عقلها إذا سمعت أذاني، حتى تلقي الإبريق من يدها وهي لا تعلم. فأمر المنصور جارية ففعلت ذلك، وأخذ البعلبكي في الأذان، فكانت حالها كما وصف. وقال عبد الحميد: يا أمير المؤمنين، إني فرد الزمان في الكتابة والبلاغة. فقال: ما أعرفني بك؟! أنت الذي فعلت بنا الأفاعيل، وعملت لنا الدواهي؛ وأمر به فقطعت يداه ورجلاه وضرب عنقه. ويروى أنه سلمه إلى عبد الجبار فكان يحمي له طستًا ويضعه على بطنه حتى قتله.

ويقول اليعقوبي: إن عبد الحميد تخلّف بمصر واستتر حتى دُلَّ عليه صالح بن علي. وزاد غيره: إنه لما انهزم اختبأ في كنيسة في بوصير من أرض مصر. وقال آخرون: إنه استخفى بالجزيرة عند عبد الله بن المقفع فغمز عليه -وكان صديقه- وفاجأهما الطلب وهما في بيت، فقال الذين دخلوا: أيكما عبد الحميد؟ فقال كل واحد منهما: أنا، خوفًا على صاحبه، وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع، لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلًا: ترفقوا بنا، فإن لكل منا علامات، فوكلوا بنا بعضكم، وليمض البعض الآخر إلى من وَجَّهكم، فيذكر له تلك العلامات، ففعلوا وأخذوا عبد الحميد. وفي رواية: أن عبد الحميد لم يختبئ في الجزيرة عند ابن المقفع، بل قبض ساعة قتل مولاه مروان، وأن عامر بن إسماعيل لما قتل مروان ظفر بعبد الحميد كاتبه، فعرض عليه رءوس القتلى، لأنه قتل في ستة أو سبعة من خواصه، وكانوا معه، فعرَّفه رأسه، وحمل عبد الحميد إلى أبي العباس، فسلمه إلى عبد الجبار صاحب شرطته فقتله. وهنا أيضًا اضطراب في رأي من ترجموا لعبد الحميد في نهاية أمره، كما

وقع الاختلاف في أصله، ولم يعقل أنه تخلَّف عن سيده في الجزيرة، والأرجح أنه قتل في مصر على رواية المسعودي.

بلاغته وأسلوبه:

كان عبد الحميد على ما قال صاحب العقد أول من فتق أكمام البلاغة، وسهل طريقها، وفك رقاب الشعر، وضربت الأمثال ببلاغته، وقد أشار البحتري إلى ذلك في قصيدته إلى محمد بن عبد الملك قال:

وتفننت في البلاغة حتى ... عطل الناس فن عبد الحميد

وقال ابن الرومي لأبي الصقر:

لو أن عبد الحميد اليوم شاهده ... لكان بين يديه مذعنًا وسنًا

وقال ابن اسفنديار الكاتب:

وهو في الحذق والبلاغة في التـ ... ـطفيل[1] عبد الحميد في الكتَّاب

وقال أبو إسحاق الصابي:

أنسيتمُ كتبًا شحنت فصولها ... بفصول درٍّ عندكم منضود

ورسائلًا نفذت إلى أطرافكم ... عبد الحميد بهن غير حميد

وقال إبراهيم بن عباس الصولي وقد ذُكر عبد الحميد عنده: كان والله الكلام معانًا له، ما تمنيت كلام أحد من الكُتَّاب قط أن يكون لي إلا كلامه.

جاء عبد الحميد بطريقة جديدة في الكتابة العربية، شرعها لكل من يحمل القلم بعده، فنقل الإنشاء من طور إلى طور لم يكد يتغير حتى عهد ابن العميد، وقالوا:

(١) طفل الكلام تطفيلًا: تدبره.

افتتحت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد. وبلاغة عبد الحميد لا تجنيس فيها، شأن من كانوا من فصحاء العرب قبله ممن كان «كلامهم محض البلاغة»، «اللهم إلا أن يقع ذلك اتفاقًا غير مقصود قصده»، وهو «أول من فك رقاب الشعر وسرح مقيده إلى النثر».

ومعلوم أنه قلما عهد التطويل في الرسائل على عهد الراشدين والأمويين، فابتدع عبد الحميد أسلوبه الجديد الخاص به، وكان ذلك عقبى تشعب أغراض الخلافة، وامتداد عمرانها، وانبساط ظل سلطانها، فنهج للكتاب سبل الإنشاء، وأعلى في العالمين ذكرهم، وشرَّف صناعتهم، وكانت قبله في الغالب لا تعد عملًا شريفًا من أعمال الدولة، ويتولاها على الأغلب الموالي ومن إليهم؛ فوَقر هذا الفن الصعب في النفوس حتى كان الإنشاء ينقل صاحبه من دواوينه إلى أرقى دواوين الملك.

كان عبد الحميد أول من أطال الرسائل، ولا يبتدئ بلولا، ولا، وإن رأيت، واستعمل التحميدات في فصول الكتب، فتابعه الناس على طريقته؛ والتحميد حمدك الله عز وجل مرة بعد مرة، وكثرة حمد الله سبحانه بالمحامد الحسنة، وهو أبلغ من الحمد، وربما سبق عبد الله بن المقفع إلى التحميدات، ولكنها لم تشتهر كما اشتهرت من ديوان عبد الحميد، وهو ديوان الخلافة يتناقل الناس عنه أكثر مما يتناقلون عن غيره.

ولم يكن عبد الحميد يطيل كل مرة في رسائله، بل يطيل مرة ويوجز مرة، لكنه إلى التطويل أميل؛ فصاحب هذا الانتقال في الكتابلة حافظ على إيجازها ما أمكن، لكن الزمان اقتضاه أحيانًا الإسهاب، فأسهب وأجاد في الطريقتين، خصوصًا إذا اقتضت الحال ذلك؛ مثل كتابه إلى أبي مسلم الخراساني الذي كتبه على لسان محمد بن

مروان لما ظهر أبو مسلم بدعوة بني العباس، كتب كتابًا يستميله ويضمنه ما لو قرئ لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبي مسلم، وكان من كبر حجمه يُحمل على جمل، ثم قال لمروان: قد كتبت كتابًا متى قرأه بطل تدبيره، فإن يك ذلك وإلا فالهلاك، فلما ورد الكتاب على أبي مسلم لم يقرأه، وأمر بنار فأحرقه، وكتب على جُذاذة منه إلى مروان:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى — عليك ليوث الغاب من كل جانب
فإن يقدموا نُعمل سيوفًا شحيذةً — يهون عليها العتب من كل عاتب

وقالوا: إن من جملة فقرات هذا الكتاب: «إذا أراد الله إهلاك نملة أنبت لها جناحين»، ومعنى قول الراوين: إن كتابه من كبر حجمه حُمل على جمل، أنه كان مكتوبًا على رَقّ، وفي الرقوق تكتب الأسطر القليلة على الأغلب، وربما دعت كثرة الرقوق التي تضمنت هذا الكتاب أن لا ينهض رجل بحملها بل حملت لثقلها على جمل. وليس في هذا التطويل المأثور عن عبد الحميد من عيب، مع ما عرف من تفننه في بلاغته، وهكذا جرى في رسالة أبي مسلم الخراساني، فأطال وحمدت إطالته، كما أطال في نصيحته لعبد الله ولي عهد مروان، فقد كتب كتابه هذا في صفحات كثيرة، فوضع ببيانه الرائع خططًا حربية، وطرقًا جديدة في النظام والإدارة والسياسة، وقواعد مهمة في التربية ولا سيما في تربية الملوك والعظماء، وأصولًا كلية في علم النفس والعادات المستحبة، ومعاملة المرءوسين وطلاب الحاجات وأرباب السعايات وأصحاب الأخبار. وبالإيجاز لا يتأتى لأحد أن يفيض فيما أفاض فيه من الأغراض العظيمة.

كان عبد الحميد يقول: أكرموا الكتَّاب، فإن الله عز وجل أجرى أرزاق الخلق على أيديهم، وقال: إن كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء فعلى بلغاء الكتاب، ومن غرر كلامه: القلم شجرة ثمرها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة، وكان

يقول: البيان في اللسان والبنان، ومن كلامه: خير الكلام ما كان لفظًا فحلًا ومعناه بكرًا، ويروى أنه مر بإبراهيم بن جبلة وهو يكتب خطًّا رديئًا فقال: أتحب أن يجود خطك؟ قال: نعم. قال: أطل جلفة[1] قلمك وأسمنها، وحَرّف قطتك وأيمنها. قال: ففعلت ذلك فجاد خطي، وذكر صاحب الصناعتين أن عبد الحميد كان إذا استخبر الكاتب في كتابه، فكتب خبرك وحالك وسلامتك، فصل بين هذه الأحرف ويقول: قد استكمل كل حرف منها آلته، ووقع الفصل عليه.

وكان كثيرًا ما ينشد:

إذا خرج الكتّاب كانت دُويّهم ... قسيًّا وأقلام الدوي لها نَبلا

قال زياد الأعجم: حضرت جنازة هشام فسمعت عبد الحميد ينشد:

وما سالم عما قليل بسالم ... وإن كثرت أحراسه ومواكبه

يريد سالم بن عبد الله، ويقال: ابن عبد الرحمن أبو العلاء مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه، وكان على ديوان الرسائل لهشام وللوليد بن يزيد.

وإن كان ذا باب شديد وحاجب ... فعما قليل يهجر الباب حاجبه
ويصبح بعد الحجب للناس مفردًا ... رهينة بيت لم تستَّر جوانبه
فنفسك أكسبها السعادة جاهدًا ... فكل امرئ رهن بما هو كاسبه

ورويت هذه الأبيات للأصمعي بتغيير البيتين الأخيرين إلى قوله:

وما كان إلا الدفن حتى تفرقت ... إلى غيره أفراسه ومواكبه
وأصبح مسرورًا به كل كاشح ... وأسلمه أحبابه وحبائبه

ومن شعره:

(١) القشرة.

كفى حزنًا أني أرى من أحبه قريبًا ولا غير العيون تترجم
فأقسم لو أبصرتنا حين نلتقي ونحن سكوت خلتنا نتكلم

نموذجات من مختصراته ومطولاته:

وإذا جئنا نتعرف إلى عبد الحميد في مطالبه وحاجاته، وشفقته على نفسه وولده ورحمه، فلدينا مما أبقت الأيام عليه من رسائله نموذجات يتجلى لنا فيها روحه؛ منها ما كتبه إلى مروان في حاجة: «إن الله بنعمته عليَّ لما رزقني المنزلة من أمير المؤمنين، جعل معها شكرها مقرونا بها، فهي تنمى بالزيادة، والشكر مصاحب لها، فليست تدخلني وحشة من أبناء حاجتي، وأنا أعلم أنه لو وصل إلى أمير المؤمنين علم حالي أغناني عن استزادته، ولكني تكنفتني مُؤن استنفضت[1] ما في يدي، وكنت للخُلف من الله منتظرًا، فإني إنما أتقلب في نعمه، وأتمرغ في فوائده، وأعتصم بسالف معروفه كان عندي».

ومنها ما أنشأه إلى أخ له في مولود ولد له وهو أول مولود كان: «أما بعد؛ فإن مما أتعرف من مواهب الله نعمة خصصت بميزتها، واصطفيت بخصيصتها، كانت أسرَّ لي من هبة الله لي ولدًا أسميته فلانًا، وأمَّلت ببقائه بعدي حياة وذكرى، وحسن خلافة في حرمي، وإشراكه إياي في دعائه، شافعًا لي إلى ربه، عند خلوته في صلاته وحجه، وكل موطن من مواطن طاعته، فإذا نظرت إلى شخصه تحرك به وجدي، وظهر به سروري، وتعطفت عليه مني أَنسة الولد، وتولت عني به وحشة الوحدة، فأنا به جذل في مغيبي ومشهدي، أُحاول مس جسده بيدي في الظلم، وتارة أعانقه وأرشفه، ليس يَعْدِله عندي عظيمات الفوائد ولا مُنْفَسات[2] الرغائب، سرني به

---

(١) استخرجته.

(٢) مال منفس، ومنفس بكسر الفاء وفتحها: كثير.

واهبه لي على حين حاجتي، فشد به أزري، وحملني من شكره فيه ما قد آدني[١] بثقل حمل النعم السالفة إليّ به، المقرونة سراؤها في العجب بما رأت ما يدركني (؟) به من رقة الشفقة عليه، مخافة مجاذبة المنايا إياه، ووجلًا من عواصف الأيام عليه. فأسأل الله الذي امتن علينا بحسن صنعه في الأرحام، تأديبه بالزكاة وحرسه بالعافية، وأن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفي غيره، وأن يجعل ما يهب لنا من سلامته، والمدة في عمره، موصولًا بالزيادة، مقرونًا بالعافية، محوطًا من المكروه، فإنه المنان بالمواهب، والواهب للمنى، لا شريك له. حملني على الكتاب إليك لعلم ما سررت به علمي بحالك فيه (؟) وشركتك إياي في كل نعمة أسداها إليّ ولي النعم، وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جل ذكره، والسلام عليك».

ومنها ما أنفذه إلى أهله وهو منهزم مع مروان من فلسطين، وهو آخر حرب ومواقعة كانت له، وكانوا ينزلون بالقرب من الرقة بموضع يعرف بالحمراء، يعزيهم عن نفسه: «أما بعد؛ فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، وجعل فيها أقسامًا مختلفة بين أهلها، فمن دَرَّت له بحلاوتها، وساعده الحظ فيها، سكن إليها، ورضي بها، وأقام عليها؛ ومن قرصته بأظفارها، وعضته بأنيابها، قلاها[٢] نافرًا عنها، وذمها ساخطًا عليها، وشكاها مستزيدًا لها؛ وقد كانت أذاقتنا أفاويق[٣] استحليناها، ثم جمحت بنا نافرة، ورمحتنا[٤] مولية، فملح عذبها، وخشن لينها، فابعدتنا عن الأوطان، وفرقتنا عن الإخوان؛ فالدار نازحة، والطير بارحة [٥]. وقد كتبت والأيام

(١) آده الأمر: بلغ منه المجهود.

(٢) قليت الرجل أقليه إذا أبغضته، والقلى -بالكسر-: البغض.

(٣) الفيقة -بالكسر-: اسم اللبن يجتمع في الضرع بين الحلبتين، (ج) : فيق بالكسر، وفيق كعنب، وفيقات وأفواق، (جج) : أفاويق، والأفاويق ما اجتمع في السحاب من ماء فهو يمطر ساعة بعد ساعة.

(٤) رمحتنا: رفستنا.

(٥) البارح من الصيد: ما مر من ميامنك إلى مياسرك.

تزيدنا منكم بعدًا، وإليكم صبابة ووجدًا؛ فإن تتم البلية إلى اقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم، نرجع إليكم بذل الإسار، والذل شر جار، نسأل الله الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء، أن يهب لنا ولكم أُلفة جامعة، في دار آمنة، تجمع سلامة الأديان والأبدان، فإنه رب العالمين، وأرحم الراحمين».

وفي رواية أنه ختم هذه الرسالة هكذا: «فدارنا نازحة، وطيرنا بارحة، قد أخذت كل ما أعطت، وتباعدتت مثل ما تقربت، وأعقبت بالراحة نصبًا، وبالجذل همًّا، وبالأمن خوفًا، وبالعز ذلًّا، وبالجدَة حاجة، وبالسراء ضراء، وبالحياة موتًا، لا ترحم من استرحمها، سالكة بنا سبيل من لا أوبة له، منفيين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحباء».

ومن رسائله المختصرة ما كتبه عن مروان إلى هشام، يعزيه بامرأة من حظاياه: «إن الله تعالى أمتع أمير المؤمنين من أنيسته وقرينته، متاعًا مده إلى أجل مسمى، فلما تمت له مواهب الله وعاريته، قبض الله العارية، ثم أعطى الله أمير المؤمنين من الشكر عند بقائها، والصبر عند ذهابها، أنفس منها في المنقلب، وأرجح في الميزان، وأسنى في العوض، فالحمد لله وإنا إليه راجعون».

وكتب موصيًا بشخص وهي من مختصراته: «حقُّ موصل كتابي إليك كحقه عليَّ، إذ جعلك موضعًا لأمله، ورآني أهلًا لحاجته، وقد أنجزت حاجته، فصدق أمله».

وكتب عن هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر وهو باليمن في السلامة: «أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين كتب إليك وهو في نعمة الله عليه، وبلائه عنده في ولده وأهل لُحمته، والخاص من أموره والعام والجنود، والقواصي والثغور، والدهماء من

المسلمين، على ما لم يزل ولي النعم يتواه من أمير المؤمنين، حافظًا له فيه، ومكرمًا له بالحياطة لما ألهمه الله فيه من أمر رعيته، وعلى أعظم وأكمل ما كان يحوطه فيه، ويذب له عنه؛ والله محمود مشكور إليه مرغوب فيه. أحب أمير المؤمنين لعلمه بسرورك به، أن يكتب إليك بذلك لتحمد الله عليه وتشكره به، فإن الشكر من الله بأحسن المواضع وأعظم المنازل؛ فازدد منه تزدد به، وحافظ عليه تحفظ به، وارغب فيه يهد إليك مزيد الخير، ونفائس المواهب، وبقاء النعم. فاقرأ من قبلك كتاب أمير المؤمنين إليك، ليسرَّ به جندك ورعيتك، ومن حمله الله النعم بأمير المؤمنين ليحمدوا ربهم على ما رزق الله عباده من سلامة أمير المؤمنين في بدنه، ورأفته بهم، واعتنائه بأمورهم، فإن زيادة الله تعلو شكر الشاكرين والسلام».

وهذه نسخة ما كتب به عبد الحميد إلى بعض من خَرَج عن الطاعة وهو:

«أما بعد؛ فقد بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المُرْدَ على الجُرد، فسترد عليك جنود الله المقربون، وأولياؤه الغالبون، يرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول، على الفحول، كأنها الوعول، تخوض الوحول، طوال السبال، تختضب بالجريال[1]، رجال هم الرجال، بين رامح وناشب، ليس معهم إلا كلِبٌ محارب، ولا ينكلون عن الأصحاب، قد ضَرُوا بضرب الهام، واعتادوا الكر والإقدام، ليسوا بذي هِينة ولا إحجام، يقضون بالسيوف، ويخالطون الزحوف، في أعنتهم الحتوف، يزأرون زئير الأسود، ويثبون وثوب الفهود، ليس فيهم إلا شاكٍ محتبك، في الحرب محترب[2]، قد شرب على ناجذ[3] االحرب وأكل، ذو

(١) الجريال -بالكسر-: صبغ أحمر وحمرة الذهب وسلافة العصفر وما خلص من لون أحمر وغيره؛ والخمر أو لونها كالجريالة فيهما، والمقصود هنا الصبغ الأحمر.

(٢) حرب كفرح كلب واشتد غضبه.

(٣) الناجذ: الضرس أو الناب.

شقشقة وككل[١]، كأنما أُشرب وجهه نقيع الحناء، قد رئم[٢] الحرب ورضعها، وغذته وألفها، فهي أمه وهو ابنها، يسكن إليها ويأنس بقربها، فهو بطلبها أرِب، وعلى أهلها حرِب، ولا يروعه ما يروع، ولا يزيغه ما يُزيغ الغُمر الجبان، حين يشتد الوغى، وتخطر القنا، وتُقلَّص الشفاه، وتسفر الكماة، فعند ذلك تُسلمك المرد، وتكشف عن الجرد، فتأهب لذلك أُهبتك، واخطب له خِطبتك من المساكين والحوكة، ثم كيدوني جميعًا فلا تنظرون، فما ضرَّنا إكثارك الجموع وحشدك الخيول، فإنك لا تكثّف جمعًا، ولا تسرب خيلًا، إلا وثقنا بأن سيمدنا الله من ملائكته، ويزيدنا من نصره، بما قد جرت به سنته، وسلفت به عادته، ونحن نجري من ذلك على نقمات من الله ونكال وسطوات مهلكة. رأيتم ذلك في المنازل، وعرفتموه في المواطن التي يجمعها الحق والباطل؛ فأبشر منا بما ساءك ضجرًا، وعساك تُقاد كما يقاد الجمل المخشوش[٣]. أما بعد؛ فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر لم يحتمله لك، إلا ما أحب من رب صنيعته قِبَلك، واستتمام معروفه إليك، وكان أمير المؤمنين أحق من أصلح ما فسد منك، وإنك إن عدت لمثل مقالتك، وما بلغ أمير المؤمنين عنك، رأى في معالجتك رأيه، فإن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة أبطرته، فأساء حمل الكرامة، واستثقل العافية، ونسب ما هو فيه إلى حيلته، وحسن نَبْتِه ورهطه وعشيرته، وإذا نزلت هه الغِيَر، وانكشفت عماية العشا[٤] عنه، ذل منقادًا وندم حسيرًا، وتمكّن منه عدوه، قادرًا عليه وقاهرًا له. ولو أراد أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك، ومعاجلة

---

(١) الكلكل والكلكال: الصدر أو ما بين الترقوتين، والشقشقة -بالكسر-: شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج.

(٢) رئم الحرب: أحبها وألفها.

(٣) خششت البعير: جعلت في أنفه الخشاش؛ أي: العود.

(٤) العشا مقصورة: سوء البصر بالليل والنهار كالعشاوة أو العمى، عشي كرضي، والعماية كالعماة والعمية (كغنية) وبضم: الغواية واللجاج.

إفسادك؛ جمع بينك وبين من شهد فلَتَات خطئك وعظيم زلتك؛ ولعمري لو حاول أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك في مجلسك، وجحودك فضله عليك، لردك إلى ما كنت عليه، ولكنت مستحقًّا».

ومن رسالة كتب بها عن مروان لفرق العرب، حين فاض العجم من خراسان بشعار السواد، قائمين بالدولة العباسية: «فلا تمكنوا ناصية الدولة العربية من يد الفئة العجمية، واثبتوا ريثما تنجلي هذه الغمرة، ونصحو من هذه السكرة، فسينضب السيل، وتمحى آية الليل، والله مع الصابرين، والعاقبة للمتقين».

ومن رسائله المفردات، رسالته في الشطرنج والتنفير من اللعب به، وهي: «أما بعد؛ فإن الله شرع دينه بإنهاج سبله، وإيضاح معالمه بإظهار فرائضه، وبعث رسله إلى خلقه، دلالة لهم على ربوبيته، واحتجاجًا عليهم برسالاته، ومقدمًا إليهم بإنذاره ووعيده، {ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة}، ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وسلم وحيه، وقفَّى به رسله، وابتعثه لإحياء دينه الدارس مرتضيًا له، على حين انطمست له الأعلام مختفية، وتشتت السبل متفرقة، وعفت آثار الدين دارسة، وسطع رَهَج الفتن، واعتلى قَتام[1] الظلم، واستنهد[2] الشرك، وأسدف[3] الكفر، وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام، ونطق زعيم الباطل بسكتة الحق، واستطرف الجور، واستنكح[4] الصدوف عن الحق، واقمطرَّ[5] تلهب الفتنة، واستضرم لقاحها، وطبقت الأرض ظلمة كفر، وغيابة فساد، فصدع بالحق مأمورًا،

---

(١) الرهج: الغبار. والقتام كسحاب: الغبار أيضًا.

(٢) استنهد: طلب أن ينهض.

(٣) أسدف الليل: أظلم.

(٤) استنكح: غلب، وصدف عنه: أعرض.

(٥) اقمطر: اشتد.

وبلغ الرسالة معصومًا، ونصح الإسلام وأهله دالًّا لهم على المراشد، وقائدًا لهم إلى الهداية، ومنيرًا لهم أعلام الحق ضاحية[١]، مرشدًا لهم إلى استفتاح باب الرحمة، وإعلان عروة النجاة، موضحًا لهم سبل الغواية، زاجرًا عن طريق الضلالة، محذرًا لهم الهلكة، موعزًا إليهم في التقدمة، ضاربًا لهم على الحدود، على ما يتقون من الأمور ويخشون، وما إليه يسارعون ويطلبون، صابرًا نفسه على الأذى، والتكذيب، داعيًا لهم بالترغيب والترهيب، حريصًا عليهم، متحننًا على كافتهم، عزيزًا عليه عَنَتهم[٢]، رءوفًا رحيمًا، تَقْدَمه شفقته عليهم، وعنايته برشدهم إلى تجديد الطلب إلى ربه فيما فيه بقاء النعمة عليهم، وسلامة أديانهم، وتخفيف أواصر[٣] الأوزار عنهم، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه، ناصحًا متنصحًا، أمينًا مأمونًا، قد بلَّغ الرسالة، وأدى النصيحة، وقام بالحق، وعدل عمود الدين، حتى اعتدل ميله، وذل الشرك وأهله، وأنجز الله له وعده، وأراه صدق أسبابه في إكماله للمسلمين دينه، واستقامة سنته فيهم، وظهور شرائعه عليهم، قد أبان لهم موبقات الأعمال، ومفظعات الذنوب، ومهبطات الأوزار، وظلم الشبهات، وما يدعو إليه نقصان الأديان، وتستهويهم به الغوايات وأوضح لهم أعلام الحق، ومنازل المراشد، وطرق الهدى، وأبواب النجاة، ومعالق[٤] العصمة، غاير مدخر لهم نصحًا، ولا مبتغ في إرشادهم غنمًا.

فكان مما قدَّم إليهم فيه نهيه، وأعلمهم سوء عاقبته، وحذرهم أمره، وأوعز إليهم ناهيًا وواعظًا وزاجرًا، الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج والمواصلة

---

(١) ضاحية: علانية.

(٢) يقال: وقع فلان في العنت؛ أي فيما شق عليه.

(٣) الأواصر: الأواخي واحدتها آصرة، والأواخي واحدتها الآخية بالمد والتشديد عروة تربط إلى وتد مدقوق وتشد فيها الدابة.

(٤) المعلاق بالكسر: كل ما علق به شيء كالمعلوق بالضم.

عليها، لما في ذلك من عظيم الإثم، وموبق الوزر، مع مشغلتها عن طلب المعاش، وإضرارها بالعقول، ومنعها من حضور الصلوات في مواقيتها مع جميع المسلمين.

وقد بلغ أمير المؤمنين أن أناسًا ممن قِبَلك من أهل الإسلام، قد ألهجهم(١) الشيطان بها، وجمعهم عليها، وألف بينهم فيها، فهم معتكفون عليها، من لدن مُصبحهم إلى مُمساهم، ملهية لهم عن الصلوات، شاغلة لهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم، و(ما) افترض عليهم من شرائع أعمالهم، مع مداعبتهم فيها، وسوء لفظهم عليها، وأن ذلك من فعلهم ظاهر في الأندية والمجالس، غير منكر ولا معيب، ولا مستفظع عند أهل الفقه، وذوي الورع والأديان والأسنان منهم، فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه، وكرهه واستكبره، وعلم أن الشيطان عندما يئس من بلوغ إرادته في معاصي الله عز وجل، بمقر المسلمين ومجمعهم صُراحًا وجهارًا، أقدم بهم على شبهة مهلكة، وزين لهم ورطة موبقة، وغرهم بمكيدة حيَله، إرادة لاستهزائهم بالخدع، واجتيالهم بالشبه والمراشد(٢) الخفية المشكلة، وكل مقيم على معصية الله صغرت أو كبرت، مستحلًّا لها، مشيدًا بها، مظهرًا لارتكابه إياها، غير حذر من عقاب الله عز وجل عليها، ولا خائف مكروهًا فيها، ولا رعيب من حلول سطوته عليها، حتى تلحقه المنية فتختلجه(٣) وهو مصر عليها، غير تائب إلى الله منها، ولا مستغفر من ارتكابه إياها. فكم قد أقام على موبقات الآثام، وكبائر الذنوب، حتى مدَّ به مخرم(٤) أيامه.

(١) لهج بالشيء: أولع به.
(٢) المراشد: مقاصد الطرق، واجتالتهم الشياطين: صرفتهم عن هداهم إلى ضلالتها، وفي الحديث: «خلق الله عباده حنفاء فاجتالتهم الشياطين».
(٣) الرعيب كالمرعوب، وتختلجه: تنزعه.
(٤) المخرم كمجلس: المنقطع.

وقد أوجب أمير المؤمنين أن يتقدم إليهم فيما بلغه عنهم، وأن ينذرهم ويوعز إليهم، ويعلمهم ما في أعناقهم عليها، وما لهم في قبول ذلك من الحظ، وعليهم في تركه من الوزر. فآذن[1] بذلك فيهم، وأنشده في أسواقهم وجميع أنديتهم، وأوعز إليهم فيه، وتقدم إلى عامل شرطتك في إنهاك[2] العقوبة لمن رُفع إليه من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للعب بها، وإطالة حبسه في ضيق وضنك، وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين، وافطمهم عما نهجوا به من ذلك، والتمس بشدتك عليهم فيه، وإنهاكك بالعقوبة عليه ثواب الله وجزاءه، واتباع أمير المؤمنين ورأيه، ولا يجدن أحد عندك هوادة[3] في التقصير في حق الله عز وجل والتعدي لأحكامه، فتحلّ بنفسك ما تسوؤك عاقبته، وتتعرض به لغيرة الله عز وجل ونكاله، واكتب إلى أمير المؤمنين ما يكون منك إن شاء الله والسلام».

وعبد الحميد في رسالته هذه أشبه الوعاظ والفقهاء بلهجته، فقد رأيناه يكسو كلامه حلة من حلل الزهد، ويدخل مُدخلًا دينيًّا يورد فيه البراهين على قضيته، لينزع من النفوس حب التلهي بلعب يقطع صاحبه عن العمل، وذكر لهم أن اللاعبين بالشطرنج يذكرون خلال لعبهم ألفاظًا لا يليق بالألسن تردادها، ولا بالأسماع أن تنصت إليها، وعرفنا من رسالته بعد هذا أن أناسًا من المنظور إليهم من الفقهاء وغيرهم من الأئمة كانوا مولعين بهذا اللعب منذ أوائل القرن الثاني.

ومن رسالة: «فإن الفتنة تتشوف لأهلها بآنق منظر، وأزين ملبس، تجر لهم أذيالها، وتعِدهم تتابع لذاتها، حتى ترمِيَ بهم في حومات أمواجها مسلمة لهم،

(١) آذن: أعلم.

(٢) نهكه: بالغ في عقوبته كأنهكه؛ والنهكُ: المبالغة في كل شيء.

(٣) هوادة: لين ورفق.

تعدهم الكذب وتمنيهم الخُدَع، فإذا لزمهم عِضاضها، ونفر بهم[١] شماسها، تخلَّت عنهم خاذلة لهم، وتبرأت منهم معرضة، قد سُلبوا أجمل لباس دينهم، واستُنزلوا عن أحصن معاقل دنياهم، من الغناء البهي منظره، الجميل أثره، حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم، والإيجاف في التعب، وسوء المنقلب، فمن آثر دينه على دنياه، تمسك بطاعة ولاته، وتحرر بالدخول في الجماعة، تاركًا لأثقل الأمرين، وأوبل الحالين».

ومن رسالة له في وصف الصيد كتب بها إلى مروان فيما يظهر:

«...خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأثقف الضواري، وأكرمها أجناسًا، وأعظمها أجساما، وأحسنها ألوانًا، وأحدّها أطرافًا، وأطولها أعضاءَ، قد تثقفت بحسن الأدب، وعودت شدة الطلب، وسبرت أعلام المواقف، وخبرت المجاثم، مجبولة على ما عُوّدت، ومقصورة على ما أدبت. ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة[٢]، من الشهرية[٣] المصوفة بالنجابة، والجري والصلابة. فلم نزل بأخفض سير وأثقف طلب، وقد أمطرتنا السماء مطرًا متداركًا قَرَبت الأرض منه، وزهر البقل، وسكن القتام من مثار السنابك[٤]، ومتشعبات الأعاصير، مهلةَ أن سرنا غَلَوات، ثم برزت الشمس طالعة، وانكشفت السحاب مسفرة، فتلألأت الأشجار، وضحك النُّوار، وانجلت الأبصار، فلم نر منظرًا أحسن حسنًا، ولا مرموقًا أشبه شكلًا، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض، والخيل تمرح بنا نشاطًا، وتجذبنا أعنتها انبساطًا، ثم لم نلبث أن علتنا ضبابة تقصر طرف الناظر، وتخفي سبيل

---

(١) العضاض: الداهية والزمن الشديد الكلب؛ وملك فيه عسف وظلم، وشمس الفرس شموسًا وشماسًا: منع ظهره فهو شامس وشموس.
(٢) دابة فارهة: نشيطة حادة قوية.
(٣) بكسر الشين ضرب من البراذين.
(٤) السنبك والجمع السنابك: طرف الحافر وجانباه.

السلام، تغشانا تارة، وتنكشف أخرى، ونحن بأرض دمثة التراب، أشِبة[١] الأطراف، مغدقة الفجاج، مملوءة صيدًا من الظباء والثعالب والأرانب، فأدانا المسير إلى غاية دونها مألف الصيد، ومجتمع الوحش، ونهاية الطلب، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون، وبكل حَرَّة[٢] جونة متفرقون، فرجع بنا العود على البدء، وقد انجلت الضبابة وامتد النظر، فإذا نحن برَعلة[٣] من ظباء وخلفة آرام يرتعن آنسات، قد أحالتهن الضبابة عن شخصنا، وأذهلهن أنيق الرياض عن استماع حسنا، فلم نعج إلا والضواري لائحة لهن من بعد الغاية، ومنتهى نظر الشاخص، ثم مدت الجوارح أجنحتها، واجتذبت الضواري مقاودها، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها، وسرعة الجوارح في طلبها، فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها، تسف الأرض سفًا[٤]، كاشفة عن آثارها، طالبة لخيارها، حارشة[٥] بأظفارها، قد مزقتها تمزق الريح الجراد، فمن صائح بها وناعر، وهاتف بها وناعق، يدعو الكلب باسمه، ويفديه بأبيه وأمه، وراكض تحت مفره وخافق يطلبه الرمح، وطامح يمنعه، وسانح قد عارضه بارح، قد حيرتنا الكثرة، وألهجتنا القدرة، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد، والله المنعم الوهابّ.

ثم ملنا، يا أمير المؤمنين، بهداية دليلة قد أحكمته التجارب، وخبر أعلام المذانب[٦] إل غدير أفيح، وروضة خضرة، مستأجمة بتلاوين الشجر، ملتفة بصنوف

---

(١) أشبة: ملتفة، ودمثة: سهلة لينة.

(٢) الحرة: أرض ذات حجارة سوداء، والجوْن الأسود والأنثى جونة.

(٣) الرعلة: القطعة من الخيل وقد تكون من البقر، والخلفة: اختلاف الوحوش مقبلة مدبرة.

(٤) السفيف: المرور على وجه الأرض.

(٥) صائدة.

(٦) مسائل الماء، والأعلام مفرده علم وهو منصوب في الطريق يهتدى به، والعلم: الجبل.

الخَمَر[١]، مملوءة من أنواع الطير، لم يذعرهن صائد، ولا اقتنصهن قانص، فخفق لها بالطبول، وصفر بنفير الحتف، فثار منها ما ملأ الأفق كثرتها، وراعت الجوارح خفقات أجنحتها، ثم انبرت البزاة لها صائدة، والصقور كاسرة، والشواهين ضارية، يرفعن الطالب لها، ويخفضن الظفر بها، حتى سئمنا من الذبح، وامتلأنا من النضح[٢]، كأنا كتيبة ظفرت ببغيتها، وسرية نُصِرت على عدوها، وألحقت ضعيفها بقويها، وغلبت محسنها بمسيئها، لا نملك أنفسنا مرحًا، ولا نستفيق من الجذل بها فرحًا، بقية يومنا، والله المنعم الوهاب.

ثم غدونا، يا أمير المؤمنين، إلى أرض وُصف لنا صيدها بالكثرة، ورياضها بالنزهة، فزلَّ واصفها عن الطريقة، واعتمد بنا على غير الحقيقة، فأتيناها فلم نر صيدًا ولا عشبًا، ولا نزهة ولا حسنًا، فجعلنا نسلك منها حزونًا ووعورًا، وجدوبًا وقفرًا، حتى قصر بنا اليأس عن الطلب، وقطع بنا عن الطمع النَّصَب. فبينا نحن كذلك؛ إذ بدا لنا جأب[٣] قد أوفى بنا على حائل[٤] دل على غابة من ورائها حمير وحش كثيرة، فأممناها فلما تطرفنا مشيًا وتقريبًا إلى عاناته[٥]، توالى نهيقه، وكثر شهيقه، فالتفتن إليه، فرمقن بأعينهن منا ما استكثرن شخصه، واستهولن أمره، حتى إذا كنا بمرأى ومسمع انجذبن موليات وهربن مسيئات، فأجْهَدَنا الركض في

---

(١) الخمر: الشجر المتكاثف، والمستأجمة: كثيرة الشجر الملتف، والتلاوين من لون البُسر تلوينًا بدا فيه أثر النضج، والتلوين أيضًا: تقديم الألوان من الطعام للتفكه والتلذذ، ويطلق على تغيير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر.

(٢) النضح: البلل.

(٣) حمار وحشي.

(٤) الحائل: كل شيء تحرك في مكانه، وقد حال يحول واستحال الشخص: نظر إليه هل يتحرك.

(٥) العانة: الإتان والقطيع من حمر الوحش.

طلبهن، نتبع آثارهن، ونستشف بلاءً بين أحفار ودكادك وأخاديد[1]، حتى أشفى بنا الطلب لها على واد هائل سائل، بجنبتيه غابة أشبة، قد سبقن إليها، واستخفين فيها، فنظمناها بالخيل نظم الخرز، ثم أوغلت عدة فرسان في نفضها ومعرفة أحوالها، والطبول خافقة، والأصوات شاهقة، فكان وكان، والحمد لله على كل حال» اهـ.

وهذه رسالة وقفتنا على مبلغ عنايتهم بالصيد، ووصفت لنا ما لاقاه الصائدون، وصفًا رائعًا مستوفيًا كأننا كنا معهم؛ وصف عُدَّتهم التي أعدوها، والأرض التي وطئوها، والشدة التي لقوها من سماء أمطرتهم وابلًا ورذَاذًا، وكيف استخدموا الجوارح في صيودهم، وما احتالوا من الحيل وحصروا من الوكد حتى تمت لهم أُمنيتهم، فصادوا ما شاء الله أن يصيدوا، وعادوا مملوءة عبابهم وجعابهم بأنواع الصيد.

ومن رسالة له في الفتنة: «ففي طاعة الأئمة في الإسلام، ومناصحتهم على أمورهم والتسليم لما أمروا به، فَهْمُ كل نعمة فاضلة، وكرامة باقية، وعافية مجللة، وسلامة ظاهرة وباطنة، وقوة بإذن الله مانعة، وفي الخلاف لهم والمعصية عليهم، ذهاب كل نعمة، وتفرق كل كرامة، ومحق كل قِنية، وهلاك كل سلامة وأُلفة، وموت كل عز وقوة، والدعاء بكل بلية، ومقارنة كل ضلالة، واتباع كل جهالة، وإحياء كل بدعة، وإماتة كل سُنة، وإجلاب كل ضرر على الأمة، وإدبار كل منفعة، والعمل بكل جور وباطل، وفناءُ كل حق، وبمعصية خليفة الله لا يزال رجل من المسلمين يضرب بسيفه الذي بيديه سيف أخيه الذي كان يعتمد عليه، ويوهن عضده، ويهدم حصنه، ويفلُّ عدده، ويهلك ثروته، ويعطب من يدعوه، ويفزع إليه، ويكثر بمكانه،

(١) الدكادك: جمع دكدك وهي الأرض فيها غلظ، والأخاديد: جمع أخدود وهو حفرة مستطيلة في الأرض.

ويحرسه من غفلته عن الأعداء إذا غفل، ويكون عبئًا له من خلفه، فلا يزال بالمعصية منهم والاختلاف دم يُهراق بغير حقه، وطفل من أبناء المسلمين قد يتم من أبيه، ومذلة قد دخلت عليه، ونعمة قد زالت عنه، ووحشة قد أحدثت ضغائن في القلوب قد نشبت، وشحناء قد ظهرت، وأوتار[١] قد بقيت، وعداوة في الأنفس قد استقرت، وخوف قد ظهر، وسبل قد قطعت، وامرأة قد أُرملت، وصِبية قد يتمت، وبلاد عامرة قد خربت، وعدد قد نقص، وبلايا قد عمت وشملت، وعدو قد شمت، ومنافق قد رَفع إلى ما كان يؤمل رأسَه، وعدو من المشركين قد طمع وقوي بعد ضعف، وعزَّ بعد مذلة، ورعية قد صاحت، وناعية قد ولولت، وحميم قد قتل حميمه، ومودة قد صارت عداوة، واجتماع من الأهواء قد عاد إلى فرقة، وأرحام قد تقطعت.

فانظروا يا معاشر المسلمين ماذا تفعل الفتنة والمعصية، وكيف يدب الشيطان لها، ويسعى فيها، ويحتال بخديعته ومكره، ولطف مسالكه حتى يُلهبها ويشعلها، ويرفعها من قلتها إلى الكثرة، ومن صغرها إلى كبرها، فإنه إنما يبدو الظفر على الولاة (؟)، ثم يترامى إلى الشكاة والسَّخطة والغضب، وزين لهم القتال فبلغ الهلاك الأعظم، والشر الأكبر، بطرق أَمر صغير الخطر في الظاهر، عظيم البلية في الباطن، فلا يزال الرجل ينظر منهم إلى قاتل أبيه وأخيه وحميمه وذوي قرابته وأهل مودته والنافع كان، ثم تحمَّل العداوة في قلبه، والضغينة العظيمة عليه، ويستعد للنقمة منه، وطلب الذَّحْل[٢] عنده، فبثت تلك الضغائن في الأبناء بعد الآباء؛ فانظروا يا أهل الإسلام من أين دب الشيطان بلطيف مسالكه، وعلى أي شيء ورد، وإلى أي أمر تسامى، حتى عم بالمعصية أهل الإسلام عامة» اهـ.

---

(١) الوتر بالكسر: الذحل؛ أي الثأر.

(٢) الذحل: الثأر أو طلب مكافأة بجناية.

واستفدنا أيضًا من هذه الرسالة أن البلاد كانت تموج بالفتن أواخر عهد الخليفة مروان بن محمد الأموي، وأن عبد الحميد يريد بتأثير قلمه أن ينزع أهل الأقطار عن التردي[1] في مهالكها؛ ولكم كتب من مثلها منذ نادى أهل خراسان بشعار العباسيين يا ترى؟ وما نظن إلا أن مجموعة رسائله تبلغ أكثر من ألف ورقة، لا كما قال بعضهم، وقد عرفنا بهذا النموذج الضئيل الذي بقي من ذاك التراث العظيم أن صاحبنا كان بعيد النظر في السياسة، شديد الغيرة على سلطان بني أمية، عارفًا بما سيحلُّ بالدولة، وود لو يتحيل لها بمخرج ينجيها ولو بعض الشيء من المأزق الذي صارت إليه، حتى لقد أراد سيده على أن يعمد إلى الزواج السياسي، ويتقرب من بني هاشم بالإصهار إليهم. قال لمروان حين رأى علو أمر بني العباس: أتتهمني يا أمير المؤمنين فيك؟ قال: لا. فقال له: أرأيت إبراهيم بن محمد بن علي أليس ابن عمك؟ قال: بلى. قال: فإني أرى أموره تنبغ[2] عليك فأنكحه وانكح إليه، فإن ظهر كنت أعلقت بينك وبينه سببًا، وإن كفيته لم تُمْنَ بصهره. فقال: ويحك! والله لو علمته صاحب الأمر لسبقت إليه، ولكن ليس هو بصاحبه، فقال له: وما يضرك من ذلك، وهو من القوم الذين تعلم أن الأمر منتقل إليهم لا محالة، وأن الصواب أن تعلق بينك وبينهم سببًا؟ قال مروان: والله إني لأعلم أن الرأي فيما تقول، ولكنني أكره أن أطلب النصر بأحراح النساء.

لعبد الحميد الأكبر رسالتان كبيرتان: الأولى رسالته في نصيحة ولي العهد، والثانية رسالته إلى الكتاب؛ كتب الأولى على لسان مروان إلى ابنه وولي عهده عبد الله، لما وجهه إلى قتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي، وكان هذا استولى على الموصل وكورها سنة ١٢٧، وقد انطوت هذه الرسالة المرقصة على أغراض كثيرة

(١) تردى في مهواة: سقط فيها، ورديته تردية.

(٢) تثور وتفشو.

يمكن إجمالها في موضوعين مهمين: الأول: درس عظيم في تربية أبناء الملوك والعظماء وتلقينهم الأخلاق الفاضلة، والثاني: وضع خطط حربية يسير عليها ولي العهد في قتال العدو. وقد أثبت عبد الحميد بهذه الرسالة أنه من علماء التربية والنفس، وأنه عارف بالسياسة والإدارة والحرب، يستطيع أن يقود الجيوش بعقله كما يقود الممالك بقلمه.

بدأ رسالته في وصف الخارجي، وأن الخليفة أراد أن يعهد إلى ولي عهده عهدًا يحمله فيه أدبه، ويشرع له عظته، وإن كان ولي العهد في الغاية من الدين، والتحلي بما يَحْسُن بالخلافة، ولو لم يكن كذلك ما خصه أبوه بالولاية عنه دون بني أبيه؛ وقال له: إن الخليفة بوعظه ابنه أيضًا ائتمر بأمر الله، وما تقدمت فيه الحكماء من تقديم العظة والتذكير، وإن كانوا أهل معرفة وأولي سابقة في الكمال وفضل في العلم. قال: ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم، ولقنوه إلهامًا من تلقائهم، ولم يتعلموا شيئًا من عند غيرهم، لنحلناهم علم الغيب، ووضعناهم بمنزلة قصرهم بها عنهم خالقهم، المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته في فردانيته في إلاهيته... قال: وأمير المؤمنين يرجو أن ينزهك الله عن كل قبح يهش له طمع، وأن يعصمك من كل مكروه حاق[1] بأحد، وأن يحصنك من كل آفة استولت على امرئ في دين أو خُلق، وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل يعوِّده من آثار نعمة الله عليك، سامية بك إلى ذروة الشرف، ومنجحة لك بسطة الكرم، لائحة بك في أزهر مغاني الأدب، مورثة لك أنفس ذخائر العز.

وبعد أن كان الخليفة يخاطب ابنه بصيغة الغائب، انقلب وخاطبه خطاب الحاضر فقال: «والله أستخلف عليك، واسأله حياطتك، وأن يعصمك من زيغ

(١) حاق به شيء: نزل.

الهوى، ويحضرك دواعي التوفيق، معانًا على الإرشاد فيه، فإنه لا يعين على الخير ولا يوفق له إلا هو». وهذا الانقلاب في تنويع الخطاب من أجمل ما بدر على قلمه؛ ذلك أن الخليفة بعد أن خاطب ابنه خطابه عاملًا من عماله، عاد فذكر البنوة فدعا له دعاء والد لولده، ليوفق في مقاصده ويسلم في بدنه. ثم هوَّن عليه الأمر، وأبان له قدر نفسه، وما تيسر له من أسباب التفوق بأخلاقه فقال: «وقد تلقتك أخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها، من غير تعب البحث في إدراكها، ولا متطاول المنال لذروتها، بل تأثلت[1] منها أكرم معانيها، واستخلصت منها أعتق جواهرها، ثم شمرت إلى لباب مصاصها، وأحرزت مَنْفَس[2] ذخائرها، فاعتقد ما أحرزت، ونافس فيما أصبت». ومما قدمه له من العظة في ذلك أن يشكر الله في كل صباح على نعمة السلامة والعافية، وأن يقرأ فيه من كتاب الله جزءًا يردد فيه رأيه في أدبه، ويزين لفظه بقراءاته، ويحضر عقله ناظرًا في محكمه، ويتفهمه متفكرًا في متشابهه؛ يريد بذلك تقوية عقيدته في الدين، وتقوية ملكته في البلاغة.

وبعد ذلك التفت فقال: «ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك، فإنه مغلاق[3] الحسنات، ومفتاح السيئات، واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هَلَكتَك، ويعترض غفلتك، لأنها خدع إبليس وحبائل مكره، ومصايد مكيدته، فاحذرها مجانبًا لها، وتوقَّها محترسًا منها، واستعذ بالله من شرها، وجدهدها إذا تناصرت[4] عليك بعزم صادق لا ونية فيه، وحزم نافذ لا مثنوية[5] لرأيك بعد إصداره عليك، وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه، ومضاءة صارمة لا أناة معها، ونية صحيحة لا

(١) تأثلت: اكتسبت.
(٢) منفس: ما يتنافس فيه.
(٣) المغلاق بكسر الميم: ما يغلق به الباب.
(٤) تناصرت الأخبار: صدق بعضها بعضًا.
(٥) مثنوية: استثناء.

خلجة[١] شك فيها، فإن ذلك ظِهريٌّ[٢] صدق لك على ردها عنك، وقطعها دون ما تتطلع إليه منك، وهي واقية لك سخطة ربك، داعية لك رضا العامة، ساترة عليك عيب من دونك... فحاول بلوغ غايتها، محرزًا لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصنًا أعمالك من العجب، فإنه رأس الهوى، وأول الغواية، ومقاد الهلكة، حارسًا أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوي العادات».

«ومنها أن تملك أمورك بالقصد، وتصون سرك بالكتمان، وتداوي جندك بالإنصاف، وتذلل نفسك بالعدل، وتحصن عيوبك بتقويم أَوَدك، وأناتك فوِّقْها الملال وفوت العمل، ومضاءتك فدرّعها روية النظر، واكنفها بأناة الحلم، وخلواتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة، وصمتك فانف عنه عِيَّ اللفظ، وخف فيه سوء القالة[٣]، واستماعك فارْعه[٤] حسن التفهم، وقوِّه بإشهاد الفكر، وعطاءك فانهد[٥] له بيوتات الشرف وذوي الحسب، وتحرز فيه من السرف، واستطالة البذخ[٦] وامتنان الصنيعة، وحياءك فامنعه من الخجل وبلادة الحصَر، وحلمك فزَعْه عن التهاون، وأحضره قوة الشكيمة[٧]، وعقوبتك فقصر بها عن الإفراط، وتعمد بها أهل الاستحقاق، وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق، وخذ به واجب المفترض، وأقم به أَوَدَ الدين، واستئناسك فامنع منه البذاءة وسوء المثافنة[٨]، وتعهدك أمورك فحدّه

(١) خلجة: اضطراب.

(٢) ظهري: عدة.

(٣) يطلق القول في الخير، والقال والقيل والقالة في الشر.

(٤) أسمعه.

(٥) نهد الهدية: عظمها وأضخمها.

(٦) البذخ: الكبر.

(٧) الشكيمة: قوة القلب.

(٨) المثافنة: المباطنة، وفي رواية: المنافثة ومعناتها الأذية.

أوقاتًا، وقَدّره ساعات، لا يستفرغ قوتك، ويستدعي سآمتك، وعزماتك فانف عنها عجلة الرأي، ولجاجة الإقدام، وفرحاتك فاشكمها[1] عن البطر، وقيدها عن الزهد، وروعاتك فحطها من دهش الرأي، واستسلام الخضوع، وحذراتك فامنعها عن الجبن واعمد بها للحزم، ورجاءك فقيده بخوف الفائت، وامنعه من أمن الطلب».

ثم ذكر لبه كيف يتخير عشراءه ويعامل مشاوريه، ويتوقى انتشار أخباره في العامة، إلا على ما لا يسقط من شأنه، فقال: «ثم لتكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك، ودخلاؤك في سرك، أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك وعامة قوادك، ممن قد حنكته السنُّ بتصاريف الأمور، وخبطته فصالها بين فراسن[2] البزل منها، وقلبته الأمور في فنونها، وركب أطوارها عارفًا بمحاسن الأمور، ومواضع الرأي، مأمون النصيحة، مطويَّ الضمير على الطاعة، ثم أحضرهم من نفسك وقارًا، تستدعي منهم لك الهيبة، واستئناسًا يعطف إليك منهم بالمودة، وإنصاتًا يفلُّ إفاضتهم عندك بما تكره أن ينتشر عنك من سخافة الرأي، وضياع الحزم، ولا يغلبن عليك هواك فيصرفك عن الرأي، ويقطعك دون الفكر. وتعلّم أنك وإن خلوت بسر فألقيت دونه سترك، وأغلقت عليه أبوابك، فذلك لا محالة مكشوف للعامة، ظاهر عنك وإن استترت بربما ولعل، وما أُرى إذاعة ذلك، فاعلم بما يرون من حالات من ينقطع به في تلك المواطن، فتقدم في إحكام ذلك من نفسك وسدَّ خلله عنك، فإنه ليس أحد أسرع إليه سوءُ القالة، ولغط العامة بخير أو شر، ممن كان في مثل حالك ومكانك الذي أصبحت فيه من دين الله، والأمل المرجو المنتظر فيك».

---

(١) شكمه، يشكمه شكمًا: وضع الشكيمة في فيه، والشكيمة في اللجام الجديدة المعترضة في فم الفرس التي فيها الفأس. وفأس اللجام هي الحديدة القائمة في الشكيمة إذا كان ذا عارضة وحد، (ج) شكائم وشكم.

(٢) الفرسن والجمع فراسن: رجل الجمل، والبزل كركع: جمع بازل وهو البعير إذا ظهر نابه، ومن المجاز: الرجل الكامل في تجربته.

ثم حذره من مسائل لها مساس عظيم بمن لهم السلطان على الناس، فكلمه في أمور عامة تنتظم بسيره وبسيرته فقال له: «وإياك أن يغمز[1] أحد من حامّتك وبطانة خدمك، بضعفة يجد بها مساغًا إلى النطق عندك بما لا يعتزلك عيبه، ولا تخلو من الأحدوثة لائمته، ولا تأمن سوءًا فيه، ولا يرخُص سوء القالة فيه، إن نَجَم ظاهرًا، أو أعلن باديًا، ولن يجترئوا على تلك عندك، إلا أن يروا منك إصغاءً إليها، وقبولًا لها، وترخيصًا لهم في الإفاضة بها، ثم إياك أن يفاض عندك بشيءٍ من الفكاهات والحكايات، والمزاح والمضاحك، التي يستخف بها أهل البطالة، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة، ويجد فيها أهل الحسد مقالًا لعيب يذيعونه، ولطعن في حق يجحدونه، مع ما في ذلك من نقص الرأي ودَرَن العرض، وهدم الشرف وتأثيل[2] الغفلة، وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم كمون النار في الحجر الصلد، فإذا قدح لاح شرره، وتلهب وميضه، ووقد تضرمه، وليست في أحد أقوى سطوة، وأظهر توقدًا وأعلى كمونًا، وأسرع إليه بالعيب، وتطرق الشين، منها إلى من كان في سنك من أغفال[3] الرجال، وذوي العنفوان في الحداثة الذين لم يقع عليهم سِمات الأمور ناطقًا علهيم لائحها، ظاهرًا عليهم وسمها، ولم تمحضهم شهامتها، مظهرة للعامة فضلهم، مذيعة حسن الذكر عنهم، ولم يبلغ بهم الصيت في الحنكة مستمعًا يدفعون به عن أنفسهم نواطق ألسن أهل البغي، ومواد أبصار أهل الحسد».

وعاد بعد أن حذره من الخفة في المواكب، ومداعبة من يسايره بالتضاحك إليه، يريده على أن يستعمل الجد في حركاته، بحيث لا تتقلقل جوارحه، ويحذره من السعاية، ويدله على الطريقة في معاملة النمامين، وعلى الترفع عن الجواسيس وصورة

(١) أغدز في فلان: إذا عابه واستضعفه وصغر شأنه، والحامة: القرابة والأسرة.

(٢) التأثيل: التأصيل.

(٣) رجل غفل: لم يجرب الأمور.

معاملتهم، لا يأخذ منهم إلا ما ينفع الدولة فقط، ونهج له السبيل السوي في معاملة أصحاب الحاجات، فقال: «واعلم أن قومًا سيسرعون إليك بالسعاية، ويأتونك من قبيل النصيحة، ويستميلونك بإظهار الشفقة، ويستدعونك بالإغراء والشبهة، ويوطئونك عشوة[1] الحيرة، ليجعلوك ذريعة لهم إلى استئكال[2] العامة، بموضعهم منك في القبول منهم، والتصديق لهم على من قرفوه[3] بتهمة، أو أسرعوا بك في أمره إلى الظنة، فلا يصلن إلى مشافهتك ساع بشبهة، ولا معروف بتهمة، ولا منسوب إلى بدعة، فيعرضك لابتداع[4] في دينك، ويحملك على رعيتك ما لا حقيقة فيه، ويلحمك[5] أعراض قوم لا علم لك بدخلهم، إلا بما أقدم به عليهم ساعيًا، وأظهر لك منهم متنصحًا.

وليكن صاحب شُرَطك، ومن أحببت أن يتولى ذلك من قوادك، إليه انتهاء ذلك وهو المنصوب لأولئك، والمستمع لأقاويلهم، والفاحص عن نصائحك، ثم ليُنْهِ ذلك إليك على ما يرتفع إليه منه، لتأمره بأمرك فيه، وتقفه على رأيك، من غير أن يظهر ذلك للعامة، فإن كان صوابًا نالتك حظوته، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل، أو فرطةً سعى بها كاذب، فنالت الساعي منها أو المظلوم عقوبة، أو بدر منك إليه عقوبة ونكال، لم يعصب[6] ذلك الخطأ بك، ولم تنسب إلى تفريط، وخلوت من موضع الذم فيه، محضرًا إليه ذهنك وصواب رأيك، وتقدم إلى من تولى ذلك الأمر، وتعتمد عليه فيه، أن لا يقدم على شيء ناظرًا فيه، ولا يحاول أخذ أحد طارقًا له، ولا

(١) العشوة: الظلمة.

(٢) استأكل الضعفاء: أخذ أموالهم.

(٣) قرف فلانًا: عابه أو اتهمه.

(٤) في رواية: لإيتاغ دينك، يقال: أوتغه أهلكه، وهذا مما يوتغ الدين والمروءة.

(٥) ألحم الحرب فالتحمت؛ أي: يعرضك للهلكة بقرض عرض من لا تعرف.

(٦) عصب القوم بفلان: أحاطوا به.

يعاقب أحدًا منكلًا به، ولا يخلي سبيل أحد صافحًا عنه لإصحار[١] براءته، وصحة طريقته، حتى يرفع إليك أمره، وينهي إليك قضيته على جهة الصدق، ومنحى الحق، ويقين الخبر، فإن رأيت عليه سبيلًا لمحبس، أو مجازًا لعقوبة، أمرته بتولي ذلك من غير إدخاله عليك، ولا مشافهة لك منه، فكان المتولي لذلك، ولم يجر على يديك مكروه رأي، ولا غلظة عقوبة، وإن وجدت إلى العفو عنه سبيلًا، أو كان مما قُرف به خليا، كنت أنت المتولي للإنعام عليه بتخلية سبيله والصفح عنه بإطلاق أسره، فتوليت أجر ذلك واستحققت ذخره، وأنطقت لسانه بشكرك، وطوقت قومه حمدك، وأوجبت عليه حقك، فقرنت بين خصلتين، وأحرزت خطوتين؛ ثواب الله في الآخرة، ومحمود الذكر في العاجلة.

ثم وإياك أن يصل أحد من جندك، وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك، أو حاجة يبدهك بطلبها، حتى يرفعها قبل ذلك إلى كاتبك الذي أهدفته لذلك ونصبته له، فيعرضها عليك منهيًا لها على جهة الصدق عنها، وتكون على معرفة من قدرها، فإن أردت إسعافه بها، ونجاح ما سأل منها، أذنت له في طلبها، باسطًا له كنفك، مقبلًا عليه بوجهك، مع ظهور سرورك بما سألك، فسحة رأي، وبسطة ذرع، وطيب نفس؛ وإن كرهت قضاء حاجته، وأحببت رده عن طلبته، وثقل عليك إجابته إليها، وإسعافه بها، أمرت كاتبك فصفحه[٢] عنها، ومنعه من مواجهتك بها، فخفت عليك في ذلك المؤونة، وحسن لك الذكر، ولم ينشر عنك

(١) الإصحار: الوضوح.

(٢) يقال: أتاني فلان في حاجة فأصفحته عنها إصفاحًا إذا طلبها فمنعته. قال ابن الأثير: صفحته إذا أعطيته، وأصفحته إذا حرمته، وصفحه عن حاجته يصفحه صفحًا، وأصفحه كلاهما رده.

تجهم[١] الرد، وينلك سوء القالة في المنع، وحمل على كاتبك في ذلك لائمة أنت منها بريء الساحة.

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود، وأتاك من الرسل، فلا يصلن إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إياك، وعلم ما قدم له عليك، وجهة ما هو مكلمك به، وقدر ما هو سائلك إياه، إذا وصل إليك فأصدرت رأيك في حوائجه، وأجلت فكرك في أمره، واخترت معتزمًا على إرادتك في جوابه، وأنفذت مصدور رويتك في مرجوع مسألته، قبل دخوله عليك، وعلمه بوصول حاله إليك، فرفعت عنك مؤونة البديهة، وأرخيت عن نفسك خناق[٢] الروية، وأقدمت على رد جوابه بعد النظر، وإجالة الفكر فيه، فإن دخل إليك أحد منهم، فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتبك، وطوى عنه حاجته قِبَلَك، دفعته عنك دفعًا جميلًا، ومنعته جوابك منعًا وديعًا، ثم أمرت حاجبك بإظهار الجفوة له، والغلظة عليه، ومنعته من الوصول إليك، فإن ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب، صارفًا عنك مؤونتها، ومسهلًا عليك مستصعبها».

هذه هي الخطة التي اختطها عبد الحميد لولي عهد المسلمين، يريد بها أن يرفع مقامه بين الناس، على اختلاف مطالبهم، وأن يظهر بمظهر الكرامة، بعيدًا عن تجبيه قاصديه والتجهم لهم، وهو ضرب من حسن السياسة ما نخال رجال الدولة الراقية اليوم يعملون بغير هذه الطريقة حتى لا يسقطوا من الأنظار، ويتركوا للمراجعين فسحة من الأمل، ولا يقطعوا معهم قطعًا بتًّا، وأن يستهدف صغار العمال للنقد وأفظع من النقد، والرئيس بمأمن، على حين هو الكل في الكل والصغير عن رأيه

---

(١) جهم: ككرم جهامة وجهومة، وجهمه كمنعه وسمعه استقبله بوجه كريه كتجهمه وله.

(٢) الخناق ككتاب: الحبل يخنق به، وكغراب: داء يمتنع معه نفوذ النفس إلى الرئة والقلب، ويقال أيضًا: أخذه بخناقه بالكسر والضم ومخنقه أي بحلقه (القاموس).

صدر، ولإرادته نفذ، ولقانونه طبق، وماذا يصير هذا لو حمل الناس عليه بالطعن، وقد يفادى بالمئات من العمال لقيام الدولة وحفظ البيضة، واستبقاء الكرامة والحظوة، في سبيل الرفع من مكانة الرئيس الأول، فإن بسقوطه سقوط الدولة، وسقوط بعض عماله لا شأن له ولا بال. وحقيقة فإن من المسائل ما يوفق لكشفه صاحب الشرطة مثلًا أكثر مما يوفق العظيم في الدولة، لأنه متمحض لذلك، ومقام ولاية العهد يصغر في نفوس الأمة إذا عمل صاحبه في جزئيات الأمور عملًا قد يجيده العامل الصغير، ويوفق فيه، ويوفر على صاحبه وقته، ويرفع في العيون شخصيته.

جوَّد عبد الحميد الكلام على هذا فأبان عن بعد نظر في سياسة الملك وسياسة الرعية، ثم أنشأ ينهج للمكتوب إليه طريقًا مهيعًا[١]، في سلوكه مع جلسائه وبطانته، وأهل مشورته وأعوانه، وفي أحوال نفسه. وتالله لقد لقنه هنا أدبًا، وحدد له عادات أشبه بقواعد الحياة العامة في الممالك المتحضرة اليوم. والعقل البشري على كثرة ارتقائه جيلًا فجيلًا، لن يبرح في دائرة نرى فيها ما كان يستحسن قبل ألف سنة يستحسن اليوم، وتلك القواعد التي يتمسكون بها هي القواعد التي سنها أجدادنا لأنفسهم منذ ثلاثة عشر قرنًا. قال عبد الحميد:

«احذر تضييع رأيك، وإهمالك أدبك، في مسالك الرضا والغضب، واعتوارهما إياك، فلا يزدَهِيَنَّك إفراط عجب تستخفك روائعه، ويستهويك منظره، ولا يبدون منك (في) ذلك خطأ ونزق خفة لمكروه إن حلَّ بك، أو حادث إن طرأ عليك... وامنع أهل بطانتك وخاصة خدمك من استلحام[٢] أعراض الناس عندك بالغيبة،

(١) طريق مهيع: واضح واسع بيِّن، وجمعه مهايع.

(٢) استلحم: اتبع، وفي حديث أسامة: فاستحلمنا رجل من العدو؛ أي: تبعنا، يقال: استلحم الطريدة والطريق؛ أي: تبع.

والتقرب إليك بالسعاية، والإغراء من بعض ببعض، أو النميمة إليك بشيء من أحوالهم المستترة عنك، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة، فإن ذلك أبلغ بك سموًّا إلى منالة الشرف، وأعون لك على محمود الذكر، وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير.

واملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانفهاق[1]، وعن القطوب بإظهار الغضب وتنحله[2]، فإن ذلك ضعف عن ملك سَوْرة الجهل، وخروج من انتحال اسم الفضل، وليكن ضحكك تبسمًا أو كشرًا في أحايين ذلك وأوقاته، وعند كل رائع مطرب، وقطوبك إطراقًا في مواضع ذلك وأحواله، بلا عجلة إلى السطوة، ولا إسراع إلى الطِيَرة، دون أن يكنف روية الحلم، وتملك عليها بادرة الجهل.

إذا كنت في مجلس مَلَئِك، حيث حضور العامة مجلسك، فإياك والرمي بنظرك إلى خاص من قوادك، أو ذي أثرة[3] عندك من حشمك، وليكن نظرك مقسومًا في الجميع، وإراعتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة، ووقار حسن، وحضور فهم مجتمع، وقلة تضجر بالمحدث، ثم لا يبرح وجهك إلى بعض حرسك وقوادك متوجهًا بنظر ركين، وتفقد محض، وإن وجه إليك أحد منهم نظره محدقًا، أو رماك ببصره ملحًا، فاخفض عنه إطراقًا جميلًا باتداع وسكون، وإياك والتسرع في الإطراق، والخفة في تصريف النظر، والإلحاح على من قصد إليك في مخاطبته إياك رامقًا بنظره.

(١) الاتساع.

(٢) تنحل الشيء وانتحله: ادعاه.

(٣) في الحديث قال للأنصار: «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا». الأثرة بفتح الهمزة والثاء: الاسم من آثر يؤثر إيثارًا إذا أعطى، أراد أن يستأثر عليكم فيفضل غيركم في نصيبه من الفيء.

واعلم أن تصفحك وجوه جلسائك، وتفقدك مجانسة قوادك، من قوة التدبير، وشهامة القلب، وذكاء الفطنة، وانتباه السِّنة، فتفقد ذلك عارفًا بمن حضرك وغاب عنك، عالمًا بمواضعهم من مجلسك، ثم اغدُ بهم عن ذلك سائلًا لهم عن أشغالهم التي منعتهم من حضور مجلسك، وعاقتهم بالتخلف عنك.

إن كان أحد من حشمك وأعوانك تثق منه بغيب ضمير، وتعرف منه لين طاعة، وتشرف منه على صحة رأي، وتأمنه على مشورتك، فإياك والإقبال عليه في كل حادث يرد عليك، والتوجه نحوه بنظرك عند طوارق ذلك، أن تريه أو أحدًا من أهل مجلسك أن بك حاجة إليه موحشة، أو أن ليس بك عنه غنى في التدبير، أو أنك لا تقضش دونه رأيًا إشراكًا منك له في رويتك، وإدخالًا منك له في مشورتك، واضطرارًا منك إلى رأيه في الأمر يعروك، فإن ذلك من دخائل[1] العيوب التي ينتشر بها سوء القالة عن نظرائك، فانفها عن نفسك، خائفًا لاعتلاقها ذكرك، واحجبها عن رويتك قاطعًا أطماع أوليائك عن مثلها عندك، أو غلوبهم عليها منك؛ واعلم أن للمشورة موضع الخلوة وانفراد النظر، ولكل أمر غاية تحيط بحدوده وتجمع معالمه، فابغها محرزًا لها، ورُمْها طالبًا لنيلها، وإياك والقصور عن غايتها، أو العجز عن دركها، أو التفريط في طلبها إن شاء الله تعالى.

إياك والإغرامَ[2] عن حديث ما أعجبك، أو أمر ما ازدهاك بكثرة السؤال، أو القطع لحديث من أرادك بحديثه، حتى تنقضه عليه بالخوض في غيره أو المسألة عما ليس منه، فإن ذلك عند العامة منسوب إلى سوء الفهم، وقصر الأدب، عن تناول محاسن الأمور والمعرفة بمساويها، ولكن أنصت لمحدثك وأرعه سمعك، حتى يعلم

(١) الدخيلة: باطن الرجل ويقال لها: الداخلة، والدخلة بضم أوله وفتحه وكسره.

(٢) كذا في الأصل ولعلها الإعراب.

أن قد فهمت حديثه، وأحطت معرفة بقوله، فإن أردت إجابته فعن معرفة بحاجته، وبعد علم بطلبته، وإلا كنت عند انقضاء كلامه كالمتعجب من حديثه بالتبسم والإغضاء، فأجزى عنك الجواب، وقطع عنك ألسن العتب.

إياك وأن يظهر منك تبرم بطول مجلسك، أو تضجر ممن حضرك، وعليك بالتثبت عند سَوْرة الغضب، وحمية الأنف، وملال الصبر في الأمر تستعجل به، والعمل تأمر بإنفاذه، فإن ذلك سخف شائن، وخفة مردية، وجهالة بادية، وعليك بثبوت المنطق، ووقار المجلس، وسكون الريح، والرفض لحشو الكلام، والترك لفضوله، والإغرام بالزيادات في منطقك، والترديد للفظك من نحو اسمع وافهم عني وياهناه، وألا ترى، أو ما يلهج به من هذه الفضول المقصرة بأهل العقل، الشائنة لذوي الحجا في المنطق، المنسوبة إليهم بالعي، المردية لهم بالذكر، وخصال من معايب الملوك، والسوقة عنها غبية النظر، إلا من عرفها من أهل الأدب، وقلما حامل لها، مضطلع بها، صابر على ثقلها، آخذ لنفسه بجوامعها، فانفها عن نفسك بالتحفظ منها، واملك عليها اعتيادك إياها معتنيًا بها، منها كثرة التنخم والتبصق والتنخع، والتثؤباء والنمطى والجشاء، وتحريك القدم، وتنقيض الأصابع، والعبث بالوجه واللحية أو الشارب أو المخصرة أو ذؤابة السيف أو الإيماض بالنظر، أو الإشارة بالطرف إلى بعض خدمك بأمر إن أردته، أو السرار في مجلسك، أو الاستعجال في طعمك أو شربك، وليكن طعمك متدعًا وشربك أنفاسًا، وجرعك مصًّا، وإياك والتسرع في الأيمان فيما صغر أو كبر من الأمور. والشتيمة بقول يابن الهناة، أو الغميزة [1] لأحد من خاصتك، بتسويغهم مقارفة الفسوق بحيث محضرك أو دارك وفناؤك، فإن ذلك كله مما يقبح ذكره، ويسوءُ موقع القول فيه، وتحمل

(١) الغميزة: المطعن أو المطمع. في القاموس وهن المرأة فرجها. ويقال للرجل: أقبل يا هن، ولها: يا هنة أقبلي.

عليك معايبه، وينالك شَيْنه، وينتشر عليك سوء النبأ به، فاعرف ذلك متوقيًا له، واحذره مجانبًا لسوء عاقبته.

استكثر من فوائد الخير، فإنها تنشر المحمدة وتقيل العثرة، واصبر على كظم الغيظ، فإنه يورث الراحة، ويؤمن الساحة. وتعهد العامة بمعرفة دخلهم وتبطن أحوالهم، واستثارة دفائنهم، حتى تكون منها على رأي عين، ويقين خبرة، فتنعش عديمهم، وتجبر كسيرهم، وتقوِّم أودهم، وتعلم جاهلهم، وتستصلح حاسدهم؛ فإن ذلك من فعلك يورثك العزة، ويقدمك في الفضل، ويبقي لك لسان الصدق في العاقبة، ويحرز لك ثواب الآخرة، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك، وقلوبهم المتنحية عنك.

قس بين منازل أهل الفضل في الدين والحجا والرأي والعقل والتدبير والصيت في العامة، وبين منازل أهل النقص في طبقات الفضل وأحواله، والخمول عند مباهاة النسب، وانظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل، وتستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل، وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرفة بك، فاعتمد عليهم من خلالهم في أمرك، وآثرهم بمجالستك لهم مستحقًّا منهم، وإياك وتضييعهم مفرطًا، وإهمالهم مضيعًا».

هنا انتهى الفصل الأول من هذه الرسالة وقد لمحنا فيها ما يهذب النفس، ويعرفها مصادر الأمور ومواردها، ويقفها على أحوال الناس ومعالجة مسائلهم؛ وقد ختمه بقوله: «هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسرًا، وجمع لك شواذها مؤلفًا، وأهداها إليك مرشدًا، فقف عند أوامرها، وتناه عن زواجرها، وتثبت في مجامعها، وخذ بوثائق عراها، تسلم من معاطب الردى، وتنل أنفس الحظوظ، ورغيب الشرف، وأعلى درجات الذكر، والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن

الإرشاد، وتتابع المزيد، وبلوغ الأمل، وأن يجعل عاقبة ذلك بك إلى غبطة يسوغك إياها، وعافية يحلك أكتافها، ونعمة يلهمك شكرها، فإنه الموفق للخير، والمعين على الإرشاد، وبه تمام الصالحات، وهو مؤتي الحسنات، وبيده الملك وهو على كل شيء قدير».

في الجزء الأول من هذا الكتاب صورة من التربية التي يريد عبد الحميد أن يلقنها ولي العهد، وما يحاول أن ينزه عنه خلقه وعاده، ومجالسه ومواقفه، ويلقنه من السيرة الحسنة مع رعيته، وذوي الحاجات والظلامات منها، وما يجب أن يكون عليه في إدارته وسياسته مع عماله ونصائحه وأصحاب أخباره، حتى يظهر للملأ تام الأدوات، جميل المآني[1] والصفات. عظيمًا يضم في بُرديه ضروب الوقار وحسن السمت، وجمال العلم والأدب.

أما الجزء الثاني، فهو قانون الحرب يلخصه لقائدها، فيعمل على نفاذه، لتكتب له الغلبة على خصمه الخارج على دولته؛ وقد بدأ هذا القسم بالوقوف عند حدود الطاعة لله، والعمل بمراشده، واجتناب نواهيه، ووصف الدواعي إلى جهاد العدو الذي خرج على الجماعة، فكان أضر على المسلمين من الترك والمشركين، وأوصاه برعاية من يمر بهم الجيش من أهل الذمة وأهل الملة، لئلا ينال الرعية ما ينالها على الأغلب، من كل جيش مرابط ومثاغر ومهاجم ومدافع ومتراجع. فقال هذا:

«فإذا أفضيت نحو عدوك، واعتزمت على لقائهم، وأخذت أُهبة قتالهم، فاجعل دعامتك التي تلجأ إليها، وثقتك التي تأمل النجاة بها، وركنك الذي ترتجي به منازل الظفر، وتكتهف[2] به لمغالق الحذر، تقوى الله عز وجل، مستشعرًا لها بمراقبته،

---

(١) مأنى الأمر ومأناته: جهته.

(٢) اكتهف وتكهف: لزم الكهف، والكهف: المغارة.

والاعتصام بطاعته، متبعًا لأمره، مجتنبًا لسخطه، محتذيًا سنته، والتوقي لمعاصيه، في تعطيل حدوده وتعدي شرائعه، متوكلًا عليه فيما صمدت[١] له، واثقًا بنصره فيما توجهت نحوه، متبرئًا من الحَوْل والقوة فيما نالك من ظفر، وتلقاك من عز، راغبًا فيما أهاب[٢] بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد، ورمى بك إليه، محمود الصبر فيه عند الله، من قتال عدو المسلمين، أكلبهم عليهم، وأظهره عداوة لهم، وأفدحه ثقلًا لعامتهم. وآخذه بربقهم[٣] وأعلاه عليهم بغيًا، وأظهره فيهم فسقًا وفجورًا، وأشده على فيئهم الذي أصاره الله لهم مؤونة وكَلًّا، والله المستعان عليهم، والمستنصر على جماعتهم، عليه يتوكل أمير المؤمنين، وإياه يستصرخ عليهم، وإليه يفوّض أمره، وكفى بالله وليًّا وناصرًا ومغيثًا وهو القوي العزيز.

ثم خذ من معك من أتباعك وجندك، بكف معرتهم، ورد مستعلي جورهم[٤] وإحكام خللهم، وضم منتشر قواصيهم، ولمّ شعث أطرافهم، وتقييدهم عمن مروا به من أهل ذمتك وملتك، بحسن السيرة، وعفاف الطعمة، ودَعَة الوقار وهَدي الدعة، وجمام[٥] المستجم، محكمًا ذلك منهم، متفقدًا لهم فيه تفقدك إياه من نفسك.

ثم اصمد لعدوك المتسمِي بالإسلام، الخارج عن جماعة أهله، المنتحل ولاية الدين، مستحلًّا لدماء أوليائه، طاعنًا عليهم، راغبًا عن سنتهم، مفارقًا لشرائعهم، يبغيهم الغوائل، وينصب لهم المكايد، أضرم حقدًا عليهم، وأرصد عداوة لهم، من الترك وأمم الشرك، وطواغي الملل؛ يدعو إلى المعصية والفرقة، والمروق من الدين إلى

---

(١) صمد للأمر: قصده معتمدًا عليه.

(٢) أهاب بصاحبه: دعاه.

(٣) الربقة: حبل يوضع في العنق وجمعه ربق، وأكلبهم عليه: أحرصهم وأشدهم.

(٤) في الصبح: ورد مشتعل جهلهم وإحكام ضياع عملهم.

(٥) الجمام كسحاب: الراحة؛ أي: راحة المستريح.

الفتنة. مخترعًا بهواه للأديان المنتحلة، والبدع المتفرقة، خسارًا وتخسيرًا، وضلالًا وتضليلًا، بغير هدى من الله ولا بيان، ساء ما كسبت يداه، وما الله بظلام للعبيد، وبئسما سولت له نفسه الأمارة بالسوء، والله من ورائه بالمرصاد، وسيعلم الذين ظلموا أي مُنقلبٍ ينقلبون».

وقد رأينا بما نقلنا من جمله أنه عاد فأراده على الاعتصام بالمولى، وأدلى إليه بالوسائل إلى استصلاح عدوه من دون إهراق دم فقال له: «اعلم أن الظفر ظفران أحدهما أعم منفعة، وأبلغ في حسن الذكر قالة، وأحوطه سلامة، وأتمه عافية، وأعوده عاقبة، وأحسنه في الأمور موردًا، وأصحه في الرواية حزمًا، وأسلمه عند العامة مصدرًا، ما نيل ببسالة[1] الجنود، وحسن الحيلة، ولطف المكيدة، ويمن النقيبة[2]، واستنزال طاعة ذوي الصدوف[3]؛ بغير إخطار الجيوش في وقدة جمرة الحرب، ومنازلة الفرسان في معترك الموت، وإن ساعدتك طلوق[4] الظفر، ونالك مزيد السعادة في الشرف؛ ففي مخاطرة التلف مكروه المصائب! وعضاض السيوف، وألم الجراح، وقصاص الحروب، وسجالها بمغاورة أبطالها، على أنك لا تدري لأي الفريقين يكون الظفر في البديهة، ومن المغلوب في الدولة؛ ولعلك أن تكون المطلوب بالتمحيص، فحاول أبلغهما في سلامة جندك ورعيتك، واشهرهما صيتًا في بدوّ تدبيرك ورأيك، وأجمعهما لألفة وليك وعدوك، وأعونهما على صلاح رعيتك وأهل ملتك، وأقواهما شكيمة في حزمك، وأبعدهما من وصم عزمك، وأعلقهما بزمام النجاة في آخرتك، وأجزلهما ثوابًا عند ربك.

(١) في رواية: بسلامة.

(٢) النقبة: النفس.

(٣) صدف يصدف صدوفًا: انصرف.ومال.

(٤) الطلوق: الاستبشار وانبساط الوجه.

وابدأ بالإعذار[1] إلى عدوك، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة، وعزّ الأنفة، آخذًا بالحجة عليهم، متقدمًا بالإنذار لهم، باسطًا أمانك لمن لجأ إليك منهم، داعيًا لهم إليه بألين لفظك، وألطف حيلتك، متعطفًا برأفتك عليهم، مترفقًا بهم في دعائك، مشفقًا عليهم من غلبة الغواية لهم، وإحاطة الهلكة بهم، منفذًا رسلك إليهم بعد الإنذار، تَعِدُهم كل رغبة يَهِش إليها طمعهم في موافقة الحق، وبسط كل أمان سألوه لأنفسهم ومن معهم ومن تبعهم، موطنًا نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عندك، قابلًا توبة نازعهم عن الضلالة، ومراجعة مسيئهم إلى الطاعة، مرصدًا للمنحاز إلى فئة المسلمين وجماعتهم، إجابة إلى ما دعوته إليه، وبصرته إياه من حقك وطاعتك، بفضل المنزلة وإكرام المثوى، وتشريف الجاه؛ وليظهر من أثرك عليه، وإحسانك إليه، ما يرغب في مثله الصادف عنك، المصرُّ على خلافك ومعصيتك، ويدعو إلى اعتلاق حبل النجاة، وما هو أملك به في الاعتصام عاجلًا، وأنجى له من العقاب آجلًا، وأحوطه على دينه ومهجته، بدءًا وعاقبة؛ فإن ذلك مما يستدعي به من الله نصره عليهم، ويعتضد به في تقديمه الحجة إليهم معذرًا أو منذرًا إن شاء الله».

وهنا وصف له الطريقة التي يجب أن يتخذها لإرسال عيونه وجواسيسه لمعرفة حالة العدو وإدراك نفسيته، وما يرغب فيه «مستشيرًا لذوي النصيحة الذين قد حنكتهم السن، وخبطتهم التجربة، ونجذتهم الحروب»، وأن الواجب أن يعظم أمر عدوه لأكثر مما بلغه، أخذًا بالحزم، لئلا يكون مهين الجند، ولا مفرطًا في الرأي، ولا متلهفًا على إضاعة تدبير. وحذره جواسيسه أنفسهم مما يأتونه به من أخبار عدوه، وأن لا يعاقبهم إذا اتهمهم في خبر حملوه، ملتمسًا لهم الأعذار، ولعلهم أوتوا من تدبير العدو ومكيدته. وقال:

---

(١) أعذر: بالغ في العذر؛ أي في كونه معذورًا على ما أتاه.

«ألبسهم[1] جميعًا على الانتصاح، وأرجح لهم المطامع، فإنك لم تستعبدهم بمثلها، وعِدْهم جزالة الثواب في غير ما استنامة منك إلى ترقيقهم[2] أمر عدوك».

«واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك، وربما غشوك، وربما كانوا لك وعليك، فنصحوا لك وغشوا عدوك، وغشوك ونصحوا عدوك، وكثيرًا ما يصدقونك ويصدقونه، فلا تبدرن منك فرطة وعقوبة إلى أحد منهم، ولا تعجل بسوء الظن إلى من اتهمته على ذلك، وابسط من آمالهم فيك، من غير أن تُري أحدًا منهم أنك أخذت من قوله أخذ العامل به والمتبع له، أو عملت على رأيه عمل الصادر عنه، أو رددته عليه رد المكذب به، والمتهم له، المستخف بما أتاك منه، فتفسد بذلك نصيحته، وتستدعي غشه، وتجتر عداوته، واحذر أن يُعرف جواسيسك في عسكرك، أو يشار إليهم بالأصابع، وليكن منزلهم على كاتب رسائلك وأمين سرك، ويكون هو الموجه لهم، والمدخل عليك من أردت مشافهته منهم؛ واعلم أن لعدوك في عسكرك عيونًا راصدة، وجواسيس كامنة، وأن رأيه في مكيدتك مثل ما تكايده به، وسيحتال لك كاحتيالك له، ويُعِدُّ لك كإعدادك فيما تزاوله منه؛ فاحذر أن يُشهر رجل من جواسيسك في عسكرك فيبلغ ذلك عدوك، ويعرف موضعه فيعد له المراصد، ويحتال له بالمكايد، فإن ظفر به فأظهَرَ عقوبته، كَسَرَ ذلك ثقات عيونك، وخذلهم عن تطلب الأخبار من معادنها، واستقصائها من عيونها، واستعذاب اجتنائها من ينابيعها، حتى يصيروا إلى أخذها على عُرض[3] من غير الثقة ولا المعاينة، لقطًا لها بالأخبار الكاذبة، والأحاديث المرجفة، واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضًا، فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك، وممالأتهم عدوك، واجتماعهم على

(١) خالطهم، والتنصح: التشبه بالنصحاء.

(٢) الترقيق ضد التغليظ.

(٣) العرض بضم العين: الناحية، ومن الكلام فحواه.

غشك، وتطابقهم على كذبك، وإصفاقهم[١] على خيانتك، وأن يورط بعضهم بعضًا عند عدوك؛ فأحكم أمرهم، فإنهم رأس مكيدتك، وقوام تدبيرك، وعليهم مدار حربك، وهو أول ظفرك».

وذكر له بعد هذا صفة من يوليه شرطته، وأن يكون أوثق قواده عنده، وآمنهم نصيحة، وأقدمهم بصيرة في طاعته، وأصدقهم عفافًا؛ وأن يبسط من أمله مظهرًا عنه الرضا، حامدًا منه الابتلاء. وبيّن له عمله في الجيش وسلطته على الناس. وقال له أن يولي القضاء في عسكره رجلًا من ذوي الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع ممن حنكته السن، وأيدته التجربة، ويكون ممن لا يداهن في القضاء وممن يعدل، وأن يُجري عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه، ليتفرغ لما حمله، ويعان على ما ولي؛ وأشار له أن ينتخب لطلائعه ذوي نجدة وبأس وخبرة ممن صلوا بالحروب، وشربوا مرار كئوسها، وأن ينتقيهم على عينه، ويعرض كُراعهم[٢] بنفسه، وبيّن له ما يصلح من الخيل والسلاح، ووصف ذلك أبدع وصف، وحذره أن يَكِلَ مباشرة عرضهم وانتخابهم إلى أحد من أعوانه وكتابه؛ لئلا يضيع مواضع الحزم، ويقف دون عزم الروية، لأنهم حصون المسلمين وعيونهم، وهم أول مكيدته، وعروة أمره، وزمام حربه؛ وأن ينتخب للولاية عليهم رجلًا بعيد الصوت، مشهور الاسم، ظاهر الفضل، له في العدو وقعات وصولات، وأن يجري عليهم وعليه أرزاقًا تسعهم، وتمد من أطماعهم، سوى أرزاقهم في العامة. وبعد هذا قال له أن يولي درّاجة[٣] عسكره، وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكزهم، رجلًا من أهل بيوتات الشرف، محمود الخبرة، معروفًا بالنجدة، ذا سن وتجربة؛ وأن يضم إليه عدة نفر من

(١) اجتماعهم.

(٢) كراعهم: خيلهم.

(٣) الدراجة: كجبانة الدبابة تعمل لحرب الحصار تدخل تحتها الرجال.

ثقات جنده، وذوي أسنانهم يكونون شرطة معه؛ ثم تتقدم إليه في إخراج المصاف، وإقامة الأحراس، وإذكاء العيون؛ وذكر له عمل هذا الرجل في الأخذ بالنافع لقيام أمر الجيش، ووقايته من العدو.

وأراده أن يفوض إلى أمراء أجناده وقواد خيله أمور أصحابهم، رياضة منه لهم على السمع والطاعة لأمرائهم؛ وحذره أن يعتل أحد من قواده عليه، بما يحول بينه وبين تأديب جنده، لأن ذلك مفسدة للجند؛ وحذره استخفاف الجند بقوادهم، لأن ذلك يؤدي إلى استخفافهم بأمره؛ وأن يوعز إلى قواده أن لا يقدموا على عقوبة أحد إلا عقوبة تأديب؛ أما عقوبة القتل أو إقامة حد في قطع أو إفراط في ضرب أو أخذ مال فلا يلي ذلك إلا هو، أو صاحب شرطته بأمره، وعن رأيه وإذنه.

ثم بسط له القول عند لقاء العدو إذا شام طلائعه كيف يكتّب خيوله ويعبي جنده، ويسير في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة، شاهرين الأسلحة، ناشرين البنود والأعلام، عارفين بمواضعهم في مسيرهم ومعسكرهم، معرفًا كل قائد أصحابه مواقفهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة، ليكون كأنه عسكر واحد في اجتماعه على العدو؛ فإن ضلت دابة من موضعها عرف أهل العسكر من أي المراكز هي ومن صاحبها، وفي أي المحل حلوله منها فردت إليه؛ وأراده على أن يجعل على ساقته أوثق أهل عسكره صرامة ونفاذًا، ورضا في العامة، وإنصافًا من نفسه للرعية؛ وأن يجعل خلف ساقته رجلًا من وجوه قواده جليدًا ماضيًا عفيفًا صارمًا، شهم الرأي، شديد الحذر، غير مداهن في عقوبة، في خمسين فارسًا من خيله، يحشر إليه جنده، ويلحق به من يتخلف عنه؛ وأمره أن يعد العقوبة الموجعة، ويستصفي الأموال، ويهدم عقار كل من آوى أحدًا من الجند، أو ستر موضعه، أو أخفى محله، ثم قال:

«ليكن رحيلك إيابًا واحدًا، ووقتًا معلومًا، لتخف المؤونة بذلك على جندك، ويعلموا أوان رحيلهم فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم، وأعلاف دوابهم، وتكن قلوبهم إلى الوقت الذي وقفوا عليه، ويطمئن ذوو الرأي إلى إبان الرحيل؛ ومتى يكون رحيلك مختلفًا، تعظم المؤونة عليك وعلى جندك، ولا يزال ذوو السفه والنزق يترحلون بالإرجاف وينزلون بالتوهم، حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة.

إياك أن تظهر استقلالًا، أو تنادي برحيل من منزل تكون فيه، حتى تأمر صاحب تعبيتك بالوقوف بأصحابه على معسكرك؛ آخذًا بجنبي فُوَّهته بأسلحتهم، عدة لأمر إن حضر، أو مفاجأة من طليعة للعدو إن رأت منكم نهزة، أو لمحت عندكم غِرة، ثم مر الناس بالرحيل، وخيلك واقفة، وأهبتك معدة، وجُنّتك واقية، حتى إذا استقللتم[1] من معسكركم، وتوجهتم من منزلكم، سرتم على تعبيتكم بسكون ريح، وهدوّ جملة، وحسن دعة؛ فإذا انتهيت إلى منهل أردت نزوله، أو هممت بالمعسكر به، فإياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله، والمعرفة بمرافقه، ومر صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله، ويستثير لك علم دفينه، ويستبطن علم أموره، ثم ينهيها إليك على ما صارت إليه، لتعلم كيف احتماله لعسكرك، وكيف ماؤه وأعلافه وموضع معسكرك منه؛ وهل لك إن أردت مقامًا به، أو مطاولة عدوك، أو مكايدته فيه، قوة تحملك ومدد يأتيه، فإنك إن لم تفعل ذلك لم تأمن أن تهجم على منزل يعجزك ويزعجك عنه ضيق مكانه، وقلة مياهه، وانقطاع مواده، إن أردت بعدوك مكيدة، أو احتجت من أمورهم إلى مطاولة، فإن ارتحلت منه كنت عَرَضًا لعدوك، ولم تجد إلى المحاربة والأخطار سبيلًا، وإن أقمت به أقمت على مشقة

(١) استقل القوم: ذهبوا وارتحلوا، والجنة بالضم: كل ما وقى.

وحصر، وفي أزل[١] وضيق، فاعرف ذلك وتقدم فيه؛ فإن أردت نزولًا أمرت صاحب الخيل التي وكلت بالناس، فوقفت خيله متنحية من معسكرك، عدةً لأمر إن غالك، ومفزعًا لبديهة إن راعتك، فقد أمنت بحمد الله وقوته فجأة عدوك، وعرفت موقعها من حرزك، حتى يأخذ الناس منازلهم، وتوضع الأثقال مواضعها، ويأتيك خبر طلائعك، وتخرج دبابتك من معسكرك دراجة ودبابات محيطين بعسكرك، وعدة إن احتجت إليها؛ ولتكن دبابات جندك أهل جلد وقوة، قائدًا أو اثنين أو ثلاثة بأصحابهم، في كل يوم وليلة نُوَبًا بينهم، فإذا غربت الشمس، ووجب[٢] نورها، أخرج إليهم صاحب تعبيتك أبدالهم، عسسًا بالليل في أقرب من مواضع دبابي النهار، يتعاور ذلك قوادك جميعًا بلا محاباة لأحد فيه ولا إدهان».

وعلى هذا النحو وضع لولي العهد مخطط الحركات الحربية، ثم قال له أن يكون منزله في خندق أو حصن ليأمن فيه بيات عدوه؛ وأن يقطع لكل قائد ذرعًا معلومًا من الأرض بقدر أصحابه، فيحفروه عليهم خندقًا يطيفونه بعد ذلك بخنادق الحَسَك؛ أي الأسلاك الشائكة، وإذا طرقهم طارق، أو فاجأهم عدو أن لا يتكلم أحد رافعًا صوته بالتكبير، وليشرعوا رماحهم ناشبين بها في وجوههم، ويرشقونهم بالنبل مكتنّين بأترستهم، لازمين لمراكزهم، وأن يكبروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائر الجند هادون، ليعرف مواضع عدوه من معسكره، وأن لا يشهروا سيفًا يتجالدون به، بل يكون قتالهم بالرماح والنشاب «قد ألبدوا بالأترسة، واستجنوا بالبَيْض، وألقوا عليهم سوابغ الدروع وجباب[٣] الحشو»؛ وأراده على ألا يخمد نار رواقه ليسكن نافر قلوب عسكره، وأن عدوه إذا نكل عن الإصابة في جنده، فعليه

(١) الأزل: ضيق في العيش.
(٢) وجبت الشمس: غابت.
(٣) الجباب: الدروع.

أن يتبعه جريدة خيل، عليها الثقات من فرسانه؛ وتقدم إليه فوصف الحالة التي يجب على هؤلاء الثقات أن يكونوا عليها وهم يطاردون أعداءهم، والصفات التي يجب على فرسانه أن يتصفوا بها ليغنوا غَنَاءَهم؛ ووصف له صورة خيلهم وعددهم وسلاحهم، وكيف يولي على كل مائة رجل منهم رجلًا من أهل خاصته وثقاته ونصائحه «له صيت في الرياسة، وقدم في السابقة، وأولية في المتابعة، ويتعهدهم ودوابهم وسلاحهم ليكونوا كرجل واحد في التشمير وسرعة الإجابة عند الطلب». وقال له أن يوكل بخزائنه ودواوينه رجلًا ناصحًا أمينا، ويجعل معه خيلًا يكون مسيرها ومنزلها ومرحلها مع خزانته وحولها، ويكون عامة الجند والجيش متنحين عنها لئلا تحدث فزعة، فينتهب الجند أنفسهم الخزانة.

وبعد أن نحا هذا المنحى ختم هذه الرسالة العذراء مُزَيِّنًا للقائد أن يعمد إلى الخيل أولًا لا إلى القتال، وأن يدس إلى عدوه، ويكاتب رؤساءهم وقادتهم، ويعدهم ويمنيهم، ويقطع أعناقهم بالمطامع. وقال له: ولا عليك أن تطرح إلى بعضهم كتبًا كأنها جواب كتب لهم إليك، وتكتب على ألسنتهم كتبًا إليك تدفعها إليهم، وتحمل بها صاحبهم عليهم، وتنزلهم عنده بمنزلة التهمة ومحل الظنة، فلعل مكيدتك في ذلك أن يكون فيها افتراق كلمتهم. وأتم الرسالة بما يجب عليه وعلى جيشه من ذكر الله عند المصاولة، وأن لا يظهر الجند تكبيرًا إلا في الكرات والحملات؛ أما وهم وقوف فإن ذلك من الفشل والجبن، وأن يكون في معسكره المكبرون في الليل والنهار قبل المواقعة يحضون الناس على القتال، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم، ويذكرونهم الجنة ودرجاتها، ونعيم أهلها وسكانها.

وكتب هذا الكتاب سنة تسع وعشرين ومائة قبل زوال ملك بني أمية من الشرق بثلاث سنين. وقد عرفنا به أمورًا كثيرة من شئون تلك الأيام، ونمط حروبها

وغاراتها، والأخلاق الغالبة على أهلها، ما لا تعرف بعضه بالرجوع إلى الكتب المطولة، والأحاديث المنشرة؛ ودل بها عبد الحميد أنه رجل الدولة الأموية، ممن قد ينبغ مثلهم أواخر الدول، فيكونون لها سراجًا وهاجًا، وتطفأ شعلتهم بانطفاء شعلتها.

وعرفنا بهذا القليل من الصفحات من كلام إمام المنشئين نفسيته وعقله، بما لا تنهض بتعريفه التراجم المطولة التي يكتبها أصحابها، فيمن لم يعرفوهم ولم يعاشروهم، فيترجمون لهم كما يترجمون لغيرهم. وبعض التراجم إذا أزلت منها جملًا معينة تليق أن تلبس على جسم أكثر الناس وروحهم، وترجمة المرء من كلامه أفعل أثرًا وأصدق قيلًا.

والرسالة الثانية لعبد الحميد هي رسالته إلى الكُتّاب، وقد تعد من مطولاته، قال الجهشياري: وجدت بخط ميمون بن هارون لعبد الحميد كتابًا إلى الكتاب أطال فيه، إلا أنه أجاد فلم أستجز إسقاط بعضه، وكتبته جميعه على طوله لأن الكاتب لا يستغني عن مثله وهو:

«أما بعد؛ حفظكم الله يا أهل هذه الصناعة، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم، فإن الله جل وعز جعل الناس من بعد الأنبياء والمرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- وسن بعد الملوك المكرمين سُوَقًا[1]، وصرَّفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم، فجعلكم معشر الكتاب في أشرفها صناعةً: أهل الأدب والمروءة والحلم والرّوية، وذوي الأخطار والهمم، وسعة الذَّرع في الإنضال والصلة، بكم ينتظم الملك، وتستقيم للملوك أمورهم، وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم، ويجتمع فيئهم، وتعمر بلادهم؛ يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه، والوالي في القدر

(١) السوقة: خلاف المَلِك.

السنيّ والدنيّ من ولايته، لا يستغني عنكم منهم أحد، ولا يوجد كافٍ إلا منكم، فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون؛ أنتم إذا آلت الأمور إلى موئلها، وصارت إلى محاصلها، ثقاتهم دون أهليهم وأولادهم وقراباتهم ونصائحهم، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم، ولا نزع عنكم سربال النعمة عليكم.

وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى استخراج خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكُتَّاب، إن كنتم على ما سبق به الكتاب من صفتكم، فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره، إلى أن يكون حليمًا في موضع الحلم، فقيهًا في موضع الحلم، مقدامًا في موضع الإقدام، ومحجمًا في موضع الإحجام، لينًا في موضع اللين، شديدًا في موضع الشدة، مؤثرًا للعفاف والعدل والإنصاف، كتومًا للأسرار، وفيًّا عند الشدائد، عالمًا بما يأتي وما يذر، ويضع الأمور في مواضعها، قد نظر في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه، فإن لم يحكمه شدا[1] منه شدوًا يكتفي به، يكاد يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه، وفضل تجربته، ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره، فيعد لكل أمر عدته، ويهيئ لكل أمر أُهبته؛ فنافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والأدب، وتفقهوا في الدين، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية، فإنها تِثقف ألسنتكم، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم، ولا يضعفن نظركم في الحساب، فإنه قوام كتَّاب الخراج منكم، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها، ومساوي الأمور ومحاقرها، فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتّاب؛ ونزهوا صناعتكم،

(١) شدا من العلم والأدب: أخذ طرفًا منها.

واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة، وما فيه أهل الدناءة والجهالة، وإياكم والكبر والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة بغير إحنة، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم، وتواصلوا عليها، فإنها شيم أهل الفضل والنبل من سلفكم.

وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه، وواسوه حتي ترجع إليه حاله، وإن أقعد الكبَرُ أحدكم عن مكسبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه، واستظهروا بفضل رأيه وتجربته، وقديم معرفته؛ وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه، أحدب وأحوط منه على أخيه وولده، فإن عرضت في العمل محمدة فليضفها إلى صاحبه، وإن عرضت مذمة فليحملها من دونه، وليحذر السقطة والزلة، والملال عند تغير الحال، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى المرأة، وهو لكم أشد منه لها، فقد علمتم أن الرجل منكم قد يصف الرجل إذا صحبه في بدء أمره من وفائه وشكره، واحتماله وصبره ونصيحته، وكتمان سره وعفافه وتدبيره، بما هو حريّ أن يحققه بفعاله، في غير حين الحاجة إلى ذلك منه، فابذلوا -وفقكم الله- ذلك من أنفسكم في حال الرخاء والشدة، والحرمان والمواساة، والإحسان والإساءة، والغضب والرضا، والسراء والضراء، فنعمت السمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة، فإذا وَلِي الرجل منكم، وصُيِّر إليه من أمور خلق الله وعباده أمرٌ، فليراقب الله -تعالى ذكره- وليؤثر طاعته فيه، وليكن على الضعيف رفيقًا، وللمظلوم منصفًا، فإن الخلق عباد الله، وأحبهم إليه أرفقهم بعباده، ثم ليكن بالحق حاكمًا، وللأشراف مكرمًا ومداريًا، وللفيء موفرًا، وللبلاد عامرًا، وللرعية متألفًا، وليكن في مجلسه متواضعًا حليمًا لينًا، وفي استجلاب خراجه واستقصاء حقوقه رفيقًا.

وإذا صحب أحدكم الرجل فليستشف خلائقه، كما يستشف الثوب يشتريه لنفسه، فإذا عرف حسنها وقبيحها، أعانه على ما يوافقه من الحسن، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح، بألطف حيلة، وأحسن مداراة ورفق، فقد عرفتم أن سائس البهيمة إذا كان حاذقًا بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحًا اتقاها من رجلها، وإن كانت جموحًا لم يهجها إذا ركبها، وإذا كانت شموسًا توقاها من ناحية يدها، وإن خاف منها عِضاضًا توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حرونًا لم يلاحِها[1] وتتبع هواها في طريقها، وإن استمرت عطفها فيسلس لها قيادها. ومن هذا الوصف من سائس البهيمة، ورفق سياسته، دليل وأدب لمن ساس الناس وعاملهم، وخدمهم وصحبهم.

والكاتب بفضل رأيه، وشرف صناعته، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره ويناظره، ويفهم عنه ويخاف سطوته، أولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم أوده، من سائس البهيمة التي لا تحير جوابًا، ولا تعرف خطأ ولا صوابًا، إلا بقدر ما يصيرها إليه سائسها، وصاحبها الراكب لها؛ فأدقّوا -يرحمكم الله- النظر، وأعملوا فيه الروية والفكر، تأمنوا ممن صحبتموه -بإذن الله- النَّبْوَة، والاستثقال والجفوة، ويصيروا منكم إلى الموافقة، وتصيروا منهم إلى المواساة والشفقة إن شاء الله.

ولا يُجوزنَّ الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه، ومطعمه ومشربه، وبنائه وخدمه، وغير ذلك من فنون أمره -قدر صناعته؛ فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صناعتكم خدم لا تحتملون في خدمتكم على التقصير، وخزان وحفظة لا يُحتمل منكم التضييع والتبذير؛ واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما عددت عليكم، فنعم العون عونكم على صيانة دينكم، وحفظ أمانتكم، وصلاح معاشكم؛

(١) لاحيته ملاحاة ولحاء: إذا نازعته.

واحذروا متالف السرف، وسوء عاقبة الترف، فإنهما يعقبان الفقر، ويذلان الرقاب، ويفضحان أهلها، ولا سيما الكُتَّاب.

وللأمور أشباه، وبعضها دليل على بعض؛ فاستدلوا في مؤتنف أعمالكم، بما سبقت إليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة، وأرجحها حجة، وأحمدها عاقبة. واعلموا أن للتدبير آفة وضدًّا[1] لا يجتمعان في أحد أبدًا، وهو الوصف الشاغل لصاحبه على إنفاذ عمله ورويته؛ فليقصد الرجل منكم في مجلس تدبيره، قصد الكافي في منطقه، وليقصد في كلامه، وليوجز في ابتدائه، وليأخذ بمجامع حججه حجته، فإن ذلك مصلحة لعقله، ومجمة لذهنه، ومدفعة للتشاغل من إكثاره، وإن لم يكن الإكثار عادة، ثم وضع موضعه في ابتداء كتاب أو جواب عند الحاجة فلا بأس، ولا يدعون الرجلَ منكم صنعُ الله -تعالى ذكره- له في أمره، وتأييده إياه بتوقيفه، إلى العجب المضر بدينه وعقله وأدبه، فإنه إن ظن منكم ظان، أو قال قائل، إن ذلك الصنع لفضل حيلته، وأصالة رأيه، وحسن تدبيره، كان معترضًا لأن يكله الله إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف. ولا يقل أحد منكم إنه آدب وأعقل، وأحمل لعبء التدبير والعمل من أخيه في صناعته، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب، القائل: إن صاحبه أعقل منه، وأحمقهما الذي يرى أنه أعقل من صاحبه، لعجب هذا بنفسه، ونبذ ذلك العجب وراء ظهره، إذ كان الآفة العظمى من آفات عقله؛ ولكن قد يلزم الرجل أن يعرف فضل نعمة الله عليه، من غير عجب برأيه، ولا تزكية لنفسه، ولا تكاثر على أخيه وكفئه، ويشكر الله ويحمده بالتواضع لعظمته.

(١) كذا وفي رواية: (واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل) إلخ.

وأنا أقول في آخر كتابي هذا ما سبق به المثل: (من يلزم الصحة يلزمه العمل)، وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه، بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل، فلذلك جعلته آخره وختمته به؛ تولانا الله وإياكم معشر الكتاب بما يتولى به من سبق علمه في سعادته وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده، والسلام عليكم ورحمة الله».

وبهذا الكتاب أيضًا عرفنا منازع عبد الحميد وأدبه؛ وأنه يريد أن يجعل من الكتابة صناعة شريفة تفيد الناس، وتفيد الآخرين أنفسهم بأدبها، وأن الكتابة تحتاج إلى أدوات كثيرة، ذكرها مفصلة؛ ولا بد بعد الاضطلاع بأعباء ما يلزم لها من العلوم أن يلم الكاتب بكل موضوع ولو إلمامًا خفيفًا؛ ومن أحلى ما في رسالته أن يسترشد الصغار منهم بالكبار الذين سبقوهم في هذه الصناعة، ويتعهدوهم ويعملوا بمشورتهم. فلا عجب بعد هذا أن كانت لعبد الحميد من كتابته مدرسة خاصة، ما زال الناس يأخذون منها في العصور التي تلته، وقلما حادوا عنها لأنها مقبولة صدرت عن عقل عظيم نجذته التجارب، وأيده العلم والأدب.

نعم ألبس عبد الحميد في الثلث الأول من القرن الثاني هذا الإنشاء العربي حلة جديدة، فيها المتانة وفيها الرشاقة، وأكثر ما بدا في تضاعيفها الإطالة في غير ما إملال من سجع وترصيع، إنشاء يسير مع الطبع، ومع الطباع التي توائم أهل الحضارة، ممن يفصلون ويتوسعون، ويعيدون ويبدون، ومقاصدهم تحوم حول التأثير في أذهان السامعين والقارئين، وبلوغ الغاية من تأليف الدول وانتظام الجماعة؛ ولم تكن هذه الطريقة في الكتابة -فيما بلغنا- مألوفة في عامة دور الأمويين، لأن هؤلاء عرب أقحاح، وكتَّابهم على شاكلتهم، يحاولون بالإيجاز في مكتوباتهم، أن يتركوا للقارئ شيئًا من المعاني يفسرها بما يريد ويمتعوه بشيء من الحرية، ينطلق فيها على ما يرى فيه المصلحة، فيكون لديه المختصرات، والتفاصيل من المطولات تفهم بذاتها.

اقتبس عبد الحميد هذه الطريقة من الأمم المجاورة وخاصة الفرس، ممن لم تكن حضارتهم حضارة ابتدائية كالعرب، بل فيها المطول المسهب، والمتشعب المتعب. ولقد احتاج العرب بعد توسعهم في الملك إلى تقرير المسائل على جليتها لا يعتورها لبس ولا إشكال، ومن مواجب الحضارة الإسهاب، ومن دواعي البداوة الاقتضاب؛ فعبد الحميد إذًا تشبع بروح الدولة وروح حضارتها التي بلغت في أيامه أعلى قممها، ورسم ببراعته صورة ما أحاط به واقتضاه الحال؛ ولو حاول -وقد بلغت الأمة ما بلغته من درجات التقدم في كل شأن من شئون المجتمع- أن يعود بالكتابة إلى إيجازها القديم، لما أفاد جديدًا، ولما رجع ذاك الصدى في سلطان دولته، ولما وصف محيطه حق وصفه. ومن الصعب أن يتعدى المرء حدود البيئة، ولا عليه فيما أتاه ما دامت حال الدولة تتطلب التوسع في الخُطا إلى الأمام، وأن تجدد أوضاعها على ما توجبه الحال، وطبيعة الملك والحضارة، على أن لا يهدم في عمله أصلًا من الأصول القديمة؛ وفي هذا كان جماع المكانة التي بلغها عبد الحميد بإنشائه، فهو مخترع طريقة، وكاتب وصاف على الحقيقة، استجمع شروط البلاغة، فعد أمير المنشئين غيرَ مدافَع، واستطاب الناس إلى يومنا هذا أسلوبه المعجب المطرب، وأين من يشاكله فيه، أو تسمو قريحته إلى مستواه في فنون الكتابة، وحسن التصرف على ما يشاء؟



عبد الله بن المقفع

عصره:

كان عصر ابن المقفع غريبة العصور، وقعت في أعوام معدودة منه أحداث خطيرة، ندر وقوع مثلها في عصور التاريخ. كانت فيه الخلافة الأموية في أعز أيامها، وليس في الأرض دولة إسلامية غيرها، فتداعت أركانها في شهور قليلة، على رسوخ قواعدها، وانبساط عمرانها، وما استطاع آخر خلفائها مروان بن محمد على بعد غوره وجلالة قدره أن يدفع عن دولته ما كنت الليالي تتمخض به.

فتم لبني هاشم ما سعوا إليه منذ سنين للاستيلاء على بلاد الإسلام، ونجحت جمعياتهم السرية بعد أن أخفقوا في طلب الملك مرات. وقضى بنو هاشم على بني أمية، وقد أبادوا في الوصول إلى أغراضهم مئات الألوف من الخلق، وأهلكوا حتى أبناء المهاجرين والأنصار، وحتى القراء والعلماء، وأخذوا الناس بالشبهة، وما فرقوا بين المجرم والبريء، ولم يرعوا في الصديق والعدو إلًّا ولا ذمة.

سفح السفاح أول خلفائهم الدماء، وظهر الانتقام من الأمويين بأخس صوره في شخصه وشخص إخوته وقواده، نزعوا الرحمة من قلوبهم، وما أخذتهم شفقة بإخوانهم في الدين والجنس، ونسوا كل فضل بينهم، وما أهمهم غير قيام أمرهم، حتى اغتبطوا بإقامة دولة فارسية بروحها، عربية بمظاهرها، وقلبوا ظهر المجن لأبناء عمهم من أبناء علي، وكانوا وإياهم يعملون للوصول إلى الخلافة سنين طويلة في العصر الأموي.

وبينا كان العباسيون يَنْعَمون بما تم لهم من الغلبة، كان أملهم يضعف في احتفاظ دولتهم ببلاد الأندلس وما إليها من أقصى المملكة، لأن صقر قريش عبد الرحمن بن هشام الأموي استصفى الأندلس بمن ضوى إليه من آل بيته، وبقايا السيوف وخدام دولتهم في الشرق؛ فأقام بهم في المغرب دولة قوية يرهب بأسها وسلطانها، وقطع الخطبة العباسية، وأباد جيشًا برمته بعث به العباسيون لمناجزته.

أسقط العباسيون قيادات العرب، فنشأت الشعوبية؛ أي التفرقة بين العرب والعجم، فنقض أول حجر من أساس بناء الدولة، ولما ترسخ قواعدها، قضى العباسيون بأيديهم على سلطانهم مذ أقاموا ملكهم بالجور والجبرية، واستسلموا لأبناء خراسان، ونظروا بعين الريبة إلى أبناء قحطان وعدنان.

أمعن عمال العباسيين في إرهاق الرعية على ما لم يجوّزه دين ساوى بين الصغير والكبير، وعلى ما لم يجر مثله في الدولة السالفة، وأصبحت الأموال تجبى بأنواع من الظلم، وتصرف في ضروب من الإسراف، وفشا الترف حتى تجاوز كثيرًا مدى ما بلغته الرفاهية في عهد بني مروان، وكأن دولة بني العباس قامت لتفقر الضعفاء وتغني الأقوياء من السادة والقادة، كفعل الدول الجبارة في قديم الدهر وحديثه. ثم إن الأخلاق تبدلت تبعًا لتبدلها في الطبقات العليا، ولم يبق للدين تلك الروعة التي كانت له في عهد الراشدين والأمويين، فاستحالت بعض معانيه السامية من النفوس، وإن لم تتبدل مظاهره وأوضاعه.

وبدأ في هذا العصر نقل الكتب العلمية من لغات الفرس واليونان والسريان والهند؛ وكان تَقَدَّم بعض رجال بني أمية فشرعوا بهذه الحركة المباركة، وأخذ الخلفاء والأمراء يُفْضِلون على من تصدوا لنقل علوم القدماء، وحاول بعض من دخلوا في الإسلام يحملون أرواح أديانهم ومقالاتهم القديمة، إلقاء الشبَه في الدين؛ فقام رجال

كفاة يردون عليهم من طريق العقل، ويدافعون عن العقيدة في ذات الله وصفاته، ليدفعوا عن الإسلام شبه المانوية والديصانية والنصارى واليهود والملاحدة، وكان الناس منذ عهد التابعين يعالجون موضوعات دينية ما تخيلوا الخوض فيها من قبل، والمسلمون كانوا أولًا إلى الاكتفاء بالنقل والتسليم في العقائد، فأصبحوا يحتالون للاحتجاج على صحتها بأدلة عقلية، ونظر جديد، ووقع من حاولوا ذلك من العلماء بين نارين: نار شَبَّها عليهم أبناء دينهم ممن لم يرتضوا طريقتهم، وأخرى أوقدها من كان يراد إرجاعهم إلى الصواب، وأبو جعفر المنصور يحيط برعايته علماء الكلام، وكان من المقدمين فيهم.

وأخذت مذاهب الفرق الإسلامية كالشيعة والخوارج تتعين، وأصبح لكل فريق مذهب على حياله، وكانت مذاهبهم سياسية فغدت سياسية ودينية معًا، وأخذوا فعل أهل السنة، يسعون إلى تدوين مذاهبهم، وما خالفوا فيه الجماعة، واشتد الأخذ والرد بين أهل الحديث وأهل الرأي[1] اشتداده بين علماء النقل وعلماء العقل، وما كانت المذاهب المعتمدة هي المعوّل عليها وحدها في القضاء، بل يجتهد كل عالم بما يعلم، ويقضي بالكتاب والسنة والإجماع؛ ومنهم من يضيف إلى ذلك القياس والعرف. وتمت للموالي الذين أسلموا على أيدي رجال من العرب وغيرهم من أبناء الروم وفارس ومصر وإفريقية مشاركة قوية في هذه النهضة الدينية، على ما كان للنساطرة واليعاقبة والصابئة وغيرهم من أياد بيض في نقل علوم الطب والفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها، وظهر التصوف بظهور أناس من النساك في خراسان والعراق، على مثال زهاد الهنود وغيرهم.

---

(١) أصحاب الرأي: هم أصحاب القياس لأنهم يقولون برأيهم فيما لم يجدوا فيه حديثًا أو أثرًا.

وسرى الفساد إلى اللغة وعَلقَتْ العجمة تذهب ببهجتها، واحتفظت البادية حتى آخر المائة الأولى بجمال لهجتها، فلا تكاد تعرف لها لحنًا، وعرض الفساد خاصة لألسن البلديين والمولدين، بمن نزل عليهم من صنوف الحمراء أو الأعاجم، يدخلون في دين الأمة، ويختلطون بالعرب؛ فهب العلماء يتلقون اللغة من ألسن أبنائها الأقحاح في جزيرة العرب، فدونوا ما أمكنهم تدوينه من ألفاظها وتراكيبها، ومن شعرها وأثرها؛ وأصبح الشعر الجاهلي خادمًا للكتاب والسنة، وتم وضع علم النحو والعروض وكثر التدوين.

كل هذا التبدل في الأوضاع والمنازع شاهده نابغة العجم في الإسلام عبد الله بن المقفع، ومرت ذكراه على خاطره، ونظر في مرآته بعينه؛ ومن هذه الأحداث ما كان يوم حدوثه حدثًا فتيًّا، ومنه ما شاهده في إبانه، وهو رجل تام الرجولية، يعرف المصدر والمورد، ويقيس الماضي بالحاضر، ويسعى لتقوى الحكومة الصالحة في شعب صالح، موحد المقاصد في شرعه ومدنيته، آخذًا في طريق سعادته حرًّا أبيًّا، ومسلمًا حنيفًا.

أصله ونشأته:

كان المبارك والد عبد الله بن المقفع من مجوس مدينة جُور في بلاد فارس، تولى بعض أعمال الخراج للحجاج بن يوسف الثقفي أيام إمارته على العراق وبلاد الشرق، فمد يده فيما قيل إلى أموال السلطان، فضربه الحجاج ضربًا مبرحًا حتى تقفعت يده؛ أي: تشنجت، فسُمِّي بالمقفع، وولد عبد الله، وكان اسمه أولًا زُوربه ويكنى أبا عمرو، في مدينة جور على الأغلب، وهي بلدة نزهة من أجمل المدن وأعمرها، على عشرين فرسخًا من شيراز، وإليها ينسب الورد الجوري الأحمر.

وربما كان لأول ما فتحت عينه عليه من مناظر الطبيعة الخلابة، وهو في بيت يسار ونعمة، أعظم التأثير في غرامه بالحسن والإحسان، وربما تأثر لما رأى في صباه بيت النار العظيم في بلده، يدخله أهله وجيرانه للعبادة، وقد كتب عليه بالفهلوية: إنه أُنفق عليه ثلاثون ألف ألف درهم.

لم تُعلم سنة مولد ابن المقفع بالتحقيق، ويقول الجهشياري: إنه كتب لدواوين عمر بن هبيرة على كِرمان. وعمر بن هبيرة عزله هشام بن عبد الملك عن العراق والشرق سنة خمس ومائة، وقال: إنه كتب أيضًا للمسبّح بن الحُوَّاري في نيسابور في ولاية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، قُبيل زوال الدولة الأموية. ويحتمل بهذا أن يكون عبد الله بن المقفع ولد في عشر التسعين ظنًّا، ولا يُعقل أن يكتب لأحد قبل أن يتم له نحو خمس وعشرين سنة. وإذا قدرنا أن مقتل ابن المقفع كان سنة ثنتين وأربعين أو ثلاث وأربعين ومائة، فيكون عمره يوم قُتل في نحو الستين، خلافًا لمن قالوا: إنه قتل وهو ابن ست وثلاثين. وهذا التقدير منقوض بالبداهة، إذ لا يعقل أن يخلف ابن المقفع هذه الكنوز العظيمة من كتبه وكتاباته، وهو في مَيْعَة الشباب، وأن تُجمع النفوس على الاعتراف بتقدمه في صناعته، قبل أن تعلو به السن في الجملة، وأن تتهيأ له هذه التجارب العظيمة في الحياة وهو لم يتعد العقد الرابع.

وكما نحن في شك قليل من سنة مولد ابن المقفع، لا نعلم بالتحقيق أين تلقى تعليمه الأولي، في جور أم في البصرة. والأرجح أنه كان في جور، إذ من الصعب أن يثقف الثقافة الفارسية التي تثقفها في البصرة، وهي المدينة العربية بكل مناحيها، والأرجح أن والده توطن البصرة بعد أن أصبح ابنه عبد الله يافعًا، وأخذ الفصاحة عن أبي الجاموس ثور بن يزيد الأعرابي، وكان يفد البصرة على آل سليمان بن علي.

وحرص المبارك على تأديب ولده عبد الله، فكان يجمع له العلماء. ولنا أن نقول: إن البصرة كانت موطن درسه، ومدينة جور مسقط رأسه.

نشأ ابن المقفع بين ظهراني علماء أجلاء من المسلمين، وعرف الإسلام منذ عقل أكثر من معرفته دين المجوس أتباع زرداشت. وغاية ما كان له من صلة بهذا الدين، أنه رأى أهل بيته على دين المجوس، وهو مولود في بيت مجوسي، ودعته البيئة التي عاش فيها إلى أن يلقي نظرة على المجوسية التي انتقلت إليه بالإلف والعادة. ونظر في الإسلام الذي لقنه في الحداثة بالتربية والعشرة، ومازج أهله وسمع أعلام علمائه، فمالت نفسه إلى أن يدين به، فجاء إلى عيسى بن علي وكان كاتبه، وقال له: دخل الإسلام في قلبي وأُريد أن أُسلم على يدك، فقال له عيسى: ليكن ذلك غدًا بمحضر من القواد ووجوه الناس، ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم، فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم، على عادة المجوس. فقال له عيسى: أتزمزم وأنت على عزم الإسلام؟ فقال: أكره أن أبيت ليلة على غير دين.

دان ابن المقفع بالإسلام عن عقيدة وعلم، وغدا في الكهولة نابه الذكر، وما زاده إعلانه الإسلام إلا ما أوجب عليه القيام به من التكاليف. وما كان له مطمع دنيوي يتطلبه بإسلامه، وهو الرجل الذي لابسه المسلمون على مجوسيته، وعهد إليه أمراء الإسلام بشئون دواوينهم، وائتمنوه على أسرارهم وأُعجبوا به مجوسيًّا، فلما امتلّ ملة الإسلام زادوا به إعجابًا.

أدبه وأسلوبه:

كان تمكن ابن المقفع من الآداب الفارسية على مقدار ضلاعته من العزبية، جمع بين الأدبين، وفاق الأقران والنظراء بثقافته العربية إلى ما لم يكد يصل إليه أحد من

معاصريه. ساعده تمكنه من الفارسية على الرسوخ في العربية، وأتى لغة تربيته الحديثة بأساليب جديدة، وطرق في التفكير قلَّ أن عُرفت قبله.

يقول صاحب الصناعتين: «إن من عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها في لغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى، تهيأ له من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى. ألا ترى أن عبد الله الكاتب -ابن المقفع- استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي، فحولها إلى اللسان العربي، فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيح اللفظ، والمعرفة بوجوه الاستعمال». ولا شك أنه حفظ القرآن ودرس إعجازه وعرف محكمه ومتشابهه، وقرأ ما شاء من دواوين شعراء الجاهلية، وأدرك معانيهم وتدبر ألفاظهم. وقيل: إنه تخرج في البلاغة بخطب علي بن أبي طالب، وما نخال ذلك كافيًا في بلوغ الغرض لقلة المأثور من تلك الخطب يومئذ.

كان ابن المقفع من أول من ترجم في الملة الإسلامية من اللغة الفارسية إلى العربية، فنقل كتب أرسطو المنطقية الثلاثة، وهي كتاب قاطاغورياس، وكتاب باري أرمنياس، وكتاب أنالوطيقا؛ وترجم المدخل إلى كتاب المنطق المعروف بالإيساغوجي لفرفوريوس الصوري؛ وكتاب كليلة ودمنة، وترجم كتاب «خداينامه» في السير، وكتاب «آيين نامه»، وكتاب «مزدك»، وكتاب «التاج» في سيرة أنوشروان. ويقول المسعودي: إن كتاب «آيين نامه» أو عادات الفرس وأنظمتهم، هو كتاب كبير يبلغ آلافًا من الصفحات، وأنه ترجم أيضًا كتابًا اسمه كتاب «الكيكيين»، وهو من الكتب المعظمة عند الفرس، وفيه سير ملوكهم وآبائهم. ترجم كل هذا عن الفهلوية، لغة الفرس القديمة، وكان أصل بعضها نقل إليها من اليونانية والهندية.

ولم يبق من كل هذه الأسفار سوى كليلة ودمنة، مع ما ألفه من الأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة؛ واليتيمة كتابان على ما يقول الباقلاني، أحدهما يتضمن حكمًا منقولة، والآخر في شيء من الديانات. ويقول طيفور: إنها من الرسائل المفردات اللواتي لا نظير لها ولا أشباه، وهي أركان البلاغة، ومنها استقى البلغاء، لأنها نهاية في المختار من الكلام، وحسن التأليف والنظام، فإن الناس جميعًا مجمعون أنه لم يعبر أحد عن مثلها، ولا تقدمها من الكلام شيء قبلها. ويقول ابن النديم: إن اليتيمة وكليلة ودمنة من الكتب المجمع على جودتها.

واختلفوا في كون ابن المقفع نقل كليلة ودمنة عن الفارسية، والأرجح أنه كتبه مباشرة، وقد أقر في المقدمة أنه كتب بعض فصوله ونقل الباقي عن غيره؛ أتى ذلك لينجو من تبعه ما ورد فيها، ويسلم من نقمة الملوك إذا عدوا ما فيه تعريضًا باستبدادهم. ويقول الجاحظ: ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة، وقديمة وغير مولدة، إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولّدوا مثل تلك الرسائل، ويضعوا مثل تلك السير. فالجاحظ كان إذًا في ريب من نسبة هذه الكتب التي زعم أصحابها أنهم ترجموها عن الفارسية، لأن مثلهم في افتناتهم في البيان لا يتعذر عليهم وضع أشباهها.

وضُرب المثل في البلاغة برسالة اليتيمة في طاعة السلطان، حتى قال أبو تمام في مدح الحسن بن وهب:

ولقد شهدتك والكلام لآلئٌ تُوْمٌ[1] فبكر في الكلام وثيِّبُ
فكأن قُسًّا في عكاظ يخطب وكأن ليلى الأخيلية تندب

---

(١) تؤام النجوم واللؤلؤ: ما تشابك منها.

وكُثـير عـزة يـوم بـين ينـسب   وابـن المقفـع في اليتيمـة يـسهب

ذكروا أن ابن المقفع كان إذا أراد الشعر صنعه، بيد أنه لم يشغل به نفسه لانصرافه إلى النثر؛ والواقع أنه ما كان يستطيع من الشعر إلا ما لا يذكر مثله من مثله. وقال عن نفسه: «الذي أرضاه لا يجيئني، والذي يجيئني لا أرضاه» وقيل له: «لِمَ لا تطيل القصائد؟ قال: لو أطلتها عرف صاحبها». قال صاحب الصناعتين: يريد أن المُحْدَث يتشبه بالقديم في القليل من الكلام، فإذا طال اختل، فعرف أنه كلام مولد. وقد روى له أبو تمام في الحماسة ثلاثة أبيات يرثي بها يحيى بن زياد، وقيل: ابن أبي العوجاء، وهي:

رزئنـا أبـا عمـرو ولا حـيَّ مثلـه   فللـه ريـب الحادثـات بمـن وقـع
فـإن تـكُ قـد فارقتنـا وتركتنـا   ذوي خلـة مـا في انـسداد لهـا طمـع
لقـد جـرَّ نفعًـا فقـدنا لـك أننـا   أمِنّـا عـلى كـل الرزايـا مـن الجـزَع

لم يُدان ابن المقفع في الكتابة المرسلة مُدان، فهو فيها المفرد العلم؛ اللهم إلا بضعة من الرجال، ومنهم سهل بن هارون وعمرو بن مسعدة، أتى الدهر على ما أنشأته أقلامهم إلا قليلًا؛ وعلى ذلك أجمع العارفون من القدماء. ولقد سمع أبو العيناء بعض كلام ابن المقفع فقال: كلامه صريح، ولسانه فصيح، وطبعه صحيح، كأن بيانه لؤلؤ منثور، ووشي منشور، وروض ممطور. وذكر آخر فقال: ألفاظه معان، ومعانيه حكم.

وشهد له الجاحظ في البيان والتبيين بالبلاغة، ونقل عنه غير مرة. وقال الأصمعي: إنه قرأ آداب ابن المقفع فلم يرَ فيها لحنًا إلا في موضع واحد وهو قوله: العلم أكبر من أن يحاط بكله فخذوا البعض. أي أنه أدخل الألف واللام على البعض، وكان المتقدمون من أهل العلم ينكرون إدخالها على (كل) و(بعض).

ولا نطيل بنقل ما قاله أعيان البيان في بلاغة ابن المقفع، فإن كتابته تدل على نفسها، ولم يعرف لمتقدم ولا لمتأخر أن نقل إلى اللسان العربي شيئًا في الأدب والعلم، لا تحسُّ فيه أثر اللغة المنقول عنها إلا ابن المقفع. وكانت الترجمة غالبة عليه في أول حياته، فلما استوت أدواته أنشأ ينشئ رأسًا، فبذَّ البلغاء في الناحيتين: في الترجمة والتأليف. واختار أن يترجم لأول نشأته ما ينقص هذه اللغة التي أحبها، وكان ذلك السبب في خلوده، والإعجاب به في الطورين؛ كان يعتقد أن الحضارة العربية لا تتفوق إلا إذا أدمجت فيها ما عملت فيه عقول الأمم قبلها، ويرى أن الجديد صِنو القديم، يتكافآن ويتساندان.

سرُّ تأثير ابن المقفع في مختلف العصور سلامته وجزالته، نصح باتباع طريقته فيما قاله لأحد الكتاب: إياك والتتبع لوحشيِّ الكلام، طمعًا في نيل البلاغة، فإن ذلك هو العيُّ الأكبر. وقال لآخر: عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السِّفلة. وقال: البلاغة إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها. وقال: إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتمَّ لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنهما لا يرضيهما شيء، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله، وقد كان يقال: «رضاء الناس شيء لا ينال». وقال: إن خير الأدب ما حصل لك ثمره، وبان عليك أثره. وسئل: ما البلاغة؟ فقال: اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة: فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما كاد يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون خطبًا،

ومنها ما يكون رسائل، فعامة هذه الأبواب الوحي[١] فيها، والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة.

وبعد؛ فكأن ألفاظ ابن المقفع منخولة في منخل دقيق نُفي الزؤان مما يحمل، أما التراكيب فهي موضع العجب في رصف بعضها إلى جانب بعض على غاية الإحكام، ثم هو ليس في ألفاظه بالبخيل ولا بالمسرف، يعطي منها بمقدار ما يلبس معانيه حلة قشيبة، فيجمع بين الجزالة والوضوح والإيجاز. ومعانيه كلها ناصعة وألفاظه كلها فصيحة، على أن اللفظ مهما سلس وبعد عن الوحشية والسوقية لا يعذب إلا بضم أجزائه في سلك واحد، لتصح المعاني، وهي سر البلاغة والفصاحة والروعة، وهذا كان ظاهرًا في كلام ابن المقفع، هو يمشي من صفاء الطبع على عرق عريق، ويحاول أبدًا نقل فكره إلى من يتلو كلامه، واضحًا جليًّا، فكأنه يتوخى الإفهام أولًا، وبلاغته في كثرة إفهامه. وما كان يحفل بالسجع جملة، اللهم إلا ما أتى به بيانه عفوًا في بعض ثنايا الكلام، فكأن السجع -وهو نادر جدًّا في أدبه- متطفل على قلمه عارض عليه، والأصل في إنشائه المرسل الرشيق.

كان ابن المقفع كثيرًا ما يقف إذا كتب، فقيل له في ذلك فقال: إن الكلام يزدحم في صدري فأقف لتخيره. فهو يتخير كلامه ويتخير موضوعه أيضًا، وما خاض إلا فيما توسع في علمه، وما وقع له في رسائله، وفي كتاب كليلة ودمنة من الحكم والأفكار مما يتأدب به كل إنسان، ويصلح لكل زمان ومكان، وينفع أهل كل نحلة ولسان، وكله شاهد بسعة بصره في كلام العرب، وبطول تبصره في دراسة أحوال المجتمع، كان متبحرًا في أدب أمته، وكشف خوالج نفوسها، وكان مؤمنًا بما يقول،

(١) الوحي: الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك. وكل هذه المعاني تصلح هنا.

هاضمًا ما تعلم، يغترف بيانه من صميم القلب، فجادت لذلك طريقته، وأسر القلوب أسلوبه، وما خرج عن قانون الفطرة في كل ما خطه بنانه، وقذف به جنانه، ليس في كلامه مقال لعائب، ولا في إطنابه واقتضابه مطعن لطاعن، أثَّر بإبداعه في النفوس بما كتب، لأن الناس في حاجة إلى مثل كلامه، لا يستغنون عن الأخذ به، ولأنه أتاهم بما تدركه عقولهم من أيسر سبيل؛ والأمور تعظم في النفوس بقدر وقعها فيها، وشدة حاجتها إليها.

أثرت الثقافة الفارسية فيما كتب ابن المقفع أي تأثير، وقد أخذ منها ما لا تأباه السليقة العربية وأدمجه فيها؛ وربما كان حظه من التربية البيتية الأهلية أقل من حظه من الثقافة الفرعية، وفرعه على كل حال أعظم من أصله: فرعه اصطنعه بيده ورباه على أيدي عظماء، وأصله أورثته إياه بيئته وبيته؛ أتى من قديمه بالقدر الذي لا يمكن أن يتخلص منه من كان في مثل شأنه، وحمل إلى جديده أشياء فيها مسحة منقطعة القرين، وراعى في إبراز طريفه حالة من يكتب لهم، في زمن كانت البلاغة أقصى ما يتطالّ إليه الكاتب والمفكر والمصنف. وما كان لنقاد كلامه أن يحسِّنوه لو لم يجدوا فيه آثار إحسان، وكان من السهل عليهم أن يزيفوه لو بدا لهم فيه مغمز.

والغالب أن الناحية الضعيفة في ابن المقفع كانت في تخلفه في علم الكلام؛ أي: التوحيد، قال الجاحظ فيه: إنه كان يتعطاه ولا يحسن منه قليلًا ولا كثيرًا، واعترف له مع ذلك بأنه كان ضابطًا لحكايات المقالات، قال: «ولا يعرف من أين غُرَّ المغتر، ولا وثق الواثق، وإذا أردت أن تعتبر ذلك إن كنت من خُلَّص المتكلمين ومن النظارين، فاعتبر ذلك بأن تنظر في آخر رسالته الهاشمية، فإنك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم، رديء المدخل في مواطن الطعن عليهم، وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم فيظن بنفسه عند ذلك، أنه لا يحمل عقله على شيء إلا بَعُدَ به».

وليس من المستغرب ألا يجيد ابن المقفع علم الكلام، ولكن المستغرب أن يحمل الجاحظ عليه وعلى الخليل بن أحمد صاحب العروض، ويرمي هذا بالجهل بهذا العلم، بعبارة جارحة، وقال فيه كما قال في ابن المقفع: «إنه من أجل إحسانه في النحو والعروض وضع كتابًا في الإيقاع وتراكيب الأصوات، وهو لم يعالج وترًا قط، ولا مسّ بيده قضيبًا قط، ولا كثرت مشاهدته للمغنين؛ وكتب كتابًا في الكلام، ولو جهد كل بليغ في الأرض أن يتعمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ذلك، ولو أن ممرورًا استفرغ قوى مِرَّته في الهذيان لما تهيأ له مثل ذلك، ولا يتأتى ذلك لأحد إلا بخذلان من الله تعالى».

ونُقل عن أبي بكر الأصم، وهو من المعتزلة أيضًا، أنه ذكر ابن المقفع فقال: ما رأيت شيئًا إلا وقليله أخف من كثيره إلا العلم، فإنه كلما كثر خف محمله، ولقد رأيت عبد الله بن المقفع هذا في غزارة علمه وكثرة روايته، كما قال عز وجل: {كمثل الحمار يحمل أسفارا}؛ قد أوهنه علمه، وأذهله حلمه، وأعمته حكمته، وحيرته بصيرته. ورأينا نحن بما قال خصوم ابن المقفع أنهم مع دعواهم عليه الجهل في علم الكلام، يعترفون له بغزارة العلم وكثرة الرواية، وأنه يحسن ضبط حكاية المقالات، ويجيد الحكاية لدعوى أهلها؛ وتسفيههم لرأيه لا يقدح فيه كثيرًا، إلا لأنه عانى علمًا لا يحسنه. قال محمد بن سلام: سمعت مشايخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع.

وإذا سلمنا مع الجاحظ أن ابن المقفع لم يكن حجة في الكلام، فقد رأيناه يشهد له بالفضل، ويقول: إنه كان مقدمًا في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير؛ أي أنه كان كاتبًا خطيبًا مترجمًا واسع الخيال يخترع ويبتدع؛ وعدّه من

المعلمين ثم من البلغاء المتأدبين؛ نظمه في سلك المعلمين لأنه سبق له أن أدَّب أحد أولاد الأمراء من بني إسماعيل بن علي.

تُرى؛ ونحن يعنينا من ابن المقفع بلاغته؛ هل نقل حِكَمه عن غيره، أو كان أبا عذرتها، ومفترع طريقتها؟ والأرجح أنه نقل، ولكن بأسلوبه المعجب المطرب، نقل ما ألبسه ثوبًا جميلًا من حَوْكه. وقد يقل الإبداع في الأفكار، وهي تأخذ من نفسك بما أُلْبِست من حلة شائقة يتعذر على كل أحد محاكاتها، كالطعام الجيد تتألف مواده من أشياء يعرفها الناس، وقلَّ أن يحسن تحضيرها إلا طاهٍ رفيق يركّب فيها كل شيء على مقادير معلومة، فتأتي طيبة في المذاق.

أعظم ابن المقفع حكمة القدماء، وذهب إلى أنهم سبقوا إلى كل فضل، وأن الواجب الأخذ عنهم، وأن من بعدهم لم يبتدعوا أصولًا جديدة؛ وهاك رأيه الصريح غير مُجمجم فيه ولا مُتعتع، قال: «فمنتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم، وغاية إحسان محسننا أن يقتدي بسيرتهم، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتبهم، فيكون كأنه إياهم يحاور، ومنهم يستمع؛ غير أن الذي نجد في كتبهم هو المنتخل من آرائهم، والمنتقى من أحاديثهم، ولم نجدهم غادروا شيئًا يجد واصف بليغ في صفة له مقالًا لم يسبقوه إليه، لا في تعظيم الله عز وجل وترغيب فيما عنده، ولا في تصغير للدنيا وتزهيد فيها، ولا في تحرير صنوف العلم، وتقسيم أقسامها وتجزئة أجزائها، وتوضيح سبلها، وتبيين مآخذها؛ ولا في وجوه الأدب، وضروب الأخلاق؛ فلم يبق في جليل من الأمر لقائل بعدهم مقال، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار المفطن، مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم؛ ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس».

وقوله: إن القدماء لم يغادروا شيئًا لا في تعظيم الله عز وجل وترغيب فيما عنده، ولا في تصغير للدنيا وتزهيد فيها... إلخ، قول فيه نظر؛ ولعله مما قاله قبل إسلامه، ولا يعقل أن تحوي كتب زرادشت وغيرها من الكتب أمورًا في تعظيم الخالق وتصغير قدر الدنيا أكثر من القرآن، فهو المنسوج كما قال ابن رُبَّن «بالتوحيد والتهاليل والتحاميد والسنن والشرائع والخبر والأثر والوعد والوعيد والرغبة والرهبة والنبوات والبشارات بالأمور الجملية التي تليق بجلال الله وحكمته وطَوْله، وبسط الأمل في الغفران والرأفة وقبول التوبة والمعاني التي ترتاح إليها النفس وتستريح إليها الآمال... ولذلك استحق أن يقال: إن هذا في الكتاب آية من آيات النبوة إذ لم يكن له نظير مذ خُلق الخلق؛ وخُطَّ في الرّق».

إن دعوى ابن المقفع أنه أخذ من الماضين حكمتهم، وأنهم لم يتركوا بعدهم مقالًا لقائل، لا يمنع إذا تدبرنا كلامه أن نجد له كثيرًا من الآراء المبتكرة المبتدعة، استفادها من المجتمع الذي عاش فيه، وثقفها من الحوادث التي مرت به، وأوحاها إليه ما عاناه من أبناء دهره، وشهده من صعاليكه وملوكه؛ كان عصره كتابًا مفتوحًا، اقتبس منه كل ما فيه حكمة تنجع في تقويم معوج الأخلاق، وسنَّ سنة الفضائل؛ وعلمنا منه أنه كان من المحافظين يحتفظ بتراث الأجداد، ولا يسير إلى التجدد إلا بقدر معلوم.

أما رأي ابن المقفع في العرب، فهو لا يقل عن رأي أعظم المتعصبين لهم من أبنائهم كالجاحظ. روى أبو العيناء الهاشمي عن القَحْذَمِي عن شبيب بن شيبة قال: كنا وقوفًا بالمِرْبد، وكان المربد مألف الأشراف، إذ أقبل ابن المقفع، فبششنا به وبدأناه بالسلام، فرد علينا السلام، ثم قال: لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل، وسورها المديد، ونسيمها العجيب، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض، وأرحتم دوابكم من جهد

الثقل، فإن الذي تطلبونه لم تُفلتوه، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه، فقبلنا وملنا؛ فلما استقر بنا المكان قال لنا: أي الأمم أعقل؟ فنظر بعضنا إلى بعض، فقلنا لعله أراد أصله من فارس، فقلنا: فارس! فقال: ليسوا بذاك، إنهم ملكوا كثيرًا من الأرض، ووجدوا عظيمًا من الملك، وغلبوا على كثير من الخلق، ولبث فيهم عَقد الأمر، فما استنبطوا شيئًا بعقولهم، ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم. قلنا: فالروم. قال: أصحاب صنعة. قلنا: فالصين. قال: أصحاب طُرفة. قلنا: الهند. قال: أصحاب فلسفة. قلنا: السودان. قال: شر خلق الله. قلنا: الترك. قال: كلاب مختلسة. قلنا: الخزر. قال: بقر سائمة. قلنا: فقل. قال: العرب. قال: فضحكنا. فقال: أما إني ما أردت موافقتكم، ولكن إذا فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة؛ إن العرب حكمت على غير مثال مُثّل لها، وآثار أثرت: أصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وأدم، يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجة، ويحسِّن ما شاء فيَحْسُن، ويقبح ما شاء فيقبح، أدبتهم أنفسهم، ورفعتهم هممهم، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم؛ فلم يزل حباء الله فيهم، وحباؤهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذكر، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر، على الخير فيهم ولهم. فقال: {إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين}، فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان. اهـ.

إنا إذا حكمنا بالقليل الباقي من رسائل ابن المقفع وكتبه، وهي كافية في إنارة وجوه الحكم عليه؛ نجزم بأنه فيما يكتب يتروّى لا يتسرع ولا يبتده، وقد يرتجل وينشئ أفكاره وأفكار غيره إنشاءً، يصبها نُقرة واحدة في قالب واحد، ثم هو في ذاته بعيد عن تزكية النفس، لا يفاخر ولا يتمجد، ولا يناقش خصمًا، يقول ما يعلم، لا

يأبه لغير ذلك؛ ولقد تجلى النبل والعظمة في قوله وفعله، وأن الحق طَلِبَته، لا يبالي عذل عاذل، ولا صولة متطاول، لا يصانع من يصانعه، ولا يماري من ماراه، يتلطف في الأداء، ويربأ بنفسه عن مماحكات المماحكين، ومناقشات المجادلين، هو جد عارف بأن للعلم سياسة، كما للناس سياسة، وأن للأدب حدودًا لا يصح لمن يكتب فيها تعديها، وهواه محصور في أن يحمل للأمة ما ينفعها، وتُجمِع على استحسانه، وإن تخالفت مشاربها، ولسان حاله هذا ما جهدت فيه فعرفته وصنفته، وأنتم أيها الناس خذوا منه أودعوه، فإن له أقوامًا يفهمونه ويعونه، أنتم إن لم تريدوه، فالذين كتب لهم راغبون فيه دونكم.

وسواء كانت رسائل ابن المقفع وكتبه مما نقله عن غيره، أو ابتدعه من عند نفسه، فالظاهر أنه ما توخى إلا ما نقل ما عرفه عن الأمم الأخرى، ولم يحفل بما دوَّنه العرب من أخبارهم وحكمهم، ذلك لأن لهذا رجالًا لم يقصروا في هذه السبيل، وإنما أراد، وهو الفارسي النَّابه، أن ينقل للعرب ما عند فارس والهند والروم من العلوم والحكم، فأتى ببضاعة جديدة إلى الأسواق العربية، وافقت هوى أرباب الذوق وعشاق الطرائف؛ فاقتناها مَن اقتناها، وانتفع بها مَن انتفع. فطريقته إذًا في العربية جديدة زاد بها ثروة الآداب، ووسع دائرة التفكير، في أمة تلقفت بأساليبها ما عند غيرها. فكان له المنّة على الأدب من وجهين: الإتيان بجديد رائع، وابتداع هذا الأسلوب الفتان.

نقل شيئًا في الفلسفة والعلوم القديمة، وفي الأدب والحكم وسير الملوك وتدبير الممالك، وترجم ما ينفع العرب، وزهد كغيره من التراجمة في نقل آداب الأمم الأخرى، فلم يترجم الإلياذة مثلًا لأنها لا تتفق وأذواق العرب؛ وهم أمة تتناغى

ببلاغتها، وتبعد عن الخيال، وتبالغ في المحسوسات. فكان عمله ملائمًا لروح الأمة التي أنشأته، وعلى ذلك جرى النقلة بعده.

يتراءى لك وأنت تمعن النظر في تقاييد[١] ابن المقفع أنك ماثل أمامه يفيض عليك من حكمته على طريقته. والكلام كما قال العسكري: «يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته، وتخير ألفاظه، وإصابة معناه، وجودة مطالعه، ولين مقاطعه، واستواء تقاسيمه، وتعادل أطرافه، وتشبه أعجازه بهواديه[٢]، وموافقة مآخره لمباديه، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلًا، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر، فتجد المنظوم مثل المنثور في سلاسة مطلعه، وجودة مقطعه، وحسن رصفه وتأليفه؛ وكمال صوغه وتركيبه، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقًا، وبالتحفظ خليقًا».

أخلاقه ومصيره:

إن من نشأ في سعة من العيش، وأخذ عن عظماء في العلوم والآداب، وعاش زمنًا بين كبار في الإمارة والسياسة، لا بد أن تُبقي بيئته الراقية في نفسه من الصفات ما يسمو به إلى الفضائل والمكارم. وقد قال فيه من ترجموا له: «إنه كان سريًا سخيًّا، يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه»، وقالوا: إنه لم يبق في الإسلام من أهل فارس «شريف يذكر إلا أن يكون عبد الله بن المقفع والفضل بن سهل»، وفي هذه النعوت جماع من صفات السراوة.

قيل: إنه قد أفاد مالًا لما كان يكتب لابن هبيرة على كرمان، فأدّاه ما جبل عليه من حب الخير أن يُجري على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين خمسمائة درهم إلى ألفين في كل شهر؛ ولم يقف جوده عند هذا الحد من التوسعة على من

(١) التقاييد كالتعاليق: ما يقيده المرء في دفاتره من الفوائد.

(٢) الهادي: العنق، والهوادي: الجمع.

يُعرف في البصرة والكوفة، بل أُثرت له حوادث في السخاء دلت على أنه كان متصفًا بالأخلاق الصالحة التي طالما وصفها للناس في رسائله؛ وهو القائل: «ابذُل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رِفدك ومحضرك، وللعامة بِشرَك وتحنّنك، ولعدوك عدلك، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد».

كانت بين عمارة بن حمزة[1] وبين ابن المقفع مودَّة، فأنكر أبو جعفر المنصور على عمارة شيئًا ونقله إلى الكوفة. وكان ابن المقفع إذ ذاك بها، فكان يأتيه ويزوره، فبينا هو ذات يوم عنده ورد على عمارة كتاب وكيله بالبصرة، يعلمه أن ضيعة مجاورة لضيعته تباع، وأن ضيعته لا تصلح إن ملكها غيره، وأن أهلها قد بذلوا له ثلاثين ألف درهم، وأنه إن لم يبتعها فالوجه أن يبيع ضيعته، فقرأ عمارة الكتاب وقال: ما أعجب هذا، وكيلنا يُشير علينا بالابتياع مع الإضافة والإملاق، ونحن إلى البيع أحوج. وكتب إلى وكيله ببيع ضيعته والانصراف إليه. وسمع ابن المقفع الكلام، وانصرف إلى منزله وأخذ سُفْتُجة إلى الوكيل بثلاثين ألف درهم، وكتب إليه على لسان عمارة: إني قد كنت كتبت إليك ببيع ضيعتي ثم حضر لي مال، وقد أنفذت إليك سفتجة فابتع الضيعة المجاورة لك، ولا تبع ضيعتي، وأقم مكانك، وأنفذ الكتاب بالابتياع إليَّ. ووجَّه الكتاب إليه مع رسول قاصد. فورد على الوكيل وقد باع الضيعة، ففسخ البيع وابتاع الضيعة المجاورة، وكتب إلى عمارة يذكر الأمر، وأنه قد صارت له ضيعة نفيسة. فلما قرأ عمارة الكتاب أكثر التعجب، ولم يعرف السبب، وسأل عمن حضر عند ورود كتاب الوكيل، فقيل: ابن المقفع، فعلم أنه من فعله، فلما صار إليه بعد أيام

(١) يعد عمارة بن حمزة الكاتب، وهو من ولد أبي أبابة الأنصاري مولى عبد الله بن العباس، في بلغاء الناس مع ابن المقفع وعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف، وكان معدودًا في سراة الناس، وله تصانيف كثيرة مفقودة.

وتحدثا قال عمارة: بعثت بتلك الثلاثين ألف درهم إلى الوكيل وكنا إليها هاهنا أحوج. قال: فإن عندنا فضلًا، وبعث إليه بثلاثين ألفًا أخرى.

وبلغ ابن المقفع مرة أن جاره يبيع دارًا له لدين ركبه، وكان يجلس في ظل داره؛ فقال: ما قمت إذًا بحرمة ظل داره إن باعها معدمًا، وبتُّ واجدًا. فحمل إليه ثمن الدار وقال: لا تبع. وقال سعيد بن سِلْم: قصدت الكوفة فرأيت ابن المقفع فرحب بي وقال: ما تصنع هاهنا؟ فقلت: ركبني دين فأُحوجت إلى الانزعاج؛ فقال: هل رأيت أحدًا؟ فقلت: ابن شُبرمة؛ وعرفته حالي. فقال: أنا أُكلم الأمين ليضمك إلى أولاده فيكون لك نفع؛ فقال: أف لذلك؟ أيجعلك مؤدبًا في آخر عمرك؟ أين منزلك؟ فعرفته. فأتاني في اليوم الثاني وأنا مشغول بقوم يقرءون عَلَيّ، ومعه منديل فوضعه بين يدي، فإذا فيه أسورة مكسورة ودراهم متفرقة، مقدار أربعة آلاف درهم، وحينئذ زمان المنصور، وفي الدراهم ضيق، فأخذت ذلك ورجعت به إلى البصرة واستعنت به.

روى الحكاية الأولى الجهشياري، وروى الثانية ابن قتيبة، وروى الثالثة الراغب الأصفهاني. أليس لنا أن ندعي بعد ذلك أن ابن المقفع كان يعمل بما يقول، ويهون عليه أن يبذل لصديقه دمه وماله، وأنه طبع على مكارم الأخلاق، يحب الإيثار ويبغض الأثرة، يفعل الخير ما استطاع، ويبذل حبَّ البذل، لا عن رغبة ولا عن رهبة؟

وولع ابن المقفع بالجمال والطرب، فكان يغشى معاهد الصفاء، ويجتمع إلى القينات، ويطرب في غير محرَّم، ويتعاطى قليلًا من الشراب من نبيذ العراق الذي أفتى بحله فقاؤهم. ويقول:

سأشرب ما شربت على طعامي ثلاثًا ثم أتركه صحيحا
فلست بقارف منه أثامًا[١] ولست براكب منه قبيحا

فابن المقفع كان إذًا يأخذ من الحياتين بنصيب على نحو ما قال: «لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يجاده من لذة دنياه؛ وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بَصَرُه بزوالها، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على نفسه أن لا يشغله شغل عن أربع ساعات: ساعة يرفع بها حاجته إلى ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه، وينصحونه في أمره، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يَحِلُّ ويَجْملُ، فإن هذه الساعات عون على الساعات الأخر، وإن استجمام القلوب وتودعها[٢] زيادة قوة لها وفضل بلغة. وعلى العاقل أن لا يكون راغبًا إلا في إحدى ثلاث خصال: تزود لمعاد، أو مرمة[٣] لمعاش، أو لذة في غير محرَّم».

واتلُ بعد هذا حكايتين دوَّنهما الأصفهاني في الأغاني، تنمان أيضًا عن كرم وإيثار. قال: إن ابن المقفع حضر يومًا مأدبة فيها معن بن زائدة المشهور بكرمه، وفيها جوارٍ يغنين، فغنت واحدة ابن زائدة فأعطاها ألف دينار، وغنت أخرى ابن المقفع، فأعطاها مائة ألف درهم؛ أي عشرة آلاف دينار، فقال معن: «لله در الفارسي فقد برّز علينا». وروى أيضًا أنه اجتمع عند ابن رامين، معن زائدة ورَوْح بن حاتم وابن المقفع؛ فلما تغنت الزرقاء وسُعدة بعث معن إليها بِدْرة[٤] فَصُبَّت بين يديها، وبعث

(١) الأثام: كسحاب العقوبة ويكسر كالمأثم، وقرف عليهم: بغى وفلانًا عابه أو اتهمه، ولعياله كسب. وخلط وكذب.
(٢) التودع: الخفض والدعة.
(٣) المرمة: الاصلاح.
(٤) البدرة: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم، أو سبعة آلاف دينار.

روح فجيء ببدرة فصبها بين يديها، ولم يكن عند ابن المقفع دراهم، فبعث فجاء بصك ضيعته وقال: هذه عُهدة ضيعتي خذيها، فأما الدراهم فما عندي منها شيء.

وإذا صحت هاتان القصتان دلتا، مع ما فيهما من إسراف ومبالغة في مقدار الجائزتين، على عظم نفس ابن المقفع، وطيب عنصره في المكرمات والمروءات، فإنه أبى أن يكون دون معن بكرمه، وحاول أن يُرْبِي عليه أن كان له مال. ولما دعته الدواعي في المرة الثانية أن يجاري رفاقه أيضًا؛ وقد صَفَرت كفه من الدراهم، كافأ المغنية بقرية له نزل لها عنها، ولك أن تقول، إذا صدقنا هذا، فإن ابن المقفع يستفزه الطرب، حتى ليكاد يخرج عن قانون الحكمة، وللنفس وثَبات وللطبع نَزَوات.

كان ابن المقفع ينفر من الحسد نفرته من الحرص فيقول: «الحرص والحسد بكرا الذنوب، وأصل المهالك؛ أما الحسد فأهلك إبليس، وأما الحرص فأخرج آدم من الجنة». وقال: «لا يطمعن ذو الكبر في حسن الثناء، ولا الخَبُّ[1] في كثرة الصديق، ولا السيئ الأدب في الشرف، ولا الشحيح في المحمدة، ولا الحريص في الإخوان، ولا الملك المعجب بثبات الملك». وقال: «أهل العقل والكرم يبتغون إلى كل معروف وُصلة وسبيلًا».

قيل لابن المقفع: الصديق أحب إليك أم القريب؟ قال: القريب أيضًا يجب أن يكون صديقًا. وقيل له: بأي شيء يعرف الأخ؟ قال: أن ترى وجهه منبسطًا، ولسانه بمودته ناطقًا، وقلبه ببشره طافحًا، ولقربه من المجلس مجيبًا، وعلى مجاورته في الدار حريصًا، وله فيما بين ذلك مكرمًا. وقيل له: من أدّبك؟ قال:نفسي، إذا رأيت شيئًا أذمه من غيري اجتنبته.

(١) الخب بفتح الخاء: الخداع ويكسر.

وكان يقول: أخذت من كل شيء أحسن ما فيه حتى من الخنزير والكلب والهرة؛ أخذت من الخنزير حرصه على ما يصلحه، وبكوره في حوائجه، ومن الكلب نصحه لأهله، وحسن محافظته على أوامر صاحبه؛ ومن الهرة لطف نغمتها وحسن مسألتها، وانتهازها الفرصة في صيدها.

ورُوي أن عبد الحميد لقي ابن المقفع فقال له: بلغني عنك شيء أكرهه؛ فقال: لا أبالي، قال: ولِمَ؟ قال: لأنه إن كان باطلًا لم تقبله، وإن كان حقًّا عفوت عنه.

وعلى هذا فابن المقفع عسلي في حياته، وعملياته أكثر جِرما من نظرياته، يحاول الاستمتاع بماله فيبذله لمن يحتاج إليه، ويحرص على الصداقة، ويتجافى عن الحسد والرياء، ويتمتع بمباهج الحياة، ويرسل النفس على فطرتها بين إخوانه. قالوا: إن والِبَة بن الحُبَاب، ومطيع بن إياس، ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالي، وحفص بن أبي وردة، وابن المقفع، ويونس بن أبي فروة، وحماد عَجْرَد، وعلي بن الخليل، وحماد بن أبي ليلى الراوية، وابن الزِّبْرقان، وعمارة بن حمزة، ويزيد بن الفيض، وجميل بن محفوظ، وبشار المرعَّث، وأبان اللاحقي -كانوا ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر، ولا يكادون يفترقون، ويهجو بعضهم بعضًا هزلًا وعمدًا، وكلهم متهم بدينه.

هذه رواية صاحب الأغاني عن الجاحظ في اتهام أهل ذاك المجمع بدينهم؛ ولعل ذلك كان من ابن المقفع قبل أن ينتحل الإسلام، ونحن نشك كثيرًا في روايات صاحب الأغاني، ذلك لأنه كان مستهترًا[١] ويحب أن يصف بالاستهتار كل عظيم، ولو كان ممن ثبتت عفته وطهارته.

---

(١) المستهتر بالشيء: بفتح التائين المولع به لا يبالي بما فعل فيه وشُتم له، أو الذي كثرت أباطيله.

ولقد قرأنا كلام ابن المقفع وتدبرناه، فما رأينا له كلمة واحدة تشعر بزندقته، وكيف تثبت الزندقة إذا لم تقم عليها بينات ظاهرة من أقوال وأفعال؟ ولو كان في دينه أدنى عهدة لكان المنصور العباسي قتله على الزندقة جهرة يوم أزمع قتله، ثم إنهم اتهموا ابن المقفع بأنه عارض القرآن وقالوا: إنه تاب وأناب، وهذه التهمة أيضًا كثيرًا ما وجهت إلى بعض العظماء بغية إسقاطهم في نظر الملوك والسوقة. وتخرص عليه المتخرصون أنه مر ببيت نار للمجوس بعد أن أسلم فقال متمثلًا:

يا بيت عاتكة الذي أتعزَّل ... حذر العدى وبك الفؤاد موكل

إني لأمنحك الصدود وإنني ... قسمًا إليك مع الصدود لأميل

وقالوا: إنه كثيرًا ما تمثل بهذين البيتين، ليخلصوا من ذلك إلى أن إسلامه كان صوريًّا، والدلائل كلها مكذبة لأقوالهم، فإن ابن المقفع لم يخالف الشرع بل خدمه وأحنى عليه. أليس هو القائل: «فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب، وتجتنب الكبائر، وتؤدي الفريضة، فالزم ذلك لزوم من لا غناء به عنه طرفة عين، ومن يعلم أنه من حُرِمَه هلك، ثم إن قدرت أن تجاوز ذلك إلى التفقه في الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل»، وكيف يتهم بدينه من قال في حكمه الفاشية بين الناس: «أحق ما صان الرجل أمر دينه - المغبون من طلب الدنيا بعمل الآخرة - المصيبة العظمى الزرية في الدين - طوبى لمن ترك دنياه لآخرته».

وإذا جئت تعلل اجتماعه بهؤلاء الأدباء الذين ذُكروا، واتهمهم المتهمون بالإلحاد، سجلت خطأهم وضعف أحكامهم، وقد كان على الدهر أعظم سلوى للنفس اجتماع المتماثلين. وليس من المحظور في قانون الأرض وقانون السماء أن يَسْمَر الناس ويتنادروا ويتمازحوا، وهذه الطبقة من الرجال كانت من أرق الناس وأفضلهم؛ ذكر أبو عبد الله المرزبان بإسناد له عن بعض الرواة قال: أدركت طبقة بالكوفة يقال لهم: حلية الأرض ونقش الزمان، وهم حماد عجرد ووالبة بن الحباب

ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد وشراعة بن الزَّنْدَبُوذ، ومعظم هؤلاء كانوا عشراء ابن المقفع.

وللصداقة شروط ذكرها ابن المقفع بقوله: «انظر في حال من تريده لإخائك، فإن كان من إخوان الدين فليكن فقيهًا ليس بمراء ولا حريص، وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حرًّا ليس بجاهل ولا كذاب، ولا شرير ولا مشنوع[1]، فإن الجاهل أهل لأن يهرب منه أبواه، والكذاب لا يكون أخًا صادقًا، لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنما هو من فضل كذب قلبه، وإنما سمي الصديق من الصدق، وقد يُتهم صدق القلب، وإن صدق اللسان، فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان، وإن الشرير يكْسِبُك العدو، ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة، وإن المشنوع شانع نفسه».

وما نظن أن من اتهموا ابن المقفع بدينه، إلا من الفقهاء المرائين، الذين اشترط هو أن لا يكون منهم الفقيه الذي يركن إليه المصاحب، وهذه الطبقة من الفقهاء كانت في كل عصر علة توقف العقل، ونشوب فتن سالت فيها الدماء أنهارًا على غابر الأيام، وقد تعوذ بالله من شرهم علماء الأمة، وأبانوا مساويهم ومصانعتهم للملوك، يحملون إليهم من سلعهم ما يروجونه عليهم بكل حيلة، ولا يرون الخير إلا فيما هم فيه بسبيل، ينكرون فضل الله على العالمين بتعدد الخصائص والاستعدادات.

ليس ابن المقفع أول من رُمي بالإلحاد؛ فتاريخ الفكر الإسلامي يذكر أخبار من وقع اتهامهم بهذه التهمة من نوابغ الأمة، على حين كانوا أعظم أنصار الدين

(١) المشنوع: المشهور بالشناعة، وهي القبح الذي يستشنع، يقال: شنعه شنعًا: إذا استقبحه وشتمه. ويقال: شنعنا فلان وفضحنا.

كالجاحظ، وفي القرون التالية اتهم بهذه التهمة عشرات من كبار العلماء[1]، وإن ما كتبوه ليشهد لهم أن أعداءهم ظلموهم في هذه التهم، وظهر بعد أن عذبوا في حياتهم، أنهم كانوا من المخلصين في خدمة الدين، وأن أولئك الثرثارين الذين طوتهم الأرض ولا أثر لهم في دنيا ولا دين، كانوا يحسدون أولئك المؤمنين، فانتقموا لأنفسهم بأن ضربوهم في أقدس الأشياء عندهم.

صحة الإيمان وحب الإسلام صفتان ماثلتان في ابن المقفع، مهما تقوَّل عليه المتقولون. وكان إلى هذا رجل نجدة وأنفة وكرم أخلاق ومروءة ووفاء وحسن عشرة. وكان ربَّ جد وعمل، لا يستند في أموره على الخيال؛ وجل اعتماده على عقله وتجاربه وتجارب من سلف من حكماء الأمم. كان محافظًا على شعائره، لا يحرم على نفسه الطيبات المحللة؛ فليس فيه جمود الفقهاء، ولا استهتار الأدباء، فَهِم من الدين ما فهمه منه كل عاقل.

وكان ابن المقفع من أرباب التفاؤل لا التشاؤم، لطيف الأخلاط، وادع النفس، ينظر إلى الأشياء من وجهها الحسن، ولا يفتأ يجملها بحسن ظنه، ويغالط نفسه في حقيقة السعادة، فينبعث إلى العمل مَرِحًا؛ يحب من الملوك عدلهم، وأن يعملوا في خشية الله وخشية الناس، ولا يهوّن عليهم صناعتهم ولا يصعبها، خصوصًا إذا اقترنت بقرناء الخير من الوزراء والعلماء. ومن كلامه: ثلاثة لا يستخف بهم: عامل السلطان والعالم والصديق؛ فإن من استخف بعامل السلطان ذهبت دنياه، ومن استخف بالعالم ذهبت أخراه، ومن استخف بالصديق ذهبت مروءته. وقال: خدمة السلطان بلا أدب خروج من السلامة إلى العطب، وقال: جانب المتظلم المسخوط

(١) راجع: مبحث الاضطهاد في سبيل الأفكار والمذاهب في كتاب «الإسلام والحضارة العربية» للمؤلف ج٢.

عليه، والظنين عند السلطان؛ ولا يجمعنك وإياه مجلس ولا منزل، ولا تظهرن له عذرًا، ولا تثنين عليه خيرًا، فإذا رأيته قد بلغ من الإعتاب مما سخط عليه فيه ما ترجو بأنه يلين له قلب الملك، ورأيت أن الملك قد استيقن بمباعدتك إياه وشدتك عليك. فاعمل إذًا في رضاه عنه برفق ولين.

وكان يعرف أدب الكبراء لأنه داخلهم ومازهم، وكان على حذر منهم، لا يغتر بإقبالهم عليه، وهم في حاجة إلى علمه وأدبه. استشاره عبد الله بن علي فيما كان بينه وبين المنصور، فأجابه: «لست أقود جيشا، ولا أتقلد حربًا، ولا أشير بسفك دم، وعثرة الحرب لا تُقال، وغيري أولى بالمشورة في هذا المكان».

بقي أن نشرح مصير ابن المقفع، ونصف ما أدى إلى مقتله: كان مقتله سياسيًّا، وما كان -ولله الحمد- في شيء من الغدر ولا الكفر، وفي السياسة يقتل البريء البر، ويثلم الفاضل الحر؛ ولم يسلم ابن المقفع من ظلم الملوك، على كثرة احتياطه معهم، وقتل لما قُدّر له القتل، على كثرة إحسانه، فباء قاتله بسبة الدهر، وكان قتل ابن المقفع أيضًا فخرًا له لا عارًا عليه.

لما خالف عبد الله بن عليّ على أبي جعفر المنصور، وادعى الخلافة لنفسه، أنفذ أبو جعفر أبا مسلم الخراساني لقتاله، فانهزم عبد الله وقصد أخويه سليمان وعيسى في البصرة، فدخلها مستترًا، وكاتب سليمان وعيسى أبا جعفر على إعطائه الأمان، فأنفذ أبو جعفر سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب، وأمره بضغطهم والتضييق عليهم، حتى يشخصوا بعبد الله بن علي إلى حضرته. وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن علي، فأمره عيسى بعمل نسخة الأمان، فعملها ووكدها، واحترس من كل تأويل يقع عليه فيها.

وترددت بين أبي جعفر وبينهم في النسخة كتبٌ، إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط، ولم يتيسر لأبي جعفر إيقاع حيلة فيها، لفرط احتياط ابن المقفع، وكان الذي شق على أبي جعفر أن قال في النسخة: يوقع بخطه في أسفل الأمان «وإن أنا نلت من عبد الله بن علي أو أحد ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير، أو أوصلت إلى أحد منهم ضررًا له سرًّا أو علانية، على الوجوه والأسباب كلها، تصريحًا أو كناية، أو بحيلة من الحيل؛ فأنا نَفْيٌ من محمد بن علي بن عبد الله ومولود لغير رشدة[1]. وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين، ولا عهد ولا ذمة، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي، وإعانة من ناوأني من جميع الخلق، ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين، وهو متبرئ من الحول والقوة، ومدع إن كان أنه كافر بجميع الأديان، ولقي ربه على غير دين ولا شريعة، محرم المأكل والمشرب والمناكح والمركب والرق والمِلك والملبس على الوجوه والأسباب كلها، وكتبت بخطي ولا نية لي سواه، ولا يقبل الله مني إلا إياه والوفاء به».

فأنكر أبو جعفر هذه الصيغة الشديدة في الأمان. وقال: من يكتب له هذا؟ فقيل: ابن المقفع كاتب عيسى بن علي. فقال أبو جعفر: فما أحد يكفينيه؛ وكان سفيان بن معاوية يضطغن على ابن المقفع أشياء، منها: أنه كان يعبث به فيما قيل؛ فتولى قتله. وقيل: إن سفيان لما أمر بقتله قال له: والله إنك لتقتلني، فتقتل بقتلي ألف نفس، ولو قتل مائة مثلك ما وفوا بواحد؛ ثم قال:

إذا ما مات مثلي مات شخص ... يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدري ... بموتك لا الصغير ولا الكبير

---

(١) ولد لرشدة (بفتح الراء ويكسر) ضد لزَنية.

هذه رواية الجهشياري في الأسباب التي دعت المنصور إلى قتل ابن المقفع، وفي كتاب المقالات[1] للنوبختي أن المنصور كتب لعبد الله بن علي على عمه، فيما رُوي، سبعين أمانًا كلها يردها عبد الله بن المقفع، ويقول له: هذا ينتقض عليك، ويبطل من مكان كذا وكذا. فلما ضجر المنصور، وطال عليه أمره، كتب إلى يزيد بن معاوية المهلبي، وهو عامله على البصرة، بعدما وقف على أمر ابن المقفع وأنه صاحبه، وكان متواريًا مخافة المنصور، وما بلغه عنه: يقسم بالله وبالأيمان المغلظة لئن لم يطلب عبد الله بن المقفع ولم يقتله ليقتلنّه ومن بقي من أهل بيته من آل المهلب، فطلبه يزيد بن معاوية فظفر به، وأراد حمله إلى المنصور فقتل نفسه. قال بعضهم: إنه شرب سمًّا، وقال بعضهم: إنه خنق نفسه. فلما قُتل ابن المقفع قَبِل عبد الله بن علي أوّل أمان ورد عليه، وظهر فحمل إلى المنصور فحبسه في بيت ثم هدمه عليه فقتله. وقال بعضهم: بل بعث إليه وهو نائم ثم وضع على وجهه شيئًا فأخذ بنفسه حتى مات. وقال بعضهم: إنه سمّه في طعامه فقتله. اهـ.

جوّز المنصور قتل بريء؛ كَتَب ما كَتَب حرصًا على مصلحة من يكتب له، والله يقول: {ولا يضار كاتب ولا شهيد} وما عدم الساسة حجة يتوكئون عليها، أو تأويلًا يأتيهم به المنافقون لقتل من استهدفوا لغضبهم، والمنصور على ما فيه من عقل ودهاء، عجز عن إقناع أهله بأن يكتبوا إلا ما أرادوا في أمان أحدهم، فانتقم من رجل لا قوة له غير قلمه، ومن رجل شريف ما تجوز في خيانة من يتولى الكتابة عنه،

(١) تفضل صديقي الأستاذ أبو عبد الله الزنجاني من علماء إيران فنقل لي هذه الجملة من كتاب المقالات للنوبختي، وهي غير مذكورة في كتاب المقالات والفرق المطبوع. وقد رجح الأستاذ أن الكتاب تأليف سعد بن عبد الله بن أبي خلف النميري الأشعري القُسمي المتوفى سنة ٢٩٩ أو ٣٠١ وهو من رؤساء الإمامية. والنسخة محفوظة في خزانة الأستاذ سلطاني البهبهائي من نبلاء طهران وأدبائها.

وأبت ذمته أن يكتب لهم عهد أمان ضعيف القيود، يدخل المنصور متى أراد من أحد شقوقه، فينقضه ويهلك من يحاول إهلاكه.

والمنصور يعرف مكانة ابن المقفع من العلم، يعرفه مما ترجمه له من كتب الحكماء، ويعرف شهرته المستفيضة في أرجاء مملكته الواسعة؛ وليس عبد الله بالرجل الذي يجهل موقعه، والمنصور يعرف أن ابن المقفع، والدولة في شبابها، زينة مملكته، وما كان يحسنه من فنون الحكمة والأدب لا يحسنه سواه، ولكن هو الاستبداد يعمي البصر، وحظوظ النفس تعمي البصيرة، والمستبد أبدًا محتقب أوزارًا، قد تعود عليه بأقبح سمعة وشنعة؛ ومن أجل هذا تحامى كثير من العقلاء التقرب من الملوك المستبدين، لأنهم إذا قالوا فعلوا.

شعبة من كلامه:

يحار من يحاول الاختيار من هذا القليل الذي عفت عنه القرون من كلام ابن المقفع. وبحسبنا أن نقتبس شيئًا من حكمه في الأدب الصغير واليتيمة، ثم نتبعه بجمل نختارها من كليلة ودمنة، ثم بطائفة من رسائله يجدر بطالب البلاغة أن يترواها ويتدبرها، وكان الأجدى أن لا نتكلف الاختيار من كلام كله در مختار.

١ - من ذلك قوله في معنى الانتفاع بالكلام النافع: «ومن أخذ كلامًا حسنًا عن غيره فتكلم به في موضعه على وجهه، فلا يَرَين عليه في ذلك ضُؤْلة[1]، فإن من أعين على حفظ قول المصيبين، وهُدي للاقتداء بالصالحين، ووفّق للأخذ عن الحكماء، فلا عليه ألا يزداد، فقد بلغ الغاية، وليس بناقصه في رأيه، ولا بغائضه من حقه أن لا يكونَ هو استحدث ذلك وسبق إليه، وإنما حياة العقل الذي يتم به، ويستحكم،

(١) الضؤلة: الضعف.

خصال ست: الإيثار بالمحبة، والمبالغة في الطلب، والتثبت في الاختيار، والاعتقاد للخير، وحسن الوعي، والتعهد لما اختير واعتقد، ووضع ذلك موضعه قولًا وعملًا».

٢- ومنها في شدة الحاجة إلى التأدب كشدة حاجة الجسم إلى التغذية: «ولسنا إلى ما يُمسك بأرماقنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى ما يثبت عقولنا من الأدب الذي به تفاوت العقول. وليس غذاء الطعام بأسرع في نبات الجسد من غذاء الأدب في نبات العقل، ولسنا بالكد في طلب المتاع الذي يُلتمس به دفع الضر والعَيلة[1]، بأحق منا بالكد في طلب العلم الذي يُلتمس به صلاح الدين والدنيا».

٣- ومن ذلك حاجة المعلم إلى تعليم نفسه أولًا: «من نصب نفسه للناس إمامًا في الدين، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي واللفظ والأخدان. فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه، فإنه كما أن كلام الحكمة يؤنّق[2] الأسماع، فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم».

٤- ومن ذلك ذكر الواجب على من يتقرب من الملوك العادلين وحاجة المجتمع إلى الالتفاف عليهم: «إن للسلطان المقسط حقًّا لا يصلح لخاصة ولا عامة أمر إلا بإرادته، فذو اللب حقيق أن يُخلص لهم النصيحة ويبذل لهم الطاعة، ويكتمُ سرهم ويزين سيرتهم، ويذُبَّ بلسانه ويده عنهم، ويتوخى مرضاتهم، ويكون من أمره المواتاة لهم، والإيثار لأهوائهم ورأيهم على هواه، ويقدر الأمور على موافقتهم، وإن كان ذلك له مخالفًا، وأن يكون منه الجد في المخالفة لمن جانبهم وجهل حقهم،

---

(١) العيلة (بفتح العين) : الفقر.

(٢) الأنق (محركة) : الفرح والسرور، وأنق كفرح، والشيء أحبه، وبه أعجب.

ولا يواصل من الناس إلا من لا تُباعد مواصلته إياه منهم، ولا تحمله عداوة أحد له، ولا إضرار به على الاضطغان[1] عليهم، ولا مواتاة أحد على الاستخفاف بشيء من أمورهم، والانتقاص لشيء من حقهم، ولا يكتمهم شيئًا من نصيحتهم، ولا يتثاقل عن شيء من طاعتهم، ولا يبْطَر إذا أكرموه، ولا يجترئ عليهم إذا قربوه، ولا يطغى إذا سلطوه، ولا يُلحف إذا سألهم، ولا يُدخل عليهم المؤونة، ولا يستثقل ما حمَّلوه، ولا يغتر بهم إذا رضوا عنه، ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه، وأن يحمدهم على ما أصاب من خير منهم أو من غيرهم، فإنه لا يقدر أحد على أن يصيبه بخير إلا بدفاع الله عنه بهم».

أخذ هذا المعنى من سيرة الفرس في تقديس ملوكهم وفيه منزع سياسي لطيف، والعرب لا تعرف مثله، العرب يجْبهون ملوكهم، ويضربون بعيوبهم وجوههم. ومما روي له في هذا المعنى: «لا تكن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك، وكن حافظًا إذا ولّاك، أمينًا إذا ائتمنك، راضيًا إذا أسخطك، ومع هذا فالحذر من صحبته كل الحذر». وقال: «لا تغرنك سعة تكون فيها، فإن أعظم الناس خطرًا من يدير ما في يده، والملوك إلى حسن التدبير أحوج من السوقة، فإن السوقة قد تعيش بغير مال، والملوك لا بد لهم من المال ولا قوام لهم إلا به» ، وقال: «ينبغي للملك أن لا يغضب لأن القدرة من وراء حاجته، ولا أن يكذب لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على ما لا يريد، ولا أن يبخل لأن البخل مذموم، ولا أن يكون حقودًا لأن خطره يجلُّ عن المجازاة».

٥- ومنها في صورة العالم الحقيقي وما يجب عليه وينبغي له: «مما يدل على علم العالم معرفته بما يدرك من الأمور، وإمساكه عما لا يُدرك، وتزيينه نفسه بالمكارم،

(١) ضغن كفرح، وتضاغنوا واضطغنوا: انطووا على الأحقاد.

وظهور علمه للناس من غير أن يظهر منه فخر ولا عُجْب، ومعرفته بزمانه الذي هو فيه، وبصره بالناس، وأخذه بالقسط، وإرشاده المسترشد، وحسن مخالفته خلطاءه، وتسويته بين قلبه ولسانه، وتحريه العدل في كل أمر، ورحب ذرعه فيما نابه، واحتجاجه بالحجج فيما عمل، وحسن تبصره. من أراد أن يبصر شيئًا من علم الآخرة فبالعلم الذي به يعرف ذلك، ومن أراد أن يبصر شيئًا من علم الدنيا فبالأشياء التي هي تدل عليه».

٦- وفي تأصل الكذب في الإنسان قال: «رأس الذنوب الكذب، هو يؤسسها وهو يتفقدها ويثبتها، ويتلون ثلاثة ألوان: بالأمنية والجحود والجدل. يبدأ صاحبه بالأمنية الكاذبة فيما يزين له من السوآت فيشجعه عليها بأن ذلك سيخفى، فإذا ظهر عليه قابله بالجحود والمكابرة؛ فإن أعياه ذلك ختم بالجدل فخاصم عن الباطل، ووضع له الحجج والتمس به التثبت، وكابر الحق حتى يكون مسارعًا للضلالة، ومكابرًا بالفواحش».

٧- ومن محكم تصريحاته قوله: «لا يثبت دين المرء على حالة واحدة أبدًا، ولكنه لا يزال إما زائدًا وإما ناقصًا. السعيد يرغبه الله في الآخرة، حتى يقول لا شيء غيرها، فإذا هضم دنياه وزهد فيها لآخرته، لم يحرمه الله بذلك نصيبه من الدنيا، ولم ينقصه من سروره فيها، والشقي يرغبه الشيطان في الدنيا، حتى يقول لا شيء غيرها، فيعجل الله له التنغيص في الدنيا التي آثر مع الخزي الذي يلقى بعدها».

٨- وفي معرفة صلحاء الوقت والحث على الاستشارة قوله: «اعرف أهل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيلة، فيكونوا هم إخوانك وأعوانك وبطانتك وثقاتك، ولا يُقْذَفَنَّ في رُوعك أنك إذا استشرت الرجال ظهرت للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك، فإنك لست تريد الرأي للذكر والسمعة، ولكنما تريده

للانتفاع به، ولو أنك مع ذلك أردت السمعة والذكر لكان أحسن الذكرين وأفضلهما عند أهل العقل أن يقال: لا يتفرد برأيه دون استشارة أهل الرأي». وقال: «اعلم أن المستشار ليس يكفيك، وأن الرأي ليس بمضمون، فإن أشار عليك صاحبك برأي لم تجد عاقبته كما تأمل فلا تجعلن ذلك ذنبًا، ولا تلزم المشير لومًا، فإنه عليه الاجتهاد فيما يشير به ويراه، وإن كنت أنت المشير فعمل برأيك فأصاب، فلا تمنن به ولا تكثر ذكره، وإن لم يعمل به فأخطأ، فلا تلمه على تركه».

٩- وفي التوقيت لكل شيء ووضع كل شيء موضعه قوله: «اعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء، ففرغه للمهم، وأن مالك لا يغني الناس كلهم، فاختص به ذوي الحقوق، وأن كرامتك لا تطيق العامة، فتوخَّ بها أهل الفضائل، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك، وإن دأبت فيهما، وأنه ليس لك إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه من الدعة، فأحسن قسمتها بين دعتك وعملك. واعلم أنك ما شغلت من رأيك بغير المهم أزري بالمهم، وما صرفت من مالك بالباطل فقدته حين تريده للحق، وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضر بك في العجز عن أهل الفضل، وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بك في الحاجة».

١٠- ومنها في طبقات الملك: «اعلم أن المُلكَ ثلاثة: مُلك دين، ومُلك حزم، وملك هوى؛ أما ملك الدين فإنه إذا أُقيم لأهله دينهم، وكان دينهم هو الذي يُعطيهم ما لهم، ويُلحق بهم الذي عليهم أرضاهم، ونزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم؛ وأما ملك الحزم فإنه يقوم به الأمر، ولا يسلم من الطعن والتسخط، ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوي؛ وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر».

١١- وفي المبالغة بالحرص على الإخوان قوله: «اعلم أن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا: زينة في الرخاء، وعُدة في الشدة، ومعونة في المعاش والمعاد؛ فلا تُفَرِّطَنَّ في اكتسابهم وابتغاء الوصلات والأسباب إليهم». وقال له رجل: «أنا بالصديق آنس مني بالأخ». فقال: «صدقت، الصديق نسيب الروح، والأخ نسيب الجسم». وقال: «من سوء المجالسة أن الرجل تثقل عليه النعمة يراها بصاحبه، فيكون ممن يتشفى به منه تصغير أمره وتكدير النعمة عنده، بذكر الزوال والانتقال كأنه واعظ أو قاصّ، ولا يخفى ذلك على من يُعنى به، ولا ينزله منزلة الوعظ والإبلاغ، بل الحسد والاسترواح إلى غير راحته». وقال: «لا تلتمس غلبة صاحبك والظفر به عند كل كلمة، ولا تستطيلن عليه بظهور حجتك، فإن قومًا قد يحملهم حب الغلبة أن يتعقبوا الكلمة بعدما تنسى، يلتمسون بذلك الغلبة والاستطالة على الأصحاب، وذلك في العقل ضعف، وفي الأخلاق لؤم».

١٢- ومما قال في اجتناب حديث تتبرم به النفوس: «اعلم أنه تكاد تكون لكل رجل غالبة حديث، إما عن بلد من البلدان، أو ضرب من ضروب العلم، أو صنف من صنوف الناس، أو وجه من وجوه الرأي، وعندما يُغرَم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف، ويعرف منه الهوى، فاجتنب ذلك في كل موطن، ثم عند أولي الأمر خاصة».

١٣- وقال في الابتعاد عن انتحال أقوال الأصدقاء: «إن سمعت من صاحبك كلامًا أو رأيًا يعجبك، فلا تنتحله تَزَيُّنًا به عند الناس، واكتفِ من التزين بأن تجتني الصواب إذا سمعته وتنسبه إلى صاحبه، واعلم أن انتحالك ذاك سَخطة لصاحبك، وأن فيه مع ذلك عارًا، فإن بلغ ذلك بك أن تُشير برأي الرجل، وتتكلم بكلامه وهو يسمع، جمعت مع الظلم قلة الحياء، وهذا من سوء الأدب الفاشي في الناس. ومن

تمام حسن الخلق والأدب أن تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك، وتَنْسُب إليه رأيه وكلامه، وتزينه مع ذلك ما استطعت». وقال: «إياك أن تبتدئ حديثًا ثم تقطعه كأنك رَوَّيت فيه، ولكن اجعل ترويتك فيه قبل ابتدائه والتفوه به، فإن احتجان الحديث بعد افتتاحه سخف وغم».

١٤- ومما قال: «لتعرف العلماء حين تجالسهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول. إن آثرت أن تفاخر أحدًا ممن تستأنس إليه في لهو الحديث فاجعل غاية ذلك الجد، ولا تعدُوَنَّ أن تتكلم فيه بما كان هزلًا، فإذا بلغ الجدَّ أو قاربه فدعه، ولا تخلطن بالجد هزلًا وبالهزل جدًّا، فإنك إن خلطت بالجد هزلًا هجنته، وإن خلطت بالهزل جدًّا كدرته، غير أني علمت موطنًا واحدًا إن قدرت أن تستقبل به الجد بالهزل أصبت الرأي، وظهرت على الأقران، وذلك أن يتوردك[1] متورد بالسفه والغضب، فتجيبه إجابة الهازل برُحب من الذرع، وطلاقة من الوجه، وثبات من المنطق».

١٥- وقال وهو مما يجب على كل عاقل أن يجعله نُصب عينه، ويتأدب بأدبه: «تحرّز من سكر السلطة، وسكر العلم، وسكر المنزلة، وسكر الشباب، فإنه ليس من هذا شيء إلا وهو ريح جِنَّة[2] تسلب العقل، وتُذهب الوقار، وتصرف القلب والسمع والبصر واللسان عن المنافع».

١٦- وقال فيما ينبغي أن يكون عليه المرء من الأخلاق: «ذلل نفسك بالصبر على جار السوء، وعشير السوء، وجليس السوء، فإن ذلك ما لا يكاد يخطئك، فإن الصبر صبران: صبر الرجل على ما يكره، وصبره عما يحب؛ فالصبر على المكروه أكثرهما وأشبههما أن يكون صاحبه مضطرًّا؛ واعلم أن اللئام أصبر أجسادًا، والكرام

(١) تورد: طلب الورد.
(٢) الجِنَّة: الجنون.

أصبر نفوسًا، وليس الصبر الممدوح بأن يكون جلد الرجل وَقَاحًا[١]، أو رجله قوية على المشي، أو يده قوية على العلم، فإنما هذا من صفات الحمير، ولكن أن يكون للنفس غلوبًا، وللأمور محتملًا، وفي الضرّ متجملًا، ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطًا، وللحزم مؤثرًا، وللهوى تاركًا، وللمشقة التي يرجو عاقبتها مستخفًّا، وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مواظبًا، ولبصره بعزمه منفذًا».

ومما قال: «لا تعتذرن إلا إلى من يحب أن يجد لك عذرًا، ولا تستعينن إلا بمن يحب أن يظفرك بحاجتك، ولا تحدثن إلا من يرى حديثك مغنمًا، ما لم يغلبك الاضطرار». وقال: «إن كنت لا بد أن تكافئ بالعداوة، فإياك أن تكافئ عداوة السر بعداوة العلانية، وعداوة الخاصة بعداوة العامة». وقال: «لا تعجل بالثواب ولا بالعقاب، فإن ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي». وقال: «اعلم أن من الناس ناسًا يبلغ بهم الغضب إذا غضبوا أن يقطب أحدهم في غير وجه من أغضبه، ويسيء اللفظ والعقوبة لمن لا ذنب له، ويبلغ منه الرضا إذا رضي أن يتبرع بالأمر ذي الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده، ويعطي من لم يستحق العطاء، ويكرم من لا يستوجب الكرامة، فاحذر هذا الباب فإنه غير لائق بذوي الألباب».

١٧- وقال في النساء وفي رغبات الرجال الذواقين: «اعلم أن من أوقع الأمور في الدين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأضرها بالعقل، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء. ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك يأْجِم[٢] ما عنده، وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن؛ وإنما النساء أشباه، وما يُرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخُدعة، بل ما يرغب عنه

(١) صلبًا.

(٢) أجم الطعام وغيره يأجمه: كرهه ومله.

الراغب مما عنده أفضل ما تتوق إليه نفسه؛ وإنما المترغب عما في رحله منهن إلى ما في رحال الناس، كالمترغب عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس، بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام، وما في رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلًا وتفاوتًا مما في رحالهم من النساء.

ومن العجب أن الرجل الذي لا بأس في لبّه، يرى المرأة من بعيد متلففة في ثيابها، فيصور لها في قلبه الحسن والجمال، حتى تعلق بها نفسه، من غير رؤية ولا خبر مخبر، ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأَدم الدمامة، فلا يعظه ذلك عن أمثالها، ولا يزال مشغوفًا بما لم يذق، حتى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأنًا غير شأن ما ذاق، وهذا هو الحمق والشقاء. ومن لم يجم نفسه ويَظْلِفْها[1] ويَحْلأْها[2] عن الطعام والشراب والنساء في بعض ساعات شهوته وقدرته، كان أيسر ما يصيبه من وبال أمره انقطاعُ تلك اللذات عنه، بخمود نار شهوته، وضعف عوامل جسده؛ وقلَّ من تجد إلا مخادعًا لنفسه في أمر جسده عن الطعام والشراب والحمية والدواء، وفي أمر مروءته عند الأهواء والشهوات، وفي أمر دينه عند الريبة والشبهة والطمع».

والحكمة الأخيرة من أجَلّ ما يُتعلم ويتفهم.

١٨- وقال فيما يجب أن تعامل به المرأة في المجتمع: «إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى أَفْن[3]، وعزمهن إلى وَهْن، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن، فإن شدة الحجاب خير لك من الارتياب، وليس خروجهن بأشد من دخول من لا

---

(١) ظلف نفسه عنه: منعها من أن تفعله أو تأتيه أو كفها عنه. وأجم نفسه: أراحها.

(٢) يطردها ويمنعها.

(٣) الأفن: ضعف الرأي والعقل.

تثق به عليهن، فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل، ولا تُمَلِّكَنَّ امرأة من الأمر ما جاوز نفسها، فإن ذلك أنعم لحالها، وأرخى لبالها، وأدوم لجمالها؛ وإنما المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة[1]، فلا تعدُ بكرامتها نفسها، ولا تُعطها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تطل الخلوة مع النساء فيمْلَلنَك وتملّهن، واستبق من نفسك بقية، فإن إمساكك عنهن وهن يُردنك باقتدار، خير من أن يهجمن عليك على انكسار. وإياك والتغاير في غير موضع غيرة، فإن ذلك يدعو الصحيحة منهن إلى السقم». وقوله: وإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة من أجمل الحكم والكلام المحقق.

١٩- وقال في العالم والمتعلم: «لا يعجبنك العالم ما لم يكن عالمًا بمواضع ما يعلم». وقال: «حبب إلى نفسك العلم حتى تألفه وتلزمه، ويكونَ هو لهوك ولذتك وسلوتك وبُلْغتك، واعلم أن العلم علمان: علم للمنافع، وعلم لتزكية العقل، وأفشى العلمين وأجداهما أن ينشط له صاحبه من غير أن يُحرَّض عليه علم المنافع، وللعلم الذي هو ذكاء العقول وصقالها وجلاؤها، فضيلة منزلة عند أهل الفضل في الألباب».

٢٠- وقال في نظام العمل: «إذا تراكمت الأعمال عليك فلا تلتمس الرَّوح[2] في مدافعتها بالرَّوغان منها، فإنه لا راحة لك إلا في إصدارها، وإن الصبر عليها هو يخففها، وإن الضجر منها هو يراكمها عليك، فتعهد من ذلك في نفسك خصلة قد رأيتها تعتري بعض أصحاب الأعمال، إن الرجل يكون في أمر من أمره فيرِدُ عليه شغل آخر، ويأتيه شاغل من الناس يكره تأخيره، فيكدر ذلك نفسه تكديرًا يفسد ما كان فيه وما ورد عليه، حتى لا يحكم واحدًا منهما، فإن ورد عليك مثل ذلك فليكن

(١) القهرمان (بفتح القاف): الوكيلُ، فارسية معربة.

(٢) الرَّوح: الراحة. الروغان: الميل والحيد عن الشيء.

معك رأيك الذي تختار به الأمور، ثم اختر أولى الأمرين بشغلك فاشتغل به حتى تفرغ منه، ولا يَعْظُمن عليك فوت ما فات وتأخير ما تأخر، إذا أعملت الرأي مَعْمَله، وجعلت شغلك في حقه».

٢١- وقال في معنى التوقي من أكاذيب الناس ونقلها: «إياك والأخبار الرائعة وتحفظ منها، فإن الإنسان من شأنه الحرص على الإخبار لا سيما ما راع منها، فأكثر الناس من يحدث بما سمع ولا يبالي ممن سمع، وذلك مفسدة للصدق ومَرْزِئة(١) بالرأي، فإن استطعت ألا تخبر بشيء إلا وأنت به مصدق، وألا يكون تصديقك إلا ببرهان فافعل. ولا تقل كما يقول السفهاء أُخبر بما سمعت، فإن الكذب أكثر ما أنت سامع، وإن السفهاء أكثر من هو قائل، وإنك إن صِرْتَ للأحاديث واعيًا وحاملًا، كان ما تعي وتحمل عن العامة أكثر مما يخترع المخترع بأضعاف».

٢٢- وقال فيما يتأدب به السلطان: «إنك إن تلتمس رضا جميع الناس تلتمس ما لا يدرك، وكيف يتفق لك رضا المتخالفين، أم ما حاجتك إلى رضا من رضاه الجور، وإلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة؟ فعليك بالتماس رضا الأخيار وذوي العقول، فإنك متى تصب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه».

٢٣- «احرص أن تكون خبيرًا بأمور عمالك، فإن المسيء يَفْرَق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك، وإن المحسن يستبشر بعلمك فيه، قبل أن يأتيه معروفك. ليعرف الناس من أخلاقك أنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب، فان ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي».

---

(١) المرزئة كالرزء والرزيئة: المصيبة.

٢٤- وقال من نصائحه للملوك: «رأس الحزم للملك معرفته بأصحابه، وإنزالهم منازلهم، واتهام بعضهم على بعض، فإنه إن وجد بعضهم إلى إهلاك بعض سبيلًا، أو إلى تهجين بلاء المبلين، وإحسان المحسنين، والتغطية على إساءة المسيئين، سارعوا إلى ذلك، واستحالوا محاسن أمور الملك، وهجنوا مخارج رأيه، ولم يبرح منهم حاسد قد أفسد ناصحًا، وكاذب قد اتهم أمينًا، ومحتال قد أعطب بريئًا، وليس ينبغي للملك أن يفسد أهل الثقة بغير أمر يعرفه، بل ينبغي في فضل حلمه، وبسطة علمه، الحيطة على رأيه فيهم، والمحاماة على حرمتهم وذمامهم، وألا يسرع إلى إفسادهم، ولا يغتفر مع ذلك في زلة إن زلها أحد منهم؛ ولم يزل جهال الناس يحسدون علماءهم، وجبناؤهم شجعانهم، ولئامهم كرماءهم، وفجارهم أبرارهم، وشرارهم خيارهم».

٢٥- وقال: «السلطان لا يقرب الرجال على قرب آبائهم، ولا يباعدهم لبعدهم، ولكنه ينزلهم على قدر ما عند كل امرئ منهم فيما يُنتفع به، وقد يكون الجُرْذُ في البيت جارًّا مجاورًا، فيُنفي إذا كان ضارًّا مؤذيًا، ولما كانت في البازي منفعة وهو وحش، اقتنُي واتخذ».

وقال أيضًا فيما يتأدب به السلطان: «عوّد نفسك الصبر على ما خالفك من رأي ذوي النصيحة، والتجرع لمرارة قولهم وعذلهم، ولا تسهلن سبيل ذلك إلا لأهل الفضل والمروءة والعقل في ستر، لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئ به سفيه، أو يستخف به شانئٌ».

٢٦- «إن كان سلطانك عند جِدّة دولة فرأيت أمرًا استقام بغير رأي، أو أعوانًا أجزوا بغير نَيْل، وعملًا أنجح بغير حزم، فلا يغرنك ذلك، ولا تستنيمن إليه، فإن الأمر الجديد مما يكون له مهابة في أنفس العوام، وحلاوة في قلوب قوم آخرين،

فيعين قوم على أنفسهم، ويعين قوم بما قبلهم، ويستتب ذلك الأمر غير طويل، ثم تصير الشئون إلى حقائقها وأصولها، فما كان شيءٌ من الأمر على غير أركان وثيقة، ولا دعائم محكمة، أوشك أن يتداعى ويتصدع».

٢٧- وقال: «إذا حاججت فلا تغضب، فإن الغضب يدفع عنك الحجة، ويظهر عليك الخصم، ومن ذلك تعلموا ثلاث خصال من خمس: التربية من الكراكي، والبخل وادخار القوت من الفأر والنمل، والبكور من الغراب والديك». ومن كلامه: «ثلاثة إن أقدموا على ثلاث من غير ثلاث، فرأوا ما كرهوا، فلا يلومُنَّ إلا أنفسهم: من خاصم من غير حجة فخصم[1]، أو صارع من غير قوة فصرع، أو حارب بغير عُدة فهزم».

٢٨- وقال: «أربعة المال إليهم أحب من أنفسهم: راكب البحر للتجارة، والمحارب بالأجرة، والناقب في خزانة الملك للسرقة، والحواء يستزيد الحية طمعًا في الهدية». وعنه أيضًا: «أربعة ضائعة: سراج في الشمس، ومطر في سبخة[2]، وحسناء عند عِنِّين، وطعام عند سكران». وعنه أيضًا: «أربعة يعرفون في أربع أحوال: الشجاع في الحرب، والفرس في الميدان، والحراث في الحراثة، والصديق عند الحاجة إليه». وعنه أيضا: «العداوة الطبيعية أربع: عداوة الذئب للغنم، والبازي للقَبَج[3]، والهر للفأر، والغراب للبوم».

٢٩- ومما نقل من كلمه وجمله: (إذا جعل الكلام مثلًا كان أوضح للمنطق، وآنق للمسمع، وأوسع لشعوب الحديث. لا تَعْرِضَنَّ عقلك على الناس، فإذا

(١) خصمه: غلبه.

(٢) السبخة (محركة ومسكنة) : أرض ذات نز وملح.

(٣) القبج: الحجل.

اضطرك أمر فكن كصاحب الشطرنج يبني أمره على القائمة، فإن وجد ضربة غريبة انتهزها، وإياك أن تبتدئ في مجلس لم تسبر عقول أصحابه، فبين العقول بون بعيد. الإفراط في التواضع يوجب المذلة، والإفراط في المؤانسة يوجب المهانة. كثرة المُنَى تُخْلق العقل وتطرد القناعة وتفسد الحس. خمس نفر المال أحب إليهم من أنفسهم: المقاتل بالأجرة، وراكب البحر للتجارة، وحافر البئر والأسراب، والمدل بالسباحة، والمخاطر على السم. وقال: لينفق ذو المال ماله في ثلاثة مواضع: في الصَّدقة إن أراد الآخرة، وفي مصانعة السلطان إن أراد الذكر، وفي النساء إن أراد العيش. وقال: إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة ولا يدركها إلا بأربعة: فأما الثلاثة التي يطلب: فالسعة في المعيشة، والمنزلة في الناس، والزاد في الآخرة؛ وأما الأربعة التي تدرك بها هذه الثلاثة: فاكتساب المال من أحسن وجوهه، وحسن القيام عليه، ثم التثمير له، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والإخوان، ويعود في الآخرة نفعه؛ فإن أضاع شيئًا من هذه الأربعة لم يدرك شيئًا من هذه الثلاثة: إن لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به، وإن كان ذا مال واكتساب ولم يحسن القيام عليه، يوشك أن يفنى ويبقى بلا مال، وإن هو وضعه ولم يثمره لم يمنعه قلة الإنفاق من سرعة النفاد، كالكحل الذي إنما يؤخذ منه على الميل مثل الغبار، ثم هو مع ذلك سريع فناؤه، وإن اكتسب وأصلح وثَمَّر، ولم ينفق الأموال في أبوابها، كان بمنزلة الفقير الذي لا مال له، ثم لا يمنع ذلك ماله من أن يفارقه، ويذهب حيث لا منفعة فيه، كحابس الماء في الموضع الذي تنصب فيه المياه، إن لم يخرج منه بقدر ما يدخل فيه تمصل[1] وسال من نواحيه فيذهب المال ضياعًا».

(١) مصل: قطر.

هذه بعض حكم ابن المقفع لقطناها، وكلامه ليس مما يلتقط ويطرح منه، بل كله سلسلة واحدة ونمط واحد؛ وقد ختم كتابه اليتمية بهذه الجملة المعجبة والوصف الغريب، قال، وهي آية الإبداع.

٣٠- «إني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما أعظمه عندي صِغَر الدنيا في عينه؛ كان خارجًا من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد، وكان خارجًا من سلطان فرحه فلا تدعوه إليه مؤونة، ولا يستخف له رأيًا ولا بدنًا، وكان خارجًا من سلطان الجهالة فلا يُقدم إلا على ثقة أو منفعة، وكان أكثر دهره صامتًا، فإذا قال بذَّ القائلين، وكان يُرى مُتضعفًا[1] مستضعفًا، فإذا جَدَّ فهو الليث عاديًا؛ وكان لا يدخل في دعوى، ولا يَشْرك في مراء، ولا يدلي بحجة، حتى يجد قاضيًا فَهِمًا وشهودًا عدولًا، وكان لا يلوم أحدًا على ما قد يكون العذر في مثله، حتى يعلم ما اعتذاره؛ وكان لا يشكو وجعًا إلا إلى من يرجو عنده البر، ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشهى ولا يتشكى، ولا ينتقم من العدو ولا ينفعل عن الولي، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته، فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت، ولن تطيق، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع، وبالله التوفيق».

٣١- من كليلة ودمنة: قال بيدبا: إن وجدت الأمور التي اختص بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعة أشياء، وهي جِماع ما في العالم، وهي الحكمة والعفة والعقل والعدل، والعلم والأدب والروية داخلة في باب الحكمة، والحلم والصبر والوقار داخلة في باب العقل، والحياء والكرم والصيانة والأنفة داخلة في باب العفة، والصدق والإحسان والمراقبة وحسن الخلق داخلة في باب العدل؛ وهذه هي

(١) ضعفه تضعيفًا: عده ضعيفًا كاستضعفه وتضعفه، وفي الحديث: «كل ضعيف متضعف».

المحاسن، وأضدادها هي المساوئ، فمتى كملت هذه في واحد لم يُخرجه النقص في نعمته إلى سوء الحظ من دنياه، ولا إلى نقص في عقباه، ولم يتأسف على ما لم يُعِن التوفيق ببقائه، ولم يُحزنه ما تجري به المقادير في ملكه، ولم يُدْهَش عند مكروه، فالحكمة كنز لا يفنى على الإنفاق، وذخيرة لا يُضربُ لها بالإملاق[1]، وحُلة لا تَخلق جِدَّتها، ولذة لا تصرَم مدتها.

٣٢- «واعلم أيها الملك أنه من لم يقبل من نصائحه ما يثقل عليه مما ينصحون له لم يحمد رأيه، كالمريض الذي يدع ما يبعث له الطبيب، ويَعمِد إلى ما يشتهيه، وحَقَّ على مؤازر السلطان أن يبالغ في التحضيض له على ما يزيد سلطانه قوة ويزينه، والكفِّ عما يضيره ويشينه، وخير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة في النصيحة، وخير الأعمال أحمدها عاقبة، وخير النساء الموافقة لبعلها، وخير الثناء ما كان على لسان الأخيار، وخير السلطان ما لم يخالطه بطر، وخير الأخلاق أعونها على الورع، وقد قيل: لو أن امرأ توسد النار، وافترش الحيات كان أحق ألا يَهنِئه النوم، والرجل إذا أحس من صاحبه بعداوة يريده بها لا يطمئن إليه، وأعجز الملوك آخذهم بالهوينى، وأقلهم نظرًا في مستقبل الأمور، وأشبههم بالفيل الهائج المغتلم[2] الذي لا يلتفت إلى شيء، فإن حزبه[3] أمر تهاون به، وإن أضاع الأمور حمل ذلك على قرنائه». وقال: «إن كان للملوك فضل في مملكتها، فإن للحكماء فضلًا في حكمتها أعظم؛ لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم، وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال».

٣٣- وقال: «ومن ذا الذي غالب القدر، ومن ذا الذي بلغ من الدنيا جسيمًا من الأمور فلم يبطر، ومن ذا الذي طلب من اللئام فلم يحرم، ومن ذا الذي خالط

(١) الإملاق: الفقر، وضرب له: بحث عنه، تقول: ضربت له الأرض كلها فلم أجده.
(٢) المغتلم: الذي غلبته الشهوة.
(٣) حزبه الأمر: نابه واشتد عليه.

الأشرار فسلم، ومن ذا الذي صحب السلطان فدام له منه الأمن والإحسان؟ ولقد صدق الذي قال: مثل السلاطين في قلة وفائهم لمن صحبهم، وسخاء أنفسهم بمن فقدوا من قرنائهم، كمثل البَغِيّ كلما فقدت واحدًا جاء آخر».

٣٤- وقال: «فقد علمتم نتيجة رأيي وصحة فكري، وإني لم آته جهلًا به، لأني كنت أسمع من الحكماء قبلي تقول: إن الملوك لها سكرة كسكرة الشراب، فالملوك لا تفيق من السكرة إلا بمواعظ العلماء وآداب الحكماء. والواجب على الملوك أن يتعظوا بمواعظ العلماء، والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها، وتأديبها بحكمتها، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم، ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج، والخروج عن العدل؛ فوجدت ما قالت العلماء فِرضًا واجبًا على الحكماء لملوكهم، ليوقظوهم من سِنة سكرتهم، كالطبيب الذي يجب عليه في صناعته حفظ الأجساد على صحتها، أوردّها إلى الصحة، فكرهت أن يموت أو أن أموت، وما يبقى على الأرض إلا من يقول: إنه كان بيدبا الفيلسوف في زمان دبشليم الطاغي فلم يرده عما كان عليه. فإن قال قائل: إنه لم يمكنه كلامه خوفًا على نفسه، قالوا: كان الهرب منه ومن جواره أولى به، والانزعاج عن الوطن شديد، فرأيت أن أجود بحياتي فأكون قد أتيت فيما بيني وبين الحكماء بعدي عُذرًا، فحملتها على التغرير أو الظفر بما أريده؛ وكان من ذلك ما أنتم معاينوه؛ فإنه يقال في بعض الأمثال: إنه لم يبلغ أحد مرتبة إلا بإحدى ثلاث: إما بمشقة تناله في نفسه، وإما بوضيعة في ماله، أو وَكْس[1] في دينه؛ ومن لم يرتكب الأهوال لم ينل الرغائب».

٣٥- وقد يقال: الزم ذا العقل وذا الكرم، واسترسل إليهما، وإياك مفارقتهما، وأصحب الصاحب إذا كان عاقلًا كريمًا، أو عاقلًا غير كريم، أو كريمًا غير عاقل،

---

(١) الوضيعة: الخسارة، والوكس: النقصان.

فالعاقل الكريم كامل، والعاقل غير الكريم اصحبه، وإن كان غير محمود الخليقة؛ واحذر من سوء أخلاقه، وانتفع بعقله، والكريم غير العاقل الزمه ولا تدع مواصلته، وإن كنت لا تحمد عقله، وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك، والفرار كل الفرار من اللئيم الأحمق.

٣٦- فقلت في نفسي: ما الإخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلا بالمال، ووجدت من لا مال له إذا أراد أمرًا قعد به العُدْم[١] عما يريده، كالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الشتاء، لا يمر إلى نهر، ولا يجري إلى مكان، فتشربه أرضه. ووجدت من لا إخوان له لا أهل له، ومن لا ولد له لا ذكر له، ومن لا مال له لا عقل له ولا دنيا ولا آخرة؛ لأن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه؛ فإن الشجرة النابتة في السباخ، المأكولة من كل جانب، كحال الفقير المحتاج إلى ما في أيدي الناس؛ ووجدت الفقر رأس كل بلاء، وجالبًا إلى صاحبه كل مقت، ومعدن النميمة؛ ووجدت الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنًا، وأساء به الظن من كان يظن به حسنًا، فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعًا، وليس من خَلة[٢] هي للغنى مدح إلا وهي للفقير ذم، فإن كان شجاعًا قيل: أهوج، وإن كان جوادًا سُمي مبذرًا، وإن كان حليمًا سمي ضعيفًا، وإن كان وقورًا سمي بليدًا؛ فالموت أهون من الحاجة التي تحوج صاحبها إلى المسألة، ولا سيما مسألة الأشحاء واللئام، فإن الكريم لو كلف أن يدخل يده في فم الأفعى فيخرجَ منه سمًّا فيبتلعه، كان ذلك أهون عليه وأحب إليه من مسألة البخيل اللئيم.

---

(١) العدم: الفقر.

(٢) الخلة (بفتح الخاء) : الخصلة، وجمعها: خلال.

٣٧- ثم تذكرت فوجدت البلاء في الدنيا إنما يسوقه الحرص والشَرَه، ولا يزال صاحب الدنيا في بلية وتعب ونصب، ووجدت تجشم الأسفار البعيدة في طلب الدنيا أهون عليَّ من بسط اليد إلى السخي بالمال، ولم أرَ كالرضا شيئًا، ووجدت العلماء قد قالوا: لا عقل كالتدبير، ولا ورع ككف الأذى، ولا حسب كحسن الخلق، ولا غنى كالرضا، وأحق ما صبّر الإنسان على الشيء نفسه، وأفضل البر الرحمة، ورأس المودة الاسترسال(١)، ورأس العقل معرفة ما يكون مما لا يكون. وقالوا: الخرَس خير من اللسان الكذوب، والضر والفقر خير من النعمة والسعة من أموال الناس.

٣٨- واعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل، وأن المريض الذي قد علم دواء مرضه إن لم يتداوَ به لم يُغن علمه به شيئًا، ولم يجد لدائه راحة ولا خفة؛ فاستعمل رأيك، ولا تحزن لقلة المال، فإن الرجل ذا المروءة، قد يكرم على غير مال، كالأسد الذي يُهاب وإن كان رابضًا، والغني الذي لا مروءة له يُهان وإن كان كثير المال، كالكلب لا يُحفل به وإن طُوِّق وخُلخل(٢) بالذهب؛ فلا تَكْبُرَنّ عليك غربتك، فإن العاقل لا غربة له، كالأسد الذي لا ينقلب إلا معه قوته؛ فلتحسن تعهدك لنفسك، فإنك إذا فعلت ذلك جاء الخير يطلبك، كما يطلب الماء انحداره. وإنما جعل الفضل للحازم البصير، وأما الكسلان المتردد فإن الفضل لا يصحبه، كما أن المرأة الشابة لا تطيب لها صحبة الشيخ الهرم؛ وقد قيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء: ظل الغمامة في الصيف، وخِلّة الأشرار، والبناء على غير أساس، والنبأ الكاذب، والمال الكثير؛ فالعاقل لا يحزن لقلته، ولكن ماله وعقله وما قدم من صالح عمله،

(١) استرسل إليه: انبسط واستأنس.

(٢) جعل له طوق وخلخال.

فهو واثق بأنه لا يسلب ما عمل، ولا يؤاخذ بشيء لم يعمله، وهو خليق أن لا يغفل عن أمر آخرته، فإن الموت لا يأتي إلا بغتة ليس له وقت معين.

٣٩- قلما ظفر أحد بغنيٍّ ولم يطغَ، وقلما حرص الرجل على النساء ولم يفتضح، وقلَّ من وثق بوزراء السوء وسلم من أن يقع في المهالك.

٤٠- ومنه: وقد قيل: إن خصالًا ثلاثًا لن يستطيعها أحد إلا بمعونة من علو همة وعظيم خطر، منها: صحبة السلطان، وتجارة البحر، ومناجزة العدو؛ وقد قالت العلماء في الرجل الفاضل الرشيد: إنه لا ينبغي أن يُرى إلا في مكانين، ولا يليق به غيرهما: إما مع الملوك مكرَّمًا أو مع النساك متعبدًا، كالفيل إنما جماله وبهاؤه في مكانين: إما أن تراه وحشيًّا أو مركبًا للملوك.

٤١- ووجدت صرعة اللين والرفق أسرع وأشد استئصالًا للعدو من صرعة المكابرة، فإن النار لا تزيد بحدتها وحرها إذا أصابت الشجرة على أن تحرق ما فوق الأرض منها، والماء بلينه وبرده يستأصل ما تحت الأرض منها؛ ويقال: أربعة أشياء لا يستقل قليلها: النار والمرض والعدو والدَّيْن. قال الغراب: وكلُّ ذلك كان من رأي الملك وأدبه وسعادة جَدّه، وأنه كان يقال: إذا طلب اثنان أمرًا ظفر به منهما أفضلهما مروءة، فإن اعتدلا في المروءة فأشدهما عزمًا، فإن استويا في العزم فأسعدهما جَدًّا؛ وكان يقال: من حارب الملك الحازم الأريب المتضرع[1] الذي لا تبطره السراء ولا تدهشه الضراء، كان هو داعي الحتف إلى نفسه، ولا سيما إذا كان ذلك أيها الملك العالم بفروض الأعمال، ومواضع الشدة واللين، والغضب والرضا، والمعاجلة والأناة، الناظر في أمر يومه وغده، وعواقب أعماله. قال الملك للغراب: بل برأيك

(١) التضريع: التقرب في روغان كالتضرع.

وعقلك ونصيحتك ويُمن طالعك كان ذلك، فإن رأى الرجل الواحد العاقل الحازم أبلغ في هلاك العدو من الجنود الكثيرة من ذوي البأس والنجدة والعدو والعُدة.

٤٢- ينبغي للعاقل أن لا يغفل عن التماس ما في نفس أهله وولده وإخوانه وصديقه، عند كل أمر وفي كل لحظة وكلمة، وعند القيام والقعود وعلى كل حال، فإن ذلك كله يشهد على ما في القلوب. وقد قالت العلماء: إذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم في التحفظ منه، وليتفقد ذلك في لحظاته وحالاته، فإن كان ما يظن حقًّا ظفر بالسلامة، وإن كان باطلًا ظفر بالحزم ولم يضرّه ذلك.

٤٣- ومنه: وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك إذا غدرت بصاحبك فأنت لا شك بمن سواه أغدر، وأنه إذا صاحب أحد صاحبًا وغدر بمن سواه، فقد علم صاحبه أنه ليس عنده للمودة موضع، فلا شيء أضيعُ من مودة تُمنَح من لا وفاء له، وحِباءٍ يُصطنع عند من لا شكر له، وأدب يُحمل إلى من لا يتأدب به ولا يسمعه، وسرّ يُستودع عند من لا يحفظه، فإن صحبة الأخيار تروث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر، كالريح إذا مرت بالطِّيب حملت طيبًا، وإذا مرت بالنتن حملت نَتَنًا.

٤٤- قال الملك: لا خير فيمن لا يستطيع الإعراض عما في نفسه حتى ينساه ويهمله، فلا يذكر منه شيئًا، ولا يكون له في نفسه موقع. قال فَنْزَةُ: إن الرجل الذي في باطن قدمه قرحة إن هو حرص على المشي، فلا بد أن تُنْكأ قرحته، والرجل الأرمد العين إذا استقبل بها الريح تعرَّض لأن تزداد رمدًا، وكذلك الواتر إذا دنا من الموتور[1] فقد عرض نفسه للهلاك. ولا ينبغي لصاحب الدنيا إلا توقي المهالك والمتالف، وتقدير الأمور، وقلة الاتكال على الحول والقوة، وقلة الاغترار بمن لا يؤمن، فإنه من اتكل على قوته فحمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف فقد سعى

(١) الموتور: من قُتل له قتيل فلم يدرك بدمه.

في حتف نفسه، ومن لا يُقَدّر لطاقته طعامه وشرابه وحَمّل نفسه ما لا تطيق ولا تحمل فقد قتل نفسه، ومن لم يُقَدّر لقمته وعظمها فوق ما يسع فُوه فربما غصَّ بها فمات. ومن اغتر بكلام عدوه وانخدع له وضيع الحزم فهو أعدى لنفسه من عدوه، ولكن عليه العمل بالحزم والأخذ بالقوة، ومحاسبة نفسه في ذلك، والعاقل لا يثق بأحد ما استطاع، ولا يُقيم على خوف وهو يجد عنه مَذْهبًا؛ وأنا كثير المذاهب، وأرجو أن لا أذهب وجهًا إلا أصبتُ فيه ما يُغنيني، فإن خِلالًا خمسًا من تزوّدهن كفينه في كل وجه، وآنسنه في كل غربة، وقرَّبن له البعيد، وأكسبنه المعاش والإخوان: أولاهن كف الأذى، والثانية حسن الأدب، والثالثة مجانبة الرِّيب، والرابعة كرم الخُلق، والخامسة النُّبل في العمل. وإذا خاف الإنسان على نفسه شيئًا طابت نفسه عن المال والأهل والولد والوطن، فإنه يرجو الخَلف من ذلك كله، ولا يرجو عن النفس خَلفًا؛ وشرُّ المال ما لا إنفاق منه، وشرُّ الأزواج التي لا تُؤاتي بعلها، وشر الولد العاصي العاقُّ والديه، وشر الإخوان الخاذل لأخيه عند النكبات والشدائد، وشر الملوك الذي يخافه البريء ولا يواظب على حفظ أهل مملكته، وشر البلاد بلادٌ لا خصبَ فيها ولا أمن.

٤٥- قال الفيلسوف: أيها الملك إن طبائع الخلق مختلفة، وليس مما خلقه الله في الدنيا مما يمشي على أربع أو على رجلين أو يطيرُ بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان. ولكن من الناس البرُّ والفاجر، وقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة، وأشد محاماة على حَرَمه، وأشكر للمعروف وأقوم به، وحينئذ يجب على ذوي العقول من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه، ولا يضيّعوه عند من لا يحتمله ولا يقوم بشكره، ولا يصطنعون أحدًا إلا بعد الخبرة بطرائقه، والمعرفة بوفائه ومودته وشكره، ولا ينبغي أن يختصموا بذلك قريبًا لقرابته، إذا كان غير محتمل للصنيعة، ولا أن يمنعوا معروفهم ورِفدهم للبعيد، إذا كان يقيهم

بنفسه وما يقدر عليه، لأنه يكون حينئذ عارفًا بحق ما اصطُنع إليه، مؤديًا لشكر ما أنعم عليه، محمودًا بالنصح، معروفًا بالخير، صدوقًا عارفًا، مؤثرًا لحميد الفعال والقول، وكذلك كل من عرف بالخصال المحمودة ووثق منه بها كان للمعروف موضعًا، ولتقريبه واصطناعه أهلًا، فإن الطبيب الرفيق العاقل لا يقدر على مداواة المريض إلا بعد النظر إليه، والجَسِّ لعروقه، ومعرفة طبيعته، وسبب علته، فإذا عرف ذلك كله حق معرفته أقدم على مداواته، فكذلك العاقل لا ينبغي له أن يصطفي أحدًا ولا يستخلصه إلا بعد الخبرة، فإن من أقدم على مشهور العدالة من غير اختبار، كان مخاطرًا في ذلك ومشرفًا منه على هلاك وفساد. ومع ذلك ربما صنع الإنسان المعروف مع الضعيف الذي لم يجرب شكره، ولم يعرف حاله في طبائعه، فيقوم بشكر ذلك ويكافئ عليه أحسن المكافأة. وربما تحذر العاقل من الناس ولم يأمن على نفسه أحدًا منهم. وقد يأخذ ابن عرس فيدخله في كمه، ويخرجه من الآخر، كالذي يحمل الطائر على يده، فإذا صاد شيئًا انتفع به وأطعمه منه. وقد قيل: لا ينبغي لذي العقل أن يحتقر صغيرًا ولا كبيرًا من الناس، ولا من البهائم، ولكنه جدير بأن يبلوهم ويكونَ ما يصنع إليهم على قدر ما يرى منهم.

٤٦- لا يخفى فضل ذي العلم وإن أخفاه، كالمسك يخبى ويستر، ثم لا يمنع ذلك رائحته أن تفوح. الرجل ذو المروءة يكرم على غير مال كالأسد يهاب وإن كان رابضًا، والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كان غنيًّا، كالكلب يهون على الناس وإن عسّ[1] وطوّف. المودة بين الصالحين سريع اتصالها بطيء انقطاعها، كآنية الذهب التي هي بطيئة الانكسار، هينة الإعادة، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها، كآنية الفخار يكسرها أدنى شيء ولا وصل لها. لا يرد بأس العدو القوي بمثل التذلل له، كما أن العشب إنما يسلم من الريح العاصف بلينه لها وانثنائه معها.

---

(١) عس: طاف بالليل.

لا يجب للمذنب أن يفحص عن أمره لقبح ما ينكشف عنه كالشيء المنتن كلما أثير ازداد نتنًا. من صنع معروفًا لعاجل الجزاء فهو كملقي الحب للطير لا لينفعها بل ليصيدها به. المال إذا كان له مدد يجتمع منه ولم يصرف في الحقوق أسرع إليه الهلاك من كل وجه، كالماء إذا اجتمع في موضع ولم يكن له طريق إلى النفوذ تفجر من جوانبه فضاع. الأدب يُذهب عن العاقل السكر، ويزيد الأحمق سكرًا، كالنهار يزيد البصير بصرًا، ويزيد الخفاش سوء بصر. الدنيا كدودة القز لا تزداد بالإبريسيم على نفسها لفًّا، إلا ازدادت من الخروج بعدًا. إذا عثر الكريم لم ينتعش إلا بكريم، كالفيل إذا توَحَّل لم يقلعه إلا الفيلة. يبقى الصالح من الرجال صالحًا حتى يصاحب فاسدًا، فإذا صاحبه فسد، مثل مياه الأنهار تكون عذبة حتى تخالط ماء البحر، فإذا خالطته ملحت.

قصدنا بالتوسع في النقل من حكم ابن المقفع لتكون من المستفيد على طرف الثمام[1]، ويعاور تلاوتها كلما اتسع له وقته، ويتدبر ما فيها من المعاني والأفكار، ليتخذ منها عونًا على تفهم الحياة والمجتمع، ويجعل هذا الكلام المنظم درسًا يمعن في تبحره وتدبره، كما قال هو في غرض كتابه كليلة ودمنة: «وينبغي لمن قرأ ذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له، وإلى أي غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم، وأضافه إلى غير مُفْصِح، وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالًا، فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني، ولا أي ثمرة يُجتنى منها، ولا أي نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب».

(١) الثمام: نبت، ويقال لما لا يعسر تناوله على طرف الثمام لأنه لا يطول.

قصدنا أن يجعل طالب البلاغة من كلام ابن المقفع مثالًا صالحًا يحتذيه في الإفصاح عن ذات نفسه، وأن يتدبره كيف ينتقي ألفاظه ليصوغ بها تراكيبه ويأتي بهذه المعاني، وهي وإن لم تكن جديدة بما فيها فجديدة بوضعها وصنعها.

بقي علينا أن نختار قطعًا قليلة من رسائله مطولاتها ومختصراتها؛ ومن المطولات نأخذ من رسالته في الصحابة، صحابة الخليفة وأقرانه؛ ومن المختصرات نقتبس رسائل مفردة.

فمما قال في الأولى في إصلاح جند الدولة وهو أول ما يسترعى نظر صاحبها: «فمن الأمور التي يذكر بها أمير المؤمنين، أمتع الله به، أمر هذا الجند، من أهل خراسان، فإنهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام، وفيهم منعة بها يتم فضلهم إن شاء الله. أما هم فأهل بصر بالطاعة، وفضل عند الناس، وعفاف نفوس وفروج، وكف عن الفساد، وذل للولاة، فهذه حال لا نعلمها توجد عند أحد غيرهم. وأما ما يحتاجون فيه إلى المنعة من ذلك تقويم أيديه ورأيهم وكلامهم، فإن في ذلك اليوم اختلاطًا من رأس مفرط غالٍ، وتابع متحير شاك؛ ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة، فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآه، والراكب أشد وجلًا. فلو أن أمير المؤمنين كتب لهم أمانًا معروفًا بليغًا وجيزًا محيطًا بكل شيء يجب أن يقول فيه، ويكفوا عنه، بالغًا في الحجة، قاصرًا عن الغلو، يحفظه رؤساؤهم، حتى يقودَ به دهماءهم، ويتعهد به منهم من لا يؤبه له من عُرْض الناس، لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحًا، وعلى من سواهم حجة، وعند الله عذرًا».

يريد أن يضع الخليفة لجيش خراسان قانونًا يعمل به قواده وجنده، حتى لا تكون الأمور فيه فوضى، ويربي تربية عسكرية يكون معها صاحب الأمر على ثقة من

بلائه كل حين. ومما قال بعد ذلك: «ومما ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولي أحدًا منهم شيئًا من الخراج، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة».

وهذا رأي ابن المقفع في هذه الرسالة أيضًا في فوضى الأحكام. قال: «ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمرًا عظيمًا في الدماء والفروج والأموال، فيستحل الدم والفرج بالحيرة، وهما يحرمان بالكوفة، ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة، فيستحلُّ في ناحية منها ما يحرم في ناحية أخرى، غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم، يقضي به قضاة جائز أمرهم وحكمهم، مع أنه ليس مما ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لجَّ بهم العجب بما في أيديهم، والاستخفاف ممن سواهم، فأقحمهم ذلك في الأمور التي يَشْنَع بها من سمعها من ذوي الألباب. أما من يدعي لزوم السنة منهم، فيجعل ما ليس له سنةٌ سنةً، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة، على الأمر الذي يزعم أنه سنة. وإذا سُئل عن ذلك لم يستطع أن يقول: هُرِيق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده، وإذا قيل له: أي دم سفك على هذه السُّنة التي تزعمون؟ قالوا: فَعَل ذلك عبد الملك بن مروان، أو أمير من بعض أولئك الأمراء؛ وأما من يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول في الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولًا لا يوافقه عليه أحد من المسلمين، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه، وهو مقر أنه رأْي منه لا يحتج بكتاب ولا سنة. فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فتُرفع إليه في كتاب، ويُرفع معها ما يحتج به كل قوم من سُنَّة أو قياس، ثم نظر أمير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ويَعْزُم له عليه، وينهى عن القضاء بخلافه، وكتب بذلك كتابًا جامعًا، لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة

الصواب بالخطأ حكمًا واحدًا صوابًا؛ ورجونا أن يكون اجتماع السير قربة لإجماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه، ثم يكون ذلك من إمام آخر، آخر الدهر إن شاء الله».

والرسالة كلها على هذا النحو لم يترك فيها ابن المقفع معنى يستفيد منه الخليفة في سلطانه إلا وأشار إليه فيه إشارة كافية شافية، ومن هذا الكتاب استبان أن ابن المقفع كما يحسن الاختصار أبدًا، يخرج منه إذا كان في خروجه منه فائدة، وأي فائدة أعظم من وضعه دستورًا تسير عليه مملكة آل العباس؟

ومن رسائله المختصرة إلى صديق ولدت له جاريه:

«بارك الله لكم في الابنة المستفادة، وجعلها لكم رينًا، وأجرى لكم بها خيرًا، فلا تكرهها فإنهن الأمهات والأخوات والعمات والخالات، ومنهن الباقيات الصالحات، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم، ورب جارية فرحت أهلها بعد مساءتهم».

وله تعزية عن ولد:

«أعظم الله على المصيبة أجرك، وأحسن على جليل الرزء ثوابك، وعجل لك الخلف فيه، وذخر لك الثواب عليه».

وله تعزية عن ابنة:

«جدد الله لك من هبته ما يكون خلفًا لك مما رزئته، وعوضًا من المصيبة به، ورزقك من الثواب عليه أضعاف ما رزأك به منها: فما أقل كثير الدنيا في قليل الآخرة، مع فناء هذه ودوام تلك».

وله تعزية عن ابنة:

«لا ينقص الله عددك، ولا ينزع عنك نعمته التي ألبسك، وأحسن العوض لك، وجعل الخلف لك خيرًا مما رزأك، وما أعطاك خيرًا مما قبض منك».

وله:

«أما بعد؛ فإن من قضى الحوائج لإخوانه، واستوجب بذلك الشكر عليهم، فلنفسه عَملَ لا لهم، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكره فهو زرع لا بد لزارعه من حصاده، أو لعقبه من بعده. وكتبت إليك ولحالنا التي نحن بها فيها نذكرك حاجة أول ما فيها معروف تستوجب به الشكر علينا، وتدخر به الأيادي قِبَلنا».

وله في السلامة:

«أما بعد؛ فإن مما نمق الله به مناقبك الكريمة المحمودة، الغانية عنة القول والوصف، أنك مُوضع المؤنات عن إخوانك، حَمّال عنهم أثقال الأمور، مما وضعت عنه المؤنة ارتفاعك عن الأمور التي يطأطأ إليها الكلام على ألسنة الناس، إذ أباحوه وبهرجوه، وضيعوا القول ونسوا القصد فيه، وأخذوا به في كل فن، وأصفوا بصفوته غير أهلها فيما لا ينبغي لهم من التشبيه والتوقير والتفضيل. كان من خبري بعدك أني قدمت بلد كذا فتهيأ لي بعض ما شخصت له، والمحمود على ذلك الله عز وجل، وأنا على أن يأتيني خبرك محتاج؛ فأما جملة خبري في فراقك، فقلبي مكة كل ما سواك حرام فيها».

وله جواب في السلامة:

«أما بعد؛ فقد أتاني كتاب الأمير رجعة كتابي إليك، فكان فيه تصديق الظن، وتثبيت الرأي، ودرك البغية، والله محمود، فأمتع الله بالأمير وأمتعه بصالح ما آتاه، وزاده من الخيرات مستعمرًا له فيه، مستعملًا بطاعته التي بها يفوز الفائزون، والذي رزق الله من الأمير فهو عندي عظيم نفيس، وكل الذي قِبَلي عن مكافأته فمقصر، إلا أنه ليس في النية تقصير، ولا بلوغ لشيء من الأمور إلا بتوفيق الله عز وجل ومعونته، والسلام».

وله في السلامة:

«أما بعد؛ فقد أتاني كتابك فيما أخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح من قِبَلك، وفي الذي ذكرت من ذلك نعمة مجللة عظيمة، نحمد عليها وليها المنعم المفضل المحمود، ونسأله أن يلهمنا وإياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأدية حقها. وسألت أن أكتب إليك بخبرنا، ونحن من عافيته وكفايته ودفاعه على حال لو أطنبت في ذكرها، لم يكن في ذلك إحصاء للنعمة، ولا اعتراف لما يكنه الحق، فنرغب إلى الذي تزداد نعمه علينا في كل يوم وليلة تظاهرًا، ألا يجعل شكرنا منقوصًا ولا مدخولًا، وأن يرزقنا من كل نعمة كفاءها[1] من المعرفة بفضله فيها والعمل في أداء حقها، إنه ولي قدير».

وله في التعزية:

«أما بعد؛ فإن أمر الآخرة والدنيا بيد الله، هو يدبرهما ويقضي منهما ما يشاء، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، فإن الله خلق الخلق بقدرته، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة، لئلا يطمع أحد من خلقه في خُلْد الدنيا، ووقَّت لكل شيء ميقات أجل،

(١) جزاءها.

لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، فليس أحد من خلقه إلا وهو مستيقن بالموت، لا يرجو أن يخلصه من ذلك أحد. نسأل الله خير المنقلب. وبلغني وفاة فلان فكانت وفاته من المصائب العظام التي يُحتسب ثوابها من ربنا الذي إليه منقلبنا ومعادنا، وعليه ثوابنا. فعليك بتقوى الله والصبر، وحسن الظن بالله، فإنه جعل لأهل الصبر صلواتٍ منه ورحمة، وجعلهم من المهتدين».

وكتب:

«أما بعد، أصلحنا الله وإياك صلاحًا دائمًا يجمع لنا ولك به الفضيلة في العاجلة، والكرامة في الآجلة، فإني لا أعرف أمرًا أعظم عند أهل منفعة من أمر ترك ذكره لفضله، ولا أعلم أمرًا أحق بأن يستغني أهله بفضله عندهم عن ذكره فيما بينهم، من أمر أرسخ الله بيننا وبينك أسبابه، وثبت حقوقه، وعظم حرمته، فأبقى الله لنا ولك ما أحرزه بيننا وبينك في الدنيا، حتى نكون إخوانًا في الآخرة حين تصير الخلة عداوة بين أهلها، إلا صلة المتقين».



سهل بن هارون

منبته ونسبه:

ولد سهل بن هارون[1] في مدينة مَيسان بين واسط والبصرة، وفي رواية في دَسْتُميسان، كورة بين الأهواز وواسط والبصرة، في أواخر النصف الأول من القرن الثاني تقديرًا. ولا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هارون بن راهبون (راهيون) وكنيته أبو عمرو، فارسي الجنس، أهوازي أو خوزي المولد، عراقي المنشأ، تحوَّل إلى البصرة في سن لم تعرف، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم في الدولة الإسلامية (وقبة الإسلام وخزانة العرب)، حوت من حصائل[2] العلم الإنساني أصوله وفروعه، ومن القائمين على تنميته مصاقعه وفحوله، فغذى روحه بلبان مجالسها ومجامعها، واستنار عقله مما اقتبسه من نور معارفها، فتخرج بعلمائها، وكانوا طبقة عالية في كل مطلب من مطالب الآداب.

---

(١) لم يترجم القفطي لسهل بن هارون في أخبار الحكماء، ولا ابن خلكان في وفيات الأعيان، ولا البيهقي في حكماء الإسلام، ولا السمعاني في الأنساب، ولا الأنباري في طبقات الأدباء، ولا الخطيب في تاريخ بغداد؛ وترجم له تراجم موجزة كل من ياقوت في معجم الأدباء، والصفدي في الوافي بالوفيات، والصلاح الكتبي في فوات الوفيات وفي عيون التواريخ، وابن نباتة في شرح رسالة ابن زيدون، وابن بدرون في شرح قصيدة ابن عبدون، والثعالبي في المضاف والمنسوب. وترجم له كرامر من علماء المشرقيات في معلمة الإسلام؛ واقتصر على ما قاله المترجمون فيه، وفاته أنه كان من رجال الرشيد وقال: إنه لم يجتمع بالجاحظ.

(٢) التحصيل: تمييز ما يحصل، والاسم الحصيلة.

وكانت البصرة بل المملكة الإسلامية أخذت في تلك الحقبة تتمازج فيها مدنية العرب بمدنية الفرس والروم والهند، وبدأت المذاهب الفلسفية تتسرب إلى المجتمع الإسلامي، وعلماء الأمة يتعاورهم الجزر والمد على شاطئ بحر الحكمة القديمة، شأن مدينة البصرة مع خليجها، يَمُدُّ ماؤها ويَجْزِر على الدوام؛ وما زالوا هذا حالهم يغوصون في بحار الأفكار، حتى أخرجت عقولهم دررًا غريبة كما يخرج بحرهم الجواهر واللآلئ الثمينة؛ وكانت النفوس حريصة على الدين الذي دُوِّن وحُرر، راغبة كل الرغبة في الأخذ مما لا عهد لها به من علوم الأمم السالفة، وفي هذه البيئة انبعث عقل سهل بن هارون لأول أمره، في أرض صالحة لإنماء العقل وإطلاقه من قيوده. ولم يُعرف إذا كان رحل إلى الروم وفارس والشام ومصر؛ والغالب أنه لم تتعد تنقلاته مدنًا عربية أربعًا، وهي: مدينة الرقة قصبة ديار مضر، والرُّصافة رصافة هشام في أوائل تخوم الشام، واكتفى بالبصرة وبغداد، وكانت بغداد أجمل مدن الأرض في ذاك العصر، وفيها كل شيء جديد، سواء أكان ذلك في خططها ومرافقها، أو في عقول أهلها ونبوغ علمائها، يُحمل إليها من الآفاق بدائع ما صنع البشر ونَتَجت عقولهم، والدول سوق يحمل إليها ما يروج فيها.

لا نعلم على التحقيق منشأ والد سهل، ولا مظهره ومذهبه، ولا أصل أمه وتربيتها، ولا معلميه في بلده، ولا أسانيده في البصرة، ولا أترابه ولِداته في صباه، ولا غير ذلك من العوامل التي لها الشأن الأكبر في تربية الملكات، وتلقين الأخلاق والعادات، يُنشأ عليها الفتى فتطبع حياته بطابع خاص، تتعذر في عقود العمر الآخرة إحالتها واستحالتها؛ ومن المعقول أن يكون قانون الوراثة أورثه جراثيم دم الفرس وحكمتها، ونظامها وأدبها، وضم إليها الثقافة العربية، فجاءت منازعه خليطًا نافعًا، ومداركه متينة رصينة.

أضف إلى هذا أن مملكة بني العباس كانت سيدة الممالك، على ما كانت البصرة سيدة البلاد، وربما كان العصر الذي نشأ فيه سهل بن هارون أجمل عصور التاريخ، والمُلك موحَّد من المغرب في شمالي إفريقية إلى حدود الشرق، وليس في الأرض حكومة إسلامية غير الأندلس بيد بني مروان: لا غوائل ولا فتن في الداخل والخارج، يشتمل الناس على السلامة، ويغتبطون بما أُوتوا في سلطان بني هاشم، وكلما نجم ناجم من العلويين أو غيرهم كانت جيوش العباسيين تقضي عليه، فضعف النازعون إلى منازعة الخلفاء حبل السلطة. وغدت ممالك الشرق والغرب تتنافس في رضا خليفة العرب، والملك من ملوك أسيا وأروبا إذا تيسر لقاصده أو سفيره أن يتشرف بالحضرة حضرة بني العباس يسعد ويعتز في سلطانه، ويعد ذلك نعمة حازها دون أقرانه.

مذهبه وأخلاقه:

قيل: إن سهل بن هارون كان شيعيًّا، وشيعة العراق في زمنه كانوا على الإطلاق معتزلة، ولم يؤثر عنه أن تنقص أحدًا من الصحابة الكرام، وعرف بالاعتدال مع الأموات اعتداله مع الأحياء، وما أُثر عنه أنه خاض غمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها إذ ذاك، ولا سيما في البصرة وبغداد دار السلام. واتهموه بأنه كان من الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب، ولا يرون لهم على العجم فضلًا، والشعوبي منسوب إلى قوله تعالى: {وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم}. ومذهب الشعوبية نشأ على الأرجح بُعَيْدَ عصر الخلفاء، باشتداد قوة التجاذب والتدافع بين أرباب العصبيات، وكان من أثر ذلك التفاخر بالجنس الذي جاء الإسلام بإبطاله. ولو كان للجنس يفضل المرء في الأمة، ما نزل سلمان الفارسي وصُهيب الرومي وبلال الحبشي من الرسول تلك المنزلة العالية. والدين لا يفاضل إلا بالتقوى.

إذا عرفت هذا فادفع عن سهل دعوى الشعوبية غير خائف ولا متلجلج؛ فاعتداله يمنعه إلا أن يقدر لكل عنصر خصائصه، وهو لم يُعَدَّ رجلًا مذكورًا إلا بالإسلام، والأخذ عن علماء العرب، ورقى في مظاهر الدنيا حتى وصل إلى أعظم خلفاء العباسيين هارون الرشيد وعبد الله المأمون، وصار أحد أئمة البيان والحكمة في الأمة العربية، ودُعي لحكمته وعقله «بُزُرْجُمهر الإسلام» وبزرجمهر وزير أنوشروان العادل، من ملوك آل ساسان، اشتهر بالعدل والحكمة.

وصفه الجاحظ فقال: كان سهل سهلًا في نفسه، عشيق الوجه، حسن الشارة، بعيدًا من الفدامة[1]، معتدل القامة، مقبول الصورة، يقضى له بالحكمة قبل الخبرة، وبرقة الذهن قبل المخاطبة، وبدقة المذهب قبل الامتحان، وبالنبل قبل التكشف[2]. وكان الجاحظ مازجه وثافنه. وقيل للحراني -ولعله إبراهيم بن ذكوان كاتب الهادي ووزيره-: بينك وبين سهل بن هارون صداقة فانعته لنا كي نعرف، فقال: هو كالخير، وازن العلم، واسع الحلم، إن حُودث لم يكذب، وإن مُوزح لم يغضب، كالغيث أين وقع نفع، وكالشمس حيث أولت أحيت، وكالأرض ما حملتها حملت، وكالماء طهور لملتمسه، وناقع لغُلة من أحرَّ إليه، وكالهواء الذي تقطف منه الحياة بالتنسم، وكالنار التي يعيش بها المقرور، وكالسماء التي قد حسنت بأصناف النور. اهـ.

صورتان جمليتان في وصف سهل، صورهما مصوران مبدعان، عاشا بقربه وفتنهما بخُلقه وخَلقه.

(١) الفدامة: العي.

(٢) التكشف: الظهور.

واتهموا سهل بن هارون بالبخل وأوردوا له قصصًا ونوادر، وعدّه الجاحظ من «متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء». قال: ما علمت أن أحدًا جرد في البخل كتابًا إلا سهل بن هارون وأبا عبد الرحمن الثوري. والبخل في الفرس غالب في الجملة، غلبة الكرم على طبائع العرب، فاقتضى ذاك التفريط الذي رآه سهل في تبذير العرب، أن يدلي لقومه بآرائه المفرطة في الاقتصاد والإمساك، وما شوهد قط تفريط، إلا وإلى جانبه إفراط، وربما كان اتهامه بالبخل مبالغًا فيه تُراد به النكتة والنادرة.

حكى الجاحظ قال: لقي رجل سهل بن هارون فقال: هَبْ لي ما لا ضرر به عليك. فقال: وما هو يا أخي؟ قال: درهم. قال: لقد هوّنت الدرهم وهو طائع الله في أرضه لا يعصى، وهو عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف دية المسلم؛ ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذي هونته. وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم؟ فانصرف الرجل، ولولا انصرافه لم يسكت.

وحكى دِعبِل الخزاعي الشاعر قال: أقمنا يومًا عند سهل بن هارون، وأطلنا الحديث حتى أضرَّ به الجوع، فدعا بغدائه، فأُتي بصحفة فيها مرَق تحت ديك هَرِم، فأخذ كسرة وتفقد ما في الصحفة، فلم يجد رأس الديك، فبقي مطرقًا، ثم قال للغلام: أين الرأس؟ قال: رميتُ به. قال: ولِمَ؟ قال: لم أظنك تأكله. قال: ولِمَ ظننت ذلك؟ فوالله إني لأمقت من يرمى برجله فكيف برأسه؟! ولو لم أكره ما صنعت إلا للطِيَرة والفأل لكرهته؛ أما علمت أن الرأس رئيس يتفاءل به، وفيه الحواس الخمس، ومنه يصيح الديك، ولولا صوته ما أُريد، وفيه فَرقه الذي يتبرك به، وعينه التي يضرب بصفائها المثل، فيقال: شراب كعين الديك؛ ودماغه عَجَب لوجع الكلية. ولم أر عظمًا قط أهشَّ تحت الأسنان منه، وإن كان بلغ من نُبلك أنك لا تأكله، فعندنا من يأكله، أوَما علمت أنه خير من طرف الجناح، ومن رأس العنق؟

انظر أين رميته؟ فقال: والله ما أدري. قال:أنا والله أدري، إنك رميت به والله في بطنك، فالله حسيبك.

ولما صنف سهل كتابه في البخل أهداه للحسن بن سهل واستماحه، فكتب إليه الحسن: قد مدحت ما ذمه[1] الله، وحسنت ما قبَّحه الله، وما يقوم بفساد معناك صلاح لفظك، وقد جعلنا ثواب مدحك فيه قبول قولك، فما نعطيك شيئًا، والحسن بن سهل وزير المأمون كان فارسيًّا أيضًا، ولكنه في الجود آية الآيات وصح من شعر سهل قوله:

ولكنني أبكي بعين سخينة ... على جَلل تبكي له عين أمثالي
فراق خليل أو شجى يستشفني ... لخلة أمر لا يقوم لها مالي
فيا كبدي حتى متى القلب موجع ... بُثكل حبيب أو تعذّر إفضال
وما العيش إلا أن تطول بنائل ... وإلا لقاء الأخ بالخلق العاني

ومن يقول هذا الشعر، ويقصد هذا المعنى، لا يكون من البخل على ما وصفوا. قال غولدصهير المجري: إن تمدح ابن هارون بالبخل، نزعة من نزعات الشعوبية، أراد بمدحه الحط من قدر العرب الذين جعلوا الكرم من مفاخرهم الوطنية.

طريقته في الكتابة وتآليفه:

إن رجلًا يفضله الجاحظ، ويصف براعته وحصافته، ويحكي عنه في كتبه، ويظهر إعجابه به إذا ذُكر، ويروي حديثه ومجالسه، هو ولا شك المثل الأعلى في صنوف العلم والآداب، بلغ الذِّروة فيما تفرد به، واشتهر بمعرفته، وكان أهل عصره مجمعين على الإقرار بفضله، قلما يداخلهم الحسد له. كان نسيج وحده في فنه، نابغة

(١) في رواية ياقوت: «لقد مدحت ما دام الله، وحسنت ما قبّح، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معناك. وقد جعلنا ثواب عملك، سماع قولك فما نعطيك شيئًا».

في العلم الذي يمتُّ به، وناهيك بعالم كبير كالجاحظ، وهو في البلاغة يجري مع سهل كفرسي رهان، وفي العقل المثل المضروب أنه كان يؤلف الكتاب فينسبه إلى نفسه، فلا يرى الأسماع تُصغي إليه، ولا الإرادات تُيمم نحوه، ثم يؤلف -كما قال عن نفسه- ما هو أنقص منه مرتبة، وأقل فائدة، فينحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين، ومن طارت أسماؤهم في المصنفين، فيقبلون على كَتْبها، ويسارعون إلى نسخها.

وطريقة سهل في كتابته لا تكلف فيها، ولا يشاهد فيها الناقد أثر التعمل، فهو وابن المقفع والجاحظ من غرار واحد. وقيل: إن سهلًا كاتب سلاطين، والجاحظ مؤلف دواوين. وكأن كلامه نغمة موسيقية تعرف انتهاء جملته من رنتها، بعد أن ملكت عليك مشاعرك، وأدخلت السرور على نفسك، لا يحفل بالأسجاع إلا إذا جاءت عفو الخاطر، ولا يتعمد الجزالة إلا إذا اقتضى الموضوع ذلك، وقلما خلا قوله من نكتة تُحمد له وتحمل عنه. وكأنك في إنشاء سهل تقرأ المعنى قبل اللفظ، وما تنفع القوالب إذا لم يكن علم الكاتب يُملى، والمظاهر والدساتير مستملية. ففي أسلوبه تقرأ لتتعلم، وفي كثير غيره تقرأ ألفاظًا جميلة، وقوالب محكمة. وفي كلمه الطيب تقع على إشباع المعاني، وتقطيع الجمل، والإبلاغ في المزاوجة بين الكلمات ليتأثر السامع، وتفعل البلاغة فعلها في نفسك من طريق الإقناع والبرهان، لا من مجرى التقفية والزخرف، وتوازن الكلمات ورنة الفقرات.

كان سهل يقول الشعر، وأكثر شعره مما أملاه قلبه، في غرض خاص من أغراض المجتمع، وعدَّه الجاحظ من الخطباء والشعراء، الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار، والكتب الكبار المجلدة، والسير الحسان المولدة، والأخبار المدونة. ولقبه مرة بالكاتب، ولعل لقب الكاتب في شرفه كان أكبر من عالم

أو عِدْلًا له. وذكره ابن النديم في البلغاء، وقال: إنه شاعر مقلّ، وعدَّه في الشعراء الكتاب، وقال: إنه كان ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم، هو وعبد الله بن المقفع وعلي بن داود كاتب زبيدة. وشعره خمسون ورقة.

أما الدهشة ففي تآليفه؛ فله ديوان رسائله، وكتاب النمر والثعلب، وكتاب أسباسيوس (أسانوس) في اتخاذ (اتحاد) الإخوان، وكتاب أسد بن أسد، كتاب سحرة العقل، كتاب تدبير الملك والسياسة. كتاب إلى عيسى بن أبان في القضاء، كتاب الفرس، كتاب الغزالين (في رواية الضربين)، كتاب ندود وودود ولدود، كتاب الرياض، كتاب ثعلة وعفراء (وفي رواية ثعلة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودمنة، في حسن نظمه، وقد صنفه للمأمون. ومن تآليفه كتاب الهزلية (الهذلية وفي رواية الهنبلية) والمخزومي، كتاب الوامق والعذراء (العذار)، إلى غير ذلك من المصنفات، ومنها ما عارض به كتب الأوائل.

ولا تعجب إذا رأيت بضعة من تآليف سهل في القصص والأسمار، فإن من الناس من يتعلم بالاحتيال عليه، وصعب عليك أن تثقفه وتخلّقه بالأخلاق الفاضلة، إلا في قالب ظاهره هزل وإحماض، وباطنه تعليم وإرشاد؛ ومن أجل هذا كان هذا اللون من الأدب، مما يلذ المطالع ويفيده، يلقي عليه حكمة بالغة، على نحو ما يفعل معظم القصصيين من أهل المدنية الحديثة. وكان حظ ابن المقفع في هذا الباب أجزل، لأن كتاب كليلة ودمنة اشتهر أكثر من اشتهار ثعلة وعفرة أوغير ذلك من الأوراق التي كسرها سهل على القصص. ولا تدل أسماء كتبه على أنه كتب في موضوع أشبه بديني اللهم إلا كتابه في القضاء؛ أما كتابه في تدبير الملك والسياسة فدليل على أنه قرن العلم بالعمل في هذا الفن السهل الصعب؛ وجميع كتبه مما أبادته الليالي.

حياته السياسية:

لم نهتد إلى زمن انتقال سهل من البصرة إلى بغداد، وسكت التاريخ عن عهد رحيله من مسقط رأسه، وعن سنة ولادته، وغاية ما ذكر في ترجمته أنه كان مختصًّا بالفضل بن سهل أخي الحسن بن سهل وزيري المأمون، وأن الفضل قدمه للمأمون، ولكن كتب المحاضرات والتاريخ تقول: إن سهلًا كان من رجال الرشيد، وإنه دخل عليه وهو يضاحك المأمون فقال: اللهم زده من الخيرات، وابسط له من البركات، حتى يكون في كل يوم من أيامه مُرْبِيًا على أمسه، مقصّرًا عن غده. فقال الرشيد: يا سهل مَن روى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحه وأوضحه، إذا رام أن يقول لا يُعجزه القول. فقال سهل: يا أمير المؤمنين ما ظننت أن أحدًا تقدمني إلى هذا المعنى. قال: بل أعشى همدان حيث يقول:

رأيتك أمس خير بني لُؤي ... وأنت اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنت غدًا تزيد الخير ضعفًا ... كذاك تزيد سادة عبد شمس

وهذا يدل على أن سهلًا اتصل بالرشيد، والمأمون حدث صغير، وأن سهلًا كان معروفًا برواية الشعر والحديث أيضًا. وقد شهد مقتل البرامكة في سنة (١٨٧).

وحدث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال: «إن سجّاعي الخطب ومحبري القريض عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلام يتصور درًّا، ويُحيله المنطق السريُّ جوهرًا، لكان كلامهما، والمنتقى من لفظهما. ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديهته وتوقيعاته في كتبه، فدْمَين عَيين[١]، وجاهلين أميين. ولقد عُمّرت معهم، وأدركت طبقة المتكلمين في أيامه، وهم يرون أن البلاغة

(١) الفدم: العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم، والفدم: الأحمق الجافي (ج) فدام، والعي: الذي لايستطيع النطق.

لم تستكمل إلا فيهم، ولم تكن مقصورة إلا عليهم، ولا انقادت إلا لهم، وأنهم محض الأنام، ولُباب الكرام، ومِلح الأيام: غشق منظر، وجودة مخبر، وجزالة منطق، وسهولة لفظ، ونزاهة نفس، واكتمال خصال، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم، والمأثور من خصالهم، كثيرَ أيام من سواهم، من لدن آدم أبيهم، إلى النفخ في الصور، وانبعاث أهل القبور، جاشا أنبياء الله المكرمين، وأهل وحيه المرسلين، لما باهت إلا بهم، ولا عوّلت في الفخر إلا عليهم، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم، وكريم أعراقهم، وسعة آفاقهم، ورفق ميثاقهم، ومعسول مذاقهم، وبهاء إشراقهم، ونقاوة أعراضهم، وتهذيب أغراضهم، واكتمال خلال الخير فيهم، إلى ملء الأرض مثلهم، في جنب محاسن المأمون، كالنفثة في البحر، والخردلة في المهمة القفر».

وهذا الكلام على ما فيه من حق في وصف البرامكة والرشيد والمأمون لا يخلو من مبالغة لم تكد تعرفها العرب على هذا الوجه، ومن الصعب أن يتجرد المرء عن دمه الذي ورثه.

شهد سهل هذه المأساة مأساة مقتل بني برمك وقال: إن الرشيد لما قتل جعفرًا بعث إليه، وكان معه في الرَّقة يُحصِّل أرزاق العامة مع يحيى بن خالد، ولما حُمل نبأ مقتل جعفر كان سهل بين يدي يحيى يكتب توقيعات في أسفل كتبه لطلاب الحوائج إليه، قد كلفه إكمال معانيها بإقامة الوزن فيها، فلبس ثياب أحزانه؛ لأنه كان على صلة دائمة بالبرامكة قال: فلما دخلت على الرشيد ومثلت بين يديه عرف الذُّعر في تجريض[1] ريقي، والتمايد في طريقي، وشخوصي إلى السيف المشهور ببصري، فقال: «إيهًا يا سهل، من غمط نعمتي، واعتدى وصيتي، وجانب موافقتي، أعجلته

(١) القدم: العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم، والقدم: الأحمق الجافي فدام، والعى والعي: الذي لا يستطيع النطق.

عقوبتي» قال: فوالله ما وجدت جوابها حتى قال: ليفرَخ[١] رَوْعك، وليسكن جأشك؛ وتطب نفسك، وتطمئن حواسك، فإن الحاجة إليك، قرَّبت منك، وأبقت عليك، بما يبسط منقبضك، ويطلق معقولك، فاقتصر على الإشارة دون اللسان، فإنه الحاكم الفاصل، والحسام الناصل، وأشار إلى مصرع جعفر وهو يقول:

من لم يؤدبه الجميل ففي عقوبته صلاحه

قال سهل: فوالله ما أعْلَمُني عَييت بجواب أحد قط، غير جواب الرشيد يومئذ؛ فما عولت في شكره والثناء عليه إلا على تقبيل يديه وباطن رجليه، ثم قال لي: اذهب فقد أحللتك محل يحيى بن خالد، ووهبتك ما ضمُنته أبنيته وحوى سُرادقه؛ فاقبض الدواوين وأحصِ حباءه وحباء[٢] جعفر، لنأمرك بقبضه إن شاء الله. قال سهل: فكنت كمن نُشر عن كفن، وأُخرج من حبس، فأحصيت حباءهما فوجدت عشرين ألف ألف دينار.

وبذلك تبينت منزلة سهل، وكيف أصبح بعد يحيى البرمكي صاحب دواوين الرشيد، ومع ما كان له من الإجلال في الصدور، خاف يوم النازلة بالبرامكة - و(البرامكة من محاسن العالم، ودولتهم من أعظم الدول، وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها)- خاف أن تضمه القافية لصحبته لهم، وامتزاجه بهم؛ وناهيك به يومئذ من موقف صعب، ولكن عقل الرشيد لا تعبث به الأهواء، ويضن بعظيم من رجاله لأسباب تافهة، فأبقى على سهل بن هارون؛ لأنه من مفاخر الملة والدولة. لا جرم أن سهل بن هارون كان في سياسته من حزب الحكومة أو الحزب المعتدل،

(١) فرخ الروع تفريخًا: ذهب، كأفرخ والرجل فزع ورعب، والروع: الفزع.

(٢) الحباء بكسر الحاء: العطاء بلا جزاء ولا من.

تعزب فطرته عن التطرف، ويرى المصلحة في التآلف، ويعدُّ الخروج عن سبيل الجماعة خروجًا عن الطاعة.

والغالب أن عشرة سهل مع الرشيد دامت حتى مات هذا سنة (١٩٣)، ولم يجر له ذكر في عهد الأمين مدة أربع سنين وثمانية أشهر وكسر؛ فالتزم على ما يظهر بيته، واعتزل الفتنة، حتى إذا كانت الخلافة للمأمون أصبح سهل بن هارون من خاصته، كما كان من خاصة أبيه الرشيد من قبل. وروى بعض الرواة أن المأمون كان استقلّ سهل بن هارون؛ وقد دخل عليه يومًا والناس على مراتبهم، فتكلم المأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب، فلما فرغ من كلامه أقبل سهل على الجمع فقال: ما لكم تسمعون ولا تَعُون، وتشاهدون ولا تَفْقهون، وتفهمون ولا تتعجبون، وتتعجبون ولا تُنصفون؟ والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل، عربكم كعجمكم، وعجمكم كعبيدكم؛ ولكن كيف يعرّف بالدواء من لا يشعر بالداء. فرجع المأمون فيه عن الرأي الأول؛ وفي ذلك أيضًا من حسن المأتى، ولطف المدخل والمخرج، ما يعرفه المبتلى بعشرة الملوك والعظماء، ولا سبيل إلى الدخول على أكثرهم إلا بهذه الطرق من التلطف والتزلف، وإن لم يصدق ذلك من كل وجه على الرشيد والمأمون، وهما ما هما في العقل والعلم والعدل. وأخرى وهي أن سهلًا بكلامه هذا، ضرب الحاضرين مجلس المأمون في الصميم، وأنزل من مراتبهم ليستأثر وحده بتلك الرتبة السنية، فنسبهم إلى السكوت في مواطن القول، وإلى القصور في ميدان الاستحسان؛ ومن قعدت به القريحة عن الانبعاث حين الحاجة، كان حريًّا أن لا يعاشر تلك الطبقة من الخلفاء، وهذا من دهائه الكسروي.

رجع المأمون عن رأيه في سهل، وعرف أنه الرجل كلُّ الرجل في صورته وعقله ومفاكهته وغنائه وأدبه، فقربه وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده، وكان

سهل قد أسن بالطبع، ويعرف المأمون مذ كان طفلًا عند الخليفة والده. ولكن المأمون يحترم الكبير وهو جِدّ في جماع أموره، بيد أنه لم يقبل باصطفائه إلا بعد اختباره، وعندما وقع غنده على أمور تفرد بها، وقد لا يجدها فيمن كان اختارهم لعشرته من العلماء، وهم عشرة اختيروا له من مائة.

حياته العلمية:

كان المأمون مولعًا بكتب القدماء والفلاسفة، وعُدَّ ذلك من آكد أعماله في إنهاض مستوى العقل العربي، فأنشأ دارًا جمع فيها كل ما طالت يده إليه من كتب العلم باللغات المختلفة، وكانت جزيرة قبرص في ذاك العهد تَشْغَب كثيرًا على الخلافة، وقد سبى عمال الرشيد أهلها مرة، حتى إذا أفضت الخلافة إلى المأمون هادن صاحب قبرص، وأرسل إليه يطلب خزائن كتب اليونان، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليه أحد أبدًا فيما قيل، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته، وذوي الرأي في بلده، واستشارهم في حمل الخزانة إلى المأمون، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة إلا مطرانًا واحدًا فإنه قال: الرأي أن تعجل بإنفاذها إليه، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها؛ فأرسلها إلى المأمون، ثم صالح المأمون صاحب الروم ميخائيل الثالث على أن يدفع إليه ما عنده من كتب القدماء، وأرسل بعوثًا من ثقاته من المسلمين والنصارى لنسخ ما لا يتأتى لملك الروم إخراجه من الكتب، فاجتمع للمأمون بذلك خزانة عظيمة، فوق ما حمل إليه من الشرق والغرب؛ وجعل سهل بن هارون خازنًا لها، وسماها «بيت الحكمة» وجعل معه عالمًا اسمه سلمة الحراني، كما جعل شريكًا له سعيد بن هارون.

ولا شك أن سهلًا تهيأت له أسباب البحث والنظر في بيت الحكمة التي أصبح ناظرها، بما لم يتهيأ لغيره الوصول إليه؛ خصوصًا وهمة الخليفة منصرفة إلى ترجمة

كتب الفلسفة والعلوم والصناعات؛ لا يهنأ له بال حتى تمسي الخزانة العربية تامة من كل وجه في علوم الدنيا، على ما هي تامة في علوم الدين.

اتسع الأفق أمام عقل سهل، ولم تقف به الهمة عند الأخذ من كتب الفرس، بل تعدتها إلى الأخذ من كل ما طاب له من ضروب المعارف، خصوصًا وانتقاله إلى بغداد بعد البصرة جاء متممًا له بغيته، وكان اختلاطه برجال الخلافة -وهم من كل صنف ونحلة وجنس- معوانًا له على الكمال، وقد يستفيد المرء بالعشرة والتلقي، ما لا يستفيد من تصفح دواوين العلم ومصاحف الفضائل.

ذكروا أن سهل بن هارون تولى خزانة المأمون وتولى خزانة الحكمة له؛ أي أنه كان له منصبان: الإشراف على خزانة المأمون؛ أي خزانة كتبه الخاصة، والنظر على دار الكتب التي سميت «دار الحكمة» أو «بيت الحكمة»، وكلا العملين عظيم في بابه ولكنهما من نمط واحد، وفي ذلك ما يشعر بأن المأمون لم يكن يصبر عليه في قصره، ولا يقنعه منه انصرافه إلى المصالح العامة فقط.

نثره وشعره:

إن النزر القليل الذي وصل إلينا من كلام سهل بن هارون لا يكفي في الحكم عليه. ومن كلام له في كتابه ثعلة وعفرة: «اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدمًا، قبل الذي تجودون به من تفضلكم، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء في أداء الفريضة، شاهد على وَهْن العقيدة، وتقصير الروية، ومضرٌّ بالتدبير، ومخلٌّ بالاختيار، وليس في نفع تحمد به عوضٌ عن فساد المروءة، ولزوم النقيصة». قال الحصري: «وكتابه هذا مملوءٌ حكمًا وعلمًا»، وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر:

عدو تلاد المال فيما ينوبه منوعٌ إذا ما منعه كان أحزما
مذلل نفس قد أبت غير أن ترى مكاره ما تأتي من العيش مغنما

وكتب إلى صديق له أبلَّ من ضعف: «بلغني خبر الفترة في إلمامها وانحسارها، والشَّكاة في حلولها وارتحالها؛ فكاد يَشغل القلق بأوله عن السكون لآخره، وتُذْهل الحيْرة في ابتدائه عن المسرة في انتهائه، وكان تغيري في الحالين بقدرهما ارتياعًا للأولى وارتياحًا للأخرى».

وقال لجارية له رومية أعجمية: «إن أقل ما ينطوي عليه ضميري من رسيس[1] حبك، لأجَلُّ من كل جليل، وأكثر من كل كثير».

ومن كلامه يعزّي: التهنئة بآجل الثواب، أولى من التعزية على عاجل المصيبة. وقال في المعنى: مصيبة في غيرك لك ثوابها، خير من مصيبة فيك لغيرك ثوابها. وقال: حق كل ذي مقالة أن يبدأ بحمد الله قبل استفتاحها، كما بدئ بالنعمة قبل استحقاقها. وقال: تعلموا العلم، فلأن يذم الزمان لكم، خير من أن يذم بكم. ومن كلامه: العفو الذي يقوم مقام العتق، ما سلم من تعداد السقطات، وخلص من تذكار الزلات. وكتب إلى جعفر بن يحيى:

إذا ما أتى يوم يفرق بيننا ... بموت فكن أنت الذي يتأخر

وقال: الصديق لا يحاسب، والعدو لا يحتسب له؛ أي لا يعتدُّ به. وقال: من طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيها؛ ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها. ومن كلامه: كانت زورة فلان أخف من حسوة طائر، ولمعة بارق، وخلسة سارق. وقال: من فضل الجواب على الابتداء، أن الابتداء يوجد في الجواب، ولا يوجد جواب في ابتداء. ومن كلامه: مؤنة المتوقف أيسر من تكلف المتعسف. وقال: لو عرف الزنجي فضل حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف، وتكميل جميل البيان، لما نزع ثناياه.

(١) رس الحمى ورسيسها: أول مسها.

قال محمد بن زياد الزيادي البصري: وجِدت[1] على سهل بن هارون في بعض الأمر فهجوته فكتب إليَّ: «أما بعد، فالسلام على عهدك، وداعَ ذي ظن بك، في غير مَقْلِيَة[2] لك، ولا سلوة عنك، بل استسلام للبلوى في أمرك، وإقرار بالمعجزة عن استعطافك، إلى أوان فيأتك، أو يجعل الله لنا دولة من رجعتك، والسلام». وكتب في أسفل الكتاب:

إن كنت أخطأت أو أسأت ففي ... عفوك مأوى للفضل والمنن
أتيت ما أستحق من خطأ ... فجد بما تستحق من حسَن

وهذا من أعظم مكارم الأخلاق، يُهجى، وهو يسترضي هاجيه.

ومن محاسن تعريضات سهل أنه خاطب بعض الأمراء فقال له: كذبت. فقال: أيها الأمير إن وجه الكذاب لا يقابلك -يعني: الأمير بذلك- لأن وجه الإنسان لا يقابله. ورويت هذه النكتة لغيره.

ومن جميل تأويلاته وذكائه قوله: إن عدد حروف العربية ثمانية وعشرون حرفًا، على عدد منازل القمر، وغاية ما تبلغ الكلمة منها مع زيادتها سبعة أحرف على عدد النجوم السبعة. قال: وحروف انزوائد اثنا عشر حرفًا، على عدد البروج الاثنى عشر. قال: ومن الحروف ما يدغم مع لام التعريف، وهي أربعة عشر حرفًا، مثل منازل القمر المستترة تحت الأرض، وأربعة عشر حرفًا ظاهرة لا تدغم مثل بقية المنازل الظاهرة، وجعل الإعراب ثلاث حركات: الرفع والنصب والخفض؛ لأن الحركات الطبيعية ثلاث حركات: حركة من الوسط كحركة النار، وحركة إلى الوسط كحركة الأرض، وحركة على الوسط كحركة الفلك.

(١) وجد عليه -بكسر الجيم وضمها-: غضب.
(٢) بغض.

وحكى الجاحظ أن أبا الهذيل العلاف المتكلم سأله رُقعة يكتب بها إلى الحسن بن سهل يستعينه على ضائقة لحقته؛ فكتب رقعة وختمها ودفعها إليه، فأوصلها إلى الحسن، فلما رآها ضحك وأوقف عليها أبا الهذيل وإذا فيها مكتوب:

إن الضمير إذا سألتك حاجة ... لأبي الهذيل خلاف ما أبدى
فامنحه رَوْح اليأس ثم امدد له ... حبل الرجاء بمخلف الوعد
وألن له كنفًا ليحسن ظنه ... في غير منفعة ولا رِفد
حتى إذا طالت شقاوة جَده ... وعنائه فاجْبَهه بالرد
وإن استطعت له المضرة فاجتهد ... فيما يضرّ بأبلغ الجهد

ولما قرأ الحسن رقعته وقّع فيها: «هذه -لك الويل- صفتك لا صفتي»، وأمر لأبي الهذيل بألف دينار؛ فعاد إليه فعاتبه، فقال سهل: تُرى أين غرب عنك الفهم؟ أما سمعت قولي: إن الضمير خلاف ما أُبدي؟ فلو لم يكن ضميري الخير ما قلت هذا. قال الجاحظ: هذه من مغالطات سهل وبلاغته.

وروى الثعالبي قال: (حاجة أبي الهذيل) يضرب مثلًا للحاجة، يسألها الإنسان لغيره، ويضمر ضد ما يظهر، ولا يحب قضاءها، إما بخلًا بجاهه، وإما لحاجة أخرى في نفسه. قال: وكان أبو الهذيل سار إلى سهل بن هارون الكاتب، وكان خاصًا بالحسن بن سهل يسأله الكلام في أمره، ويستعينه على ضائقة دفع إليها، فقسار سهل إلى الحسن فكلمه وقال له: قد عرفت أيها الأمير حال أبي الهذيل ومحله وقدره في الإسلام، وأنه متكلم قومه، والرادّ على أهل الإلحاد، وقد فزع إليك لإضاقة هو فيها، فوعده أن ينظر له ما يصلح حاله، وربما كانت أبيات سهل منبعثة من كونه لاحظ -بعد أن كلم الحسن بن سهل بشأن أبي الهذيل- شيئًا من الفتور، فلما أُريد على الشفاعة بأبي الهذيل مرة ثانية كتب تلك الأبيات، ومع هذا ما خلت من نكتة

جميلة. وكان أبو الهذيل يأخذ من السلطان في كل سنة ستين ألف درهم ويفرقها على أصحابه.

وأنشد الجاحظ لسهل يهجو رجلًا:

من كان يعمر ما شادت أوائله فأنت تهدم ما شادوا وما سمكوا
ما كان في الحق أن تأبى فعالهم وأنت تحوي من الميراث ما تركوا

وأجمل بهذا الهجو الذي اقتصر فيه على الموعظة الحسنة وهو القائل:

إذا امرؤٌ ضاق عني لم يضق خلقي من أن يراني غنيًّا عنه باليأس
فلا يراني إذا لم يرع آصرتي مستمريًّا دِررًا منه بإبساس
لا أطلب المال كي أغنى بفضلته ما كان مطلبه فقرًا إلى الناس

ومن شعره:

أعان طرفي على جسمي وأعضائي بنظرة وقفت جسمي على دائي
وكنت غرًّا بما تجني عليَّ يدي لا علم لي أن بعضي بعض أعدائي

ونسبوا لسهل قوله:

خلٌّ إذا جئته يومًا لتسأله أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفي صنائعه والله يظهرها إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

هذا هو الشعر الذي يسميه الإفرنج بالشعر الوجداني (Lyrique) وهو كثير في شعر العرب تتجلى فيه مرآة شعور صاحبه، وما يمليه عليه قلبه، ويزينه له طبعه.

ومن بدائع سهل: القلم لسان الضمير إذا رَعَف أعْلن أسراره، وأبان آثاره، وكان يقول: اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد، وأعسر من

ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم. وكان يقول: سياسة البلاغة أشد من البلاغة؛ كما أن التوقي على الدواء أشد من الدواء. وقال: بلاغة الإنسان رِفق، والعيُّ خرق، وكان كثيرًا ما ينشد قول شُتيم بن خويلد:

ولا يَشْبَعون الصدع بعد تفاقمٍ وفي رفق أيديهم لذي الصدع شاعب

وقال: «لا يُقدم على الخطبة إلا اثنان: فائق أو مائق؛ أما الفائق فثقته بنفسه تنفي عنه كل خاطر يورث الخجل والانقطاع، وأما المائق فإنه لا يبالي أخطأ أم أصاب». وقال: «لو أن رجلين خطبا أو تحدثا، أو احتجا أو وصفا، وكان أحدهما جليلًا بهيًّا ولبيبًا نبيلًا، وذا حسب شريفًا، وكان الآخر قليلًا قميئًا[1]، وباذّ الهيئة[2] دميمًا، وخامل الذكر مجهولًا، ثم كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة، وفي وزن واحد من الصواب، لتصدع عنهما الجمع، وعامتهم تقضي للقليل الدميم، على النبيل الجسيم، وللباذ الهيئة على ذي الهيئة، ولشغلهم التعجب منه على مساواة صاحبه له، ولصار التعجب منه سببًا للعجب به، ولكان الإكثار في شأنه علة للإكثار في مدحه، لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس، ومن حده أبعد، فإذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه، وظهر منه خلاف ما قدروه، تضاعف حسن كلامه في صدورهم، وكبر في عيونهم؛ لأن الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان أظرف، وكلما كان أظرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع؛ وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين، فإن ضحك السامعين من ذلك أشد، وتعجبهم منه أكثر.

(١) القمي: الصغير الذليل.
(٢) باذّ الهيئة: رثها.

والناس موكلون بتعظيم الغريب، واستطراف البعيد، وليس لهم في الموجود الراهن، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى، مثل الذي معهم في الغريب القليل، وفي النادر الشاذ، وكل ما كان في ملك غيرهم. وعلى ذلك زهد الجيران في عالمهم، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم، وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون من هو أعظم نفعًا، وأكثر في وجوه العلم تصرفًا، وأخف مؤنة، وأكثر فائدة؛ ولذلك قدم بعض الناس الخارجي على العريق، والطارف على التليد».

إلى أن قال: «فإذا كان الحب يعمي عن المساوي، فالبغض أيضًا يعمي عن المحاسن، وليس يعرف حقائق مقادير المعاني، ومحصول حدود لطائف الأمور، إلا عالم حكيم، ومعتدل الأخلاط عليم، وإلا قوي المنَّة، الوثيق العقدة، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم، والسواد الأكثر».

وقال: للسلطان سكرات، فمنها الرضا عن بعض من يستوجب السخط؛ ولذلك قيل: قد خاطر من لجج في البحر، وأشد منه مخاطرة صاحب السلطان. وقال: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم. وأولى من هذا بالحجة قول النبي صلى الله عليه وسلم للعباس وقد سأله: فيم الجمال؟ فقال: في اللسان.

وقال: ليس الرِّيُّ عن التشاف، من عاش غير خامل المنزلة، وأفضل على نفسه وأصحابه، فهو وإن قلَّ عمره طويل العمر، ومن كان عيشه في وحدة وضيق، وقلّ خيره على نفسه وعلى الناس، فهو وإن طال عمره قصير العمر؛ قد يبلغ الخضم القضم، ويركب الصعب من لا ذلول له -والكلام الأخير من أمثال العرب- المعنى في التشاف أن يشرب الرجل الشفافة كلها، وهي بقية الماء في الإناء. يقول قد يروى

الشارب قبل بلوغ تلك، ومعنى المثلين الحض على الرضا بيسير الحاجة إذا أعوزه جليلها.

ومن كلامه: المَلكُ صبي الرضا، كهل الغضب، يأمر بالقتل وهو يضحك، ويستأصل شأفة القوم وهو يمزح، يخلط الجد بالهزل، ويتجاوز في العقوبة قدر الذنب، وربما أحفظه الذنب اليسير، وربما أعرض صفحًا عن الخطب الكبير، أسباب الموت والحياة متعلقة بطرف لسانه، لا يعرف ألم العقوبة فيبقى، ولا يؤنِّب على بادرة فينتهي، يُخطئُ فَيُصَوَّبُ، ويصيب فيفرَّض، مفتون الهوى، فظ الخليقة، أخرق العقوبة، لا يمنعه من ذي الخاصة به ما يعلم من عنايته، وطول صحبته، أن يقتله بخطرة من خطرات مَوجدته، ثم لا ينفك أن يُخْطب إليه موضعه، فلا الثاني بالأول يعتبر، ولا المَلِكُ عن مثل ما فرط منه يزدجر.

وقال سهل للفضل بن سهل: إن الحاجب أحد وجهي الملك يعتبر عليه برأفته، ويلحقه ما كان في غلظته وفظاظته؛ فاتخذ حاجبك سهل الطبيعة، معروفًا بالرأفة، مألوفًا منه البر والرحمة، وليكن جميل الهيئة، حسن البسطة، ذا قصد في نيته وصالح أفعاله، ومُرْه فليضع الناس على مراتبهم، وليأذن لهم في تفاضل منازلهم، وليعط كلًّا بسطة من وجهه، وليستعطف قلوب الجميع إليه، حتى لا يغشى الباب أحد وهو يخاف أن يقصر به عن مرتبته، ولا أن يمنع في مدخل أو مجلس أو موضع إذن شيئًا يستحقه، ولا يمنع أحد من مرتبته، وليضع كلًّا عند منزلته وتعهده، فإن قصر مقصر قام بحسن خلافته وبتزيين أمره.

وقال سهل يومًا وهو عند المأمون: من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه، وقد يُرغب عن بعض العلم، كما يُرغب عن بعض الحلال. قال المأمون: قد يسمي بعض الناس الشيء علمًا وليس بعلم، فإن كنت أردت هذا فوجهه الذي

ذكرنا، ولو قلت: إن العلم لا يدرك غوره، ولا يسبر قعره، ولا تبلغ غايته، ولا تستقصى أصنافه، ولا يضبط آخره، فالأمر على ما قلت. فإذا كان الأمر كذلك، فابدءوا بالأهم فالأهم، وابدءوا بالفرض قبل النفل، فإذا فعلتم ذلك كان عدلًا وقولًا صدقًا.

ويقال على الجملة: إن من الندرة أن يتم لإنسان من المواهب والبيئة ما تم لسهل، فهو من عنصر قوي ذي مدنية قديمة راسخة، ثقفه المحيط العربي في أرقى بيئة عهدت في التاريخ العربي، وجاء في عصر زاهر، ودخل في أمة قوية فتية، فرفعه علمه وفصله إلى أعلى مقامات الفصل والنبل، وهيَّئا له من أسباب النبوع ما لم يكتب لغير بضعة من رجال الأدب العربي، وساعده على ذلك طول أجله؛ إذ لو فرضنا أنه يوم دخل على الرشيد كان ابن ثلاثين، وقد قبض سهل إلى ربه في سنة أربع وثلاثين ومائتين على رواية الصلاح الكتبي، وقال ياقوت: سنة ٢١٥، والرشيد تولى الخلافة سنة إحدى وسبعين ومائة؛ وإذا فرضنا أنه اتصل بالرشيد في منتصف عهده، فلا يكون سهل عُمِّرَ أقل من تسعين سنة. ومن بورك له بأيام حياته يجيء منه في العلم ما لم يجئ من المعتبط كهلًا أو شابًا.

أثره الباقي:

من أجمل ما أُثر لسهل بن هارون من الكتب، بل كتابه الوحيد الذي ما زال أهل الأدب يتناقلونه خلفًا عن سلف، كتابه إلى بني عمه من آل راهبون حين ذموا مذهبه في البخل، وتتبعوا كلامه في الكتب، قال في فاتحته يُحاجّهم: «بسم الله الرحمن الرحيم: أصلح الله أمركم، وجمع شملكم، وعلَّمكم الخير، وجعلكم من أهله. قال الأحنف بن قيس: يا معشر بني تميم لا تسرعوا إلى الفتنة، فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياءً من الفرار، وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل

عيّابًا، فإنه إنما يعيب بفضل ما فيه من عيب، وأول العيب أن تعيب ما ليس بعيب، وقبيح أن تنهى مرشدًا، أو تغري بمشفق.

وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم، وصلاح فاسدكم، وإبقاءَ النعمة عليكم، ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم، فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم. ثم قد تعلمون أنّا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم، وشهرنا به في الآفاق دونكم؛ ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه: {وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب}. فما كان أحقكم في كريم حرمتنا بكم أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم، على ما رعيناه من واجب حقكم، فلا العذر المبسوط بلغتم، ولا بواجب الحرمة قمتم، ولو كان ذكر العيوب برًّا وفضلًا، لرأينا في أنفسنا عن ذلك شغلًا، وإن من أعظم الشقوة، وأبعد من السعادة، ألا يزال يُتذكر زلل المعلمين، ويُتناسى سوءُ استماع المتعلمين، ويستعظم غلط العاذلين، ولا يحفل بتعمد المعذولين».

بدأ بتقريع أهله والناقمين والناقدين عليه منهم ومن غيرهم، في إيثار كزازة اليدين على بسطهما، وأنه أراد بإرادتهم على الخير تعليمهم، وحفظ فضل أموالهم، وأنهم أخطئوا في سوء فهم مراميه، ولم يرعوا له حرمة ولا ذمامًا؛ وذكرهم بحكمة جميلة، وهو أن الناس يتذكرون خطيئات المعلمين، ولا يذكرون جهل المتعلمين، وعبر عنه بسوءِ الاستماع، وهو من أرق التعابير، وذكرهم بالآية الكريمة التي جاءت في العبد الصالح. وبعد أن بلغ من قوله هذا الحد، وبسط المسألة بينه وبين عاذليه على بخله، ودعوة الناس إلى طريقته، وأبان أنه اشتهر بها في العالم، وأنها مما لا يعده ثلمة في الشرف، بل فضيلة من فضائل النفس، بعد هذا أخذ يخاطبهم ويورد لهم الأمثال التي وقعت له في هذا الشأن والتي وقعت لغيره فعدها عبرة، قال:

«عبتموني بقولي لخادمي: أجيدي عجنه خميرًا، كما أجدته فطيرًا، ليكون أطيب لطعمه وأزيد في ريعه، وقد قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه ورحمه- لأهله: أملكوا العجين[1] فإنه أحد الرّيعين. وعبتم عليَّ قولي: من لم يعرف مواقع السرف في الموجود الرخيص، لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي، فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدل حجمها على مبلغ الكفاية، وأشف من الكفاية، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء، وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء، وجدت في الأعضاء فضلًا على الماء، فعلمت أن لو كنت مكنت الاقتصاد في أوائله، ورغبت عن التهاون به في ابتدائه، لخرج أوله على كفاية آخره، ولكان نصيب العضو الأول كنصيب الآخر، فعبتموني بذلك وشنعتموه بجهدكم وقبحتموه؛ وقد قال الحسن وذكر السرف: إنه ليكون في الماعونين الماء والكلأ، فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه بالكلأ».

بسط قاعدته في البخل بسطًا بديعًا، وبدأها بما وقع له في الماء، ثم ثنى في الجملة التالية بما يأتيه من الاحتياط في حفظ الفاكهة والمأكولات محاولًا إقناع مخالطبيه بأن الناس طبقات، وليس من الإنصاف أن يأكل السيد كالمولى، فإن إطعام الموالي والعبيد أطعمة وثمارًا لذيذة قد يمكنهم الاستغناء عنها، ولكن ساداتهم لا يصبرون عليها إذا انقطعت عنهم بسبب إسرافهم، وأشار إلى نهم الأولاد، وسوء إدارة النساء، قال:

«وعبتموني حين ختمت على سلّ عظيم، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة، ومن رُطبة غريبة على عبد نَهِم، وصبي جشع، وأَمة لكعاء[2]، وزوجة خرقاء، وليس من

---

(١) شدوا عجنه.

(٢) امرأة لكاع كقطام: لئيمة، والأمة: الجارية.

أصل الأدب، ولا في ترتيب الحكم، ولا في عادات القادة، ولا في تدبير السادة، أن يستوى في نفيس المأكول، وغريب المشروب، وثمين الملبوس، وخطير المركوب، والناعم من كل فن، واللباب من كل شكل، التابع والمتبوع، والسيد والمسود، كما لا تستوي مواضعهم في المجلس ومواقع أسمائهم في العنوانات، وما يستقبلون به من التحيات. وكيف وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر، ولا يكترثون له اكتراث العارف؟ ومن شاء أطعم كلبه الدجاج المسمن، وعلف حماره السمسم المقشر؛ فعبتموني بالختم، وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق، وختم على كيس فارغ، وقال: طينة خير من ظِنّة، فأمسكتم عمن ختم على لا شيء، وعبتم من ختم على شيء».

ثم تحول في كلامه إلى ذكر أمور جوهرية في الحياة، ذات شأن خطير في تدبير المنزل، كالطعام واللباس، مستشهدًا على صحة قضيته بهدي الرسول، وإيراد أمثلة ممن يقتدى بهم في هذا الباب من الناس، فقال:

«وعبتموني حين قلت للغلام: إذا زدت في المرق فزد في الإنضاج، لتجمع بين التأدم باللحم والمرق، ولتجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب. وقد قال صلى الله عليه وسلم: «إذا طبختم لحمًا فزيدوا في الماء، فإن لم يصب أحدكم لحمًا أصاب مرقًا».

وعبتموني بخصف النعل[1]، وبتصدير[2] القميص، وحين زعمت أن المخصوفة أبقى وأوطأ، وأرقى وأنفى للكبر، وأشبه بالنسك، وأن الترقيع من الحزم، والتفريق من التضييع، والاجتماع مع الحفظ. وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويلطع إصبعه ويقول: «لو دُعيت إلى كراع لأجبت، ولو أُهدى

(١) خصف النعل: خرزها.

(٢) شد البعير بالتصدير: هو حبل يشد في صدره.

إليَّ كراع أو ذراع لقبلت». ولقد لفَقَت سُعدى بنت عوف إزار طلحة وهو جواد قريش، وهو طلحة الفياض. وكان في ثوب عمر رقاع أَدم. وقال: من لم يستحِ من الخِلال خفت مؤنته، وقلَّ كبره. وقالوا: لا جديد لمن لا يلبس الخَلق.

وبعث رياد رجلًا يرتاد له محدّثًا، واشترط على الرائد أن يكون عاقلًا مسددًا، فأتاه به موافقًا فقال: أكنت ذا معرفة به؟ قال: لا ولا رأيته قبل ساعته. قال: أفناقلته الكلام، وفاتحته الأمور، قبل أن توصله إليَّ؟ قال: لا. قال: فلم اخترته على جميع من رأيته؟ قال: يومنا يوم قائظ، ولم أزل أتعرف عقول الناس بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم، ورأيت ثياب الناس جُدُدًا وثيابه لُبُسًا، فظننت به الحزم. وقد علمنا أن الجدد في موضعه دون الخَلق. وقد جعل الله عز وجل لكل شيء قدرًا، وبوَّأ له موضعًا، كما جعل لكل دهر رجالًا، ولكل مقام مقالًا، وقد أحيا بالسم، وأمات بالغذاء، وأغص بالماء، وقتل بالدواء، فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر، وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكسبين، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين. وقد جبر الأحنف يد عنز، وأمر بذلك النعمان. وقال عمر: من أكل بيضة فقد أكل دجاجة. وقال رجل لبعض السادة: أهدي إليك دجاجة. قال: إن كان لا بد فاجعلها بياضة. وعد أبو الدرداء العُراق جَزَر البهيمة[1]».

صفحة جميلة من تدبير المعاش والاقتصاد، أراد بها تعليم المتنقصين له درسًا نافعًا في الترتيب والنظام، وألقى عليهم مثلًا حسنًا لا يسع حتى المسرف أن ينقضه، وقد شفع كلامه بأمثلة ليس في مقدور أحد إنكارها، ولا تبلغ به الحال مهما بلغ من السرف والترف، أن يقول: إن من ذكرهم ليسوا قدوة صالحة. وبعد ذلك التفت

(١) العراق: العظم أكل لحمه، والجزر بالتحريك: أرومة تؤكل.

التفاتة أخرى، وبيّن لخصومه فضيلة الإمساك في المال والحرص عليه، لما يجلب الاستهتار من العوز فقال: «وعبتموني حين قلت: لا يغترن أحد بطول عمره، وتقوس ظهره، ورقة عظمه، ووهن قوته، أن يرى أكرومته، ولا يحرجه ذلك إلى إخراج ماله من يديه، وتحويله إلى ملك غيره، وإلى تحكيم السرف فيه، وتسليط الشهوات عليه، فلعله أن يكون مُعَمَّرًا وهو لا يدري، وممدودا له في السن وهو لا يشعر، ولعله أن يرزق الولد على اليأس، ويحدث عليه بعض مخبآت الدهور، مما لا يخطر على البال، ولا تدركه العقول، فيسترده ممن لا يرده، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه، أضعف ما كان عن الطلب، وأقبح ما يكون به الكسب، فعبتموني بذلك وقد قال عمرو بن العاص: اعمل لدنياك عمل من يعيش أبدًا، واعمل لآخرتك عمل من يموت غدًا.

وعبتموني حين زعمت أن التبذير إلى مال القمار ومال الميراث، وإلى مال الالتقاط وحباء الملوك أسرع، وأن الحفظ إلى المال المكتسب، والغنى المجتلب وإلى ما يعرض فيه لذهاب الدين، واهتضام العرض، ونصب البدن، واهتمام القلب أسرع، وأن من لم يحسب ذهاب نفقته لم يحسب دخله، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل، وأن من لم يعرف للغني قدره، فقد أذن بالفقر، وطاب نفسًا بالذل.

وعبتموني بأن زعمت أن كسب الحلال مُضَمّنٌ بالإنفاق في الحلال، وأن الخبيث ينزع إلى الخبيث، وأن الطيب يدعو إلى الطيب، وأن الإنفاق في الهوى حجاب دون الحقوق، وأن الإنفاق في الحقوق حجاز دون الهوى، فعبتم عليَّ هذا القول وقد قال معاوية: لم أرَ تبذيرًا قط إلا وإلى جانبه حق مضيَّع. وقد قال الحسن: إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله، فانظروا في أي شيء ينفقه، فإن الخبيث إنما ينفق في السرف.

وقلت لكم بالشفقة عليكم، وبحسن النظر مني لكم، وبحفظكم لآبائكم ولما يجب في جواركم، وفي مماحتكم وملابستكم، وأنتم في دار الآفات، والجوائح غير مأمونات، فإن أحاطت بمال أحدكم جائحة، لم يرجع إلى بقية، فأحرزوا النعمة باختلاف الأمكنة، فإن البلية لا تجري في الجميع إلا مع موت الجميع. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأمَة، وفي ملك الشاة والبعير، وفي الشيء الحقير اليسير: فَرّقوا بين المنايا، واجعلوا الرأْس رأسين. وقال ابن سيرين لبعض البحريين: كيف تصنعون بأموالكم؟ قال: نفرقها في السفن، فإن عَطِب بعض سلم بعض؛ ولولا أن السلامة أكثر لما حملنا أموالنا في البحر. قال ابن سيرين: تحسبها خرقاء وهي صَنَاعٌ[1]».

وبعد هذا الكلام الممتع، مثَّل سهل صورة جديدة في الأخلاق العارضة على من استغنى، وحذَّر من الوقوع فيها لئلا تؤدي إلى الفقر، وهو أبشع ضروب المظاهر، وبيَّن العلة في قوله: إن المال مقدم على العلم؛ لأن بالمال يكتسب العلم، ويعرف قدر العلم فقال:

«وقلت لكم عند إشفاقي عليكم: إن للغنى سكرة، وإن للمال نزوة، فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله. فعبتموني بذلك وقد قال زيد بن جَبَلة: ليس أحد أقصر عقلًا من غنيٍّ أمِنَ الفقر، وسكر الغني أشد من سكر الخمر. وقلتم: قد لزم الحث على الحقوق، والتزهيد في الفضول، حتى صار يستعمل ذلك في أشعاره بعد رسائله، وفي خطبه بعد سائر كلامه؛ فمن ذلك قوله في يحيى بن خالد:

عـدو تِـلاد المـال فـيما ينوبـه ... منـوع إذا مـا منعـه كـان أحزمـا

(١) صناع: حاذقة.

ومن ذلك قوله في محمد بن زياد:

وخليقتـــان تُقَـــى وفـــضل تحـــرّم وإهانـــــة في حقـــــه للـــــمال

وعبتموني حين زعمت أني أقدم المال على العلم، لأنَ المال به يغاث العالم، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم، وأن الأصل أحق بالتفضيل من الفرع، وأني قلت: وإن كنا نستبين الأمور بالنفوس، فإنا بالكفاية نستبين، وبالخلة نعمى؛ وقلتم: كيف تقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء، ومقدم الأدباء: العلماءُ أفضل أم الأغنياء؟ قال: بل العلماء. قيل: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: لمعرفة العلماء بفضل الغنى، ولجهل الأغنياء بفضل العلم. فقلت: حالهما هي القاضية بينهما، وكيف يستوي شيءُ ترى حاجة الجميع إليه، وشيءٌ يغني فيه بعضهم عن بعض؟

وعبتموني حين قلت: إن فضل الغنى على القوت، إنما هو كفضل الآلة تكون في الدار، إن احتيج إليها استعملت، وإن استغنى عنها كانت عدة. وقد قال الحصين بن المنذر: وددت أن لي مثل أُحد ذهبًا، لا أنتفع منه بشيء. قيل: فما ينفعك من ذلك؟ قال: لكثرة من يخدمني عليه. وقال أيضًا: عليك بطلب الغنى، فلو لم يكن لك فيه إلا أنه غرّ في قلبك، وشبهة في قلب غيرك، لكان الحظ فيه جسيمًا، والنفع به عظيمًا».

وختم كتابه في أنه لن يبدل من خلقه في الشح، وفي الدعوة إلى تزيينه للناس، وأورد جملًا لجماعة من المشهورين بالعقل، وذكّر جماعته في ختام حديثه بما يجب عليهم قبل أن يذكروا ما لهم، وذلك بقوله:

«ولسنا نَدَعُ سيرة الأنبياء، وتعليم الخلفاء، وتأديب الحكماء، لأصحاب الأهواء، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء

باتخاذ الدجاج. وقال: درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك. فقسموا الأمور كلها على الدين والدنيا، ثم اجعلوا أحد قسمي الجميع الدرهم. وقال أبو بكر الصديق رحمه الله: إني لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في اليوم الواحد، وكانوا يبغضون أهل البيت اللحِمِين[1]. وكان هشام يقول: ضع الدرهم على الدرهم يكون مالًا. ونهى أبو الأسود الدؤلي، وكان حكيمًا أديبًا، وداهيًا أريبًا، عن جودكم هذا المولَّد، وعن كرمكم هذا المستحدث. فقال لابنه: إذا بسط الله لك في الرزق فابسط، وإذا قبض فاقبض، ولا تجاود الله، فإن الله أجود منك. وقال: درهم من حِلٍّ يخرج في حقٍّ خير من عشرة آلاف قبضًا[2]. وتلقَّط عُرُنْدا[3] من بريم فقال: تضيعون مثل هذا وهو قوت امرئ مسلم يومًا إلى الليل. وتلقط أبو الدرداء حبات حنطة، فنهاه بعض المسرفين فقال: إيهٍ ابن العبسية، إن مرفقة المرء رفقه في معيشته. فلستم عليَّ تردون ولا رأيي تفندون؛ فقدموا النظر قبل العزم، وتذكروا ما عليكم قبل أن تذكروا ما لكم، والسلام» اهـ.

خاتمة:

وبعد فهذه صفات سهل بن هارون، وهذا نثره، بل هذا فكره وعقله؛ تعرفنا على الجملة بالقليل المأثور عنه، طريقته وحقيقته، وعلمنا كيف يبالغ في تنوق كرائم ألفاظه، ويسلكها في سلكه، ويرصعها في عقوده، فتجيءُ جزالة من دون تعمل، وسلاسة من غير ما تبذل، ونمطًا غالبًا من السهل الممتنع، يتدفق حكمة، ويسيل بيانًا.

(١) الذين يكثرون أكل اللحم.

(٢) مال الغنيمة قبل أن يقسم.

(٣) الجملة محرفة ولعل العبارة «عرما من ثرتم» العرم: بقية القدر، والثرتم: كقنفذ، ما فضل من الطعام والإدام في الإناء والقصعة.

سهل بن هارون أحد أفراد قلائل، زانوا بما صاغوا من الكلام أدب العرب، واختطوا لمن بعدهم التفكير والتصوير على النمط الفارسي العربي، وكلامه في بابه لباب البلاغة، ومثال الفصاحة، لا تَبلى جِدّته على وجه الأيام، ولا يحتاج في الحُكم عليه إلى محكمة نقض وإبرام.

عمرو بن مسعدة

عصره:

من أجمل عصور الأمة العربية، عصر المأمون العباسي، كان السلطان الأكبر فيه للعقل؛ وقلَّ المتوثبون على الخلافة، والعابثون بأهواء الناس، وانصرفت الأمة إلى شئونها في ظل السلام، فزادت سعادتها، وشملتها الرفاهية والهناء؛ نظر المأمون في ماضي الملة وحاضرها، فرأى أن من أعظم ما يكدر شرعة سياستها، طموح آل البيت إلى الخلافة منذ أوائل العهد الأموي، يهتبلون الغرة للاستيلاء على زمام الأمر، فيضطرب كل بلد نجم فيه ناجم منهم.

وكان آل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب منذ عهد المنصور ومن بعده يتوجسون خيفة من قوة العباسيين، فيستخفون ويبتعدون عن الناس، فخفيت بعزلتهم عن العوام حقيقة أمورهم، وظنوا فيهم ما يظنونه بالأنبياء، وأنشئوا يتفوهون في صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالي، فنظر المأمون في هذا الأمر نظرًا بليغًا وقال: لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم، لسقطوا من أعينهم، ولانقلت شكرهم لهم ذمًّا. ثم قال: إذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءًا، وإنما الرأي أن نقدم أحدهم ويظهر لهم إمام، فإذا رأوا هذا أنسوا وظهروا، وأظهروا ما عندهم من حركات الآدميين، فيتحقق للعوام حالهم، وما هم عليه مما خفي بالاختفاء.

واستشار المأمون خاصته فأشاروا عليه بعلي بن موسى الرضا، فعقد له ولاية العهد من بعده، (لما رأى من فضله البارع، وعلمه الناصع، وورعه الظاهر، وزهده الخالص، وتخليه عن الدنيا)، ولقبه الرضا من آل محمد، وساوى بين آل علي وآل هاشم، غاضًّا الطرف عن شكاية بني العباس، وكانوا قد بلغ عددهم لعهده ثلاثة وثلاثين ألف إنسان. وبذلك استقرت الحال، وكفيت المملكة شر الغوائل الداخلية.

تجلى عقل المأمون في هذه الطريقة الجديدة، بيد أن عمله لم يرض عنه الشيعة ولا السنة: الشيعة لا يرضيهم إلا القبض مباشرة على قياد الأمر، وإزالة كل مُلك إلا لشيعتهم، والقضاء على كل خليفة وخلافة؛ والسُّنة لأنه عهد بولاية العهد إلى أمثل رجل علوي في عصره، فحاذروا أن تخرج الخلافة عنهم، وتهامسوا بشيعية المأمون، وهو فوق ما تصوروا وقدروا؛ اتخذ خصومه من هذا العمل حجة لإفضاء الخلافة إليهم، فأبدوا نواجذ الشر، ولكنهم لم يفلحوا.

أما صلات المأمون مع الدول المجاورة فكانت حسنة في الجملة، خصوصًا مع صاحب الروم، ومملكة هذا ظلت في ذاك العصر على شيء من التماسك والقوة أمام سلطان العرب، بيد أن كلمة المأمون كانت هي العليا في فض كل خلاف يعبث بحقوق الجوار، ويشوه وجه السلام الجميل. كتب توفيل بن ميخائيل صاحب الروم مع وزيره يطلب من المأمون الصلح وعرض الفدية، ومما قال في كتابه: «وقد كنتُ إليك داعيًا إلى المسالمة، راغبًا في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ونكون كل واحد لكل واحد وليًّا وحزبًا، مع اتصال المرافق، والفسح في المتاجر، وفك المستأسر، وأمن الطرق والبيضة»، كتب إليه المأمون يهدده برجاله: «الذين يتقربون إلى الله بدماء الروم، وهم أظمأ إلى ورود المنايا منهم إلى السلامة»، جاء في آخره:

«غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك، إلى الوحدانية والشريعة الحنيفة، فإن أبيت ففدية توجب ذمة».

ومن دعوة المأمون ملك الروم إلى الإسلام تفهم عزة الأمة في عصره، ثم حدثت أحداث في بعض بلاد الشرق وديار مصر وربيعة واليمن، فأُطفئت ثائرتها ولم تتعد الأرض التي انبعثت شرارتها منها؛ قال الهمداني: «وقد كانت للخلفاء فتوح، ولكنه لم يتسق لأحد ما اتسق للمأمون وعبد الملك بن مروان والمعتصم بالله، إلا أن فتوح المأمون وعبد الملك كانت لمن قصد إلى ملكهما، فبلغا في ذلك ما لم يبلغه أحد في الإسلام من الملوك»، ومن يختار كالخليفة المأمون لحماية البيضة وقيام الدولة أمثال طاهر بن الحسين، وعبد الله بن طاهر، وهرثمة بن أعين، والفضل بن سهل، وسهل بن هارون، وعمرو بن مسعدة إلى غيرهم من القواد والوزراء والكتاب والعمال، لا يلقى عمله غير النجاح، ولا يعتري سلطانه ضعف ووهن.

أتم المأمون ما بدأ به جده المنصور وأبوه الرشيد من ترجمة كتب الأوائل، واستجادة مهرة التراجمة لنقل الكتب التي أخذها من الروم، وندب ابن البطريق إلى الروم ليأتيه بكتاب السياسة لأرسطو الذي ألفه للإسكندر، وكان مكتوبًا بالذهب المحلول، في رق مصبوغ بالفرفير، منقوطًا بالفضة البيضاء المحلولة، فرجع إلى الحضرة ظافرًا بالمراد، وسعى، كما قال بعون الله وبسعد أمير المؤمنين وَجَده، في ترجمته ونقله إلى اللسان اليوناني إلى اللسان العربي.

وكان الرشيد بدأ بترجمة الكتب الطبية القديمة التي وجدها بأنقرة وعَمُّورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها؛ ولما ولي المأمون الخلافة أتم ما كان شرع فيه أبوه، فأخذ يغدق صِلاته على المترجمين والفلاسفة، وربى المأمون بني شاكر محمدًا وأحمد

والحسن حتى صاروا علماء، فحققوا طول محيط الأرض، وكانوا يرزقون النقلة نحو خمسمائة دينار في الشهر، وكان دَخل محمد وحده أربعمائة ألف دينار.

وجمع المأمون بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التي نسبت إليه، ودُعيت الصورة المأمونية، صوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره، ومساكن الأمم والمدن إلى غير ذلك؛ وقد وضع له علماء رسم الأرض، وكانوا سبعين رجلًا، كتابًا في الجغرافيا أعان عمال الدولة على التعرف إلى البلاد والأمم التي أظلتها الراية العباسية.

وسأل المأمون ملك الروم صلته بما لديه من كتب الفلاسفة، فبعث إليه منها بما حضره من كتب أفلاطون وأرسطو وأبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة، فترجمت له وحضّ الناس على قراءتها، ورغّبهم في تعلمها، فنفقت سوق العلم في زمانه، وتنافس أولو النباهة في العلوم، لما كانوا يرون من إحظائه لمنتحليها، وكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب.

وازدان عصر المأمون بكثير من حملة الشريعة والأدب، وكان الشعراء والكتاب طبقة عالية كثيرة العدد والحصى، جيدة المنحى والأسلوب، تأثروا كلهم بالحضارة الجديدة حتى غدا الشعر الإسلامي ظاهر الاختلاف عن الشعر الجاهلي، بعيدًا عن وصف الأطلال والدمن والركاب، وطلب الثأر والمفاخرات، والجمهور يشارك الأدباء في فهم الشعر، ويقدر الخطب والرسائل قدرها، ولم يكن الشعراء في وادٍ والأمة في آخر؛ بل كان الشاعر أو الكاتب إذا قرض شعرًا أو حبَّر خطابًا تتناقله

الأيدي في الحال، وتتعاوره الرواة فيفشو في الأمصار، وهذا ما كان يزيد في طلاوة أدب الأديب، وشعر الشاعر، وخطبة الخطيب.

أعمال الكبير كبيرة، والمأمون العظيم بأعماله وأقواله كان خليفة المسلمين بكل ما في لفظ الخلافة من معنى شريف، يجمع مصالح الدين والدنيا؛ كان رحمه الله يفكر منذ عهد بعيد في خلق القرآن حتى اعتقد أن كل من لم يقل بقوله ضالٌّ، فوضع هذا البحث موضع المناقشة بين العلماء، فقال السواد الأعظم بقوله، وأبى بعضهم تورعًا أن يوافقوه على أن القرآن مخلوق، فطلبهم للبحث، وكان في مصيفه في الرَّقة، وكتب إلى عامله في بغداد أن يمتحن القضاة والمحدثين ويكشفهم عما يعتقدون في خلق القرآن وإحداثه، وقال له: «وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته، بمن لا يوثق بدينه، وخلوص توحيده ويقينه» و«أنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق». وأمر أيضًا بأن يكتب إلى الآفاق بذلك؛ وقد أحدث هذا الرأي ضجة في الأمة شأن كل فكر جديد ينقسم فيه الناس إلى مثبت ونافٍ، ودل بعض الممتنعين عن التصريح بما لا يعتقدونه على الأخذ بالاحتياط في دينهم، فأوذي بعضهم وما أراد المأمون أذاهم، وقُبض إلى ربه وبعض الذين توقفوا عن التصريح بما أُريدوا على البيان فيه قِيد السجن، فاتخذ أعداؤه من ذلك سبيلًا إلى النيل منه، وسموا ذلك المحنة؛ وفي هذا العصر الزاهر نشأ عمرو بن مسعدة.

أصله وحياته ونشأته:

هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صُول بن صُول، وصول كان رجلًا تركيًّا، وكان مُلِّك وأخوه فيروز على جرجان، وتمجسا بعد التركية، وتشبها بالفرس،

وصُول لقب ملوك دهستان، كان يطلق عليهم كما يطلق شاهنشاه وكسرى على ملوك الفرس الساسانية.

ولما وافى يزيد بن المهلب بن أبي صُفرة في ولاية سليمان بن عبد الملك بن مروان جرجان أمَّن الأخوين، فأسلم صُول على يده، وغدا محمد بن صول من رجال الدولة العباسية ودعاتها بعد ذلك. وكان بعض أهليهم ادعوا أنهم عرب، وأن العباس بن الأحنف الشاعر خالهم. وقيل: إن أبا الفضل عمرو بن مسعدة هو مولى خالد القسري، وقيل: بل كان مسعدة والد عمرو مولى خالد بن عبد الله القسري أمير العراق، وكان يكتب له، وكتب لخالد بن برمك، ثم كتب بعده لأبي أيوب وزير المنصور على ديوان الرسائل.

وكان لمسعدة أربعة بنين: مجاشع ومسعود وعمرو ومحمد؛ ومجاشع هو الذي يقول فيه أبو العتاهية:

علمت يا مجاشع بن مسعدة أن الشباب والفراغ والجدة
مفسدة للمرء أي مفسدة

عمل الكاتب ابن الكاتب عمرو بن مسعدة للدولة، فظهرت كفايته وبلاغته، فعُدَّ أحد أفراد قلائل في رجال الخليفة. قال أحمد بن يوسف الكاتب: دخلت يومًا على المأمون وبيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى، ويُصعد فيه ويصوب، فلما مرت على ذلك مدة من زمانه التفت إليَّ وقال: يا أحمد أراك مفكرًا فيما تراه مني. قلت: نعم. فقال: إن في هذا الكتاب كلامًا نظير ما سمعت الرشيد يقول في البلاغة، زعم أن البلاغة إنما هي التباعد عن الإطالة، والتقرب من معنى البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وما كنت أتوهم أن أحدًا يقدر على ذلك، وقال: هذا كتاب عمرو بن مسعدة إلينا، ففككته فإذا فيه: «كتابي إلى أمير المؤمنين،

ومن قِبَلي من قواده، ورؤساء أجناده، في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم[١]، فاختلت لذلك أحوالهم، والتاثت[٢] معه أمورهم». فلما قرأته قال: إن استحساني إياه بعثني أن أمرت للجند قِبَله بأعطياتهم لسبعة أشهر، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حلَّ محله في صناعته. وفي رواية: أن المأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية أشهر، وأنه قال لأحمد بن يوسف: لله در عمرو ما أبلغه، ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الإخبار، وإعفائه سلطانه عن الإكثار.

وكان عمرو بن مسعدة، وكنيته أبو الفضل، أبيض أحمر الوجه، وكان المأمون يسميه الرومي لبياض وجهه، وكان يخضب، وتوفي بأذَنَة سنة سبع عشرة ومائتين؛ ولم نعرف منشأه ومولده وأساتيذه، وغاية ما عرفناه أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أبوهم تربيتهم حتى جاءت من أحدهم هذه البلاغة النادرة، التي كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون، وكان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يديه ويخلوان معه ويمازحانه؛ ولكي يصل الرجل إلى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العظيم في كل شئونه يجب أن ينطوي على صفات عالية يعزُّ مثلها في الأقران والأتراب؛ وفي تاريخ بغداد أنه روى الحديث عن جماعة، ووصفوه بأنه الكاتب الرسائلي، وأنه كان يقول الشعر بفضل أدبه.

قال عمرو بن مسعدة: كنت أُوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه في رواتبهم فرمى بها إليَّ وقال: أجب عنها. فكتبت: «قليل دائم خير من كثير منقطع». فضرب بيده على ظهري وقال: أي وزير في جلدك. وقد

(١) العطا، ويمد: ما يعطى كالعطية (ج) أعطية (جج) أعطيات، وتراخت: تقاعست وتأخرت.
(٢) الالتياث: الاختلاط.

شهد لعمرو بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان في عصره، ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه: إنه أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله، فإذا رامه بَعُدَ عليه. وهذا كما قيل لأحد البلغاء: ما حدُّ البلاغة؟ فقال: التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فإذا رامها استصعبت عليه.

ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف في موضوع خاص، وأفرد مسألة في التأليف، وإن قالوا: إن له رسائل وأقوالًا. وعده ابن النديم في الشعراء الكُتَّاب، ولم يذكر إلا أن له ولأخيه مجاشع خمسين ورقة من الشعر؛ والغالب أن مهام الدولة لم تترك له وقتًا يصرفه في درس خاص، أو وضع كتاب أو رسالة، وما تلقطه العلماء والأدباء من كلامه هو مما رواه له المعجبون به، وما أعظم المفقود منه. والمظنون أن لو كانت جمعت له رسائله على إيجازها لكان منها ديوان كبير؛ لأنه صرف أعوامًا طويلة وهو قابض على براعته يعالج بها الموضوعات المهمة في ذاك المجتمع العظيم.

وأفادنا ابن عساكر أن عمرو بن مسعدة زار دمشق مع المأمون، وأنه من رجال الحديث فأسند حديثًا عن المأمون في سندٍ ذكره عن عمرو بن مسعدة، قال: سمعت المأمون أمير المؤمنين يقول: حدثني أبي عن أبيه عن عمه عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «علقوا السوط حيث يراه أهل البيت؛ فإنه أدب لهم»، وفي الأمثال: «علق سوطك حيث يراه أهلك»، والمعنى: اجعل نفسك بحيث يهابك أهلك، ولا تغفل عنهم وعن تخويفهم وردعهم.

ولم نعلم نوع الدراسة التي انصرفت إليها همة عمرو بن مسعدة في صباه حتى بلغت به البلاغة ذاك المقام، بيد أن ظواهر الحال تدل كل الدلالة على أن من كان هذا شأنه من الكتابة في ذاك العصر الزاهي بمن يشار إليهم بالبنان في البيان، يستحيل أن

يبلغ هذا المبلغ إلا بأدوات كثيرة، بل لا يتأتى له ذلك إلا بجميع أدوات البيان والشريعة، يجمعها إلى ما خُصت به فطرته من سلامة الطبع وجودة الإبداع؛ وفوق ذلك لا بد له من التخريج بهذه الصناعة أعوامًا طويلة، وصحف التاريخ لم تعرفنا عمرو بن مسعدة إلا أنه تام الأدوات، كأن بلاغته مما ارتجل ارتجالًا، أو مما وهبته له الفطرة عرضًا؛ وصرف عمرو أيام حياته على ما يظهر بالتصرف، جعل نفسه وقفًا على مهام الخلافة، فأقبلت عليه الدنيا إقبالًا عظيمًا، فنعم ولذّ واغتبط، وقصده القاصدون، وطابت نفسه باصطناعهم والإحسان إليهم، وعطف على العفاة والقصاد فاستكثر من الأنصار، وانبسطت نفسه ويده بالعطاء، فتعشقته نفوس الناس وأهل الدولة؛ والخليفة من وراء ذلك يمده، ويطلق يده في المال والنوال؛ ومن جعل وُكده في هذه الأعمال يتعذر عليه أن ينقطع إلى نفسه أيامًا يصرفها في عمل يخلد به ذكره، ويعم القاصي والداني والحاضر والمقبل نفعه؛ وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

واختلفوا في كون عمرو بن مسعدة ولي الوزارة أو لم يتولها، فقال ياقوت: سماه بعض الشعراء وزيرًا لعظم منزلته لا لأنه كان وزيرًا. وقال المسعودي: إن المأمون استوزر الفضل بن سهل ثم أخاه الحسن بن سهل، فلما أظهر العجز عن الخدمة لعوارض من العلل ولزم منزله، عدل المأمون إلى استكتاب كُتَّاب لعلمه بكتابتهم وجزالتهم، وأنه ليس في عصرهم من يوازيهم ولا يدانيهم، فاستوزرهم واحدًا بعد واحد أولهم أحمد بن أبي خالد، ثم أحمد بن يوسف، ثم أبو عباد ثابت بن يحيى، وعمرو بن مسعدة بن صُول، وكان يجري مجراهم ولا يعده كثير من الناس في الوزراء، قال: ولم يكن يسمى بين يدي المأمون أحد من كتّابه وزيرًا، ولا يكاتب بذلك، فلأجل هذا ترك كثير من الناس أن يعد من ذكرنا في الوزراء. ومهما كان فالرتبة التي بلغها عمرو بن مسعدة وزارة وزيادة، وكان إليه ديوان الرسائل وديوان

الخاتم والتوقيع والأزِمَّة، وسواء تقلد الوزارة أم لم يتقلدها، فإن العظائم التي كان ينذب إليها تدل على درجة الثقة به.

شيء من كلامه:

ومن كلام عمرو بن مسعدة: أعظم الناس أجرًا، وأنبههم ذكرًا، من لم يرض بموت العدل في دولته، و(يتوخَّى) ظهور الحجة في سلطانه، وإيصال المنافع إلى رعيته في حياته. وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق في أيامه، وبعد وفاته وانقراضه. وقال: الخط صور الكتب ترد إليها أرواحها. وكان يقول: الخط صورة جميلة لها معان جليلة، وربما ضاق عن العيون، وقد ملأ أحظار الفنون.

ونسب إليه: لا تصحب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك، أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائد علمه، ومن كانت غايته الاحتيال على مالك وإطراءك في وجهك، فإن هذا لا يكون إلا رديء الغيب، سريعًا إلى الذم.

وكتب إلى الحسن بن سهل: أما بعد، فإنك ممن إذا غرس سقى، وإذا أسَّس بنى، ليستتم تشييد أُسّه، ويجتني ثمار غرسه، وثناؤك عندي قد شارف الدروس، وغرسك مشفٍ على اليبوس، فتدارك بناء ما أسست، وسْقيَ ما غرست، إن شاء الله.

وكتب إلى بعض أصحابه في شخص يعزُّ عليه: أما بعد، فموصل كتابي إليك سالم، والسلام. أراد قول الشاعر:

يُديرونني عن سالم وأُديرهم   وجلدة بين العين والأنف سالم

أي: يحل مني هذا المحل.

وكتب إلى المأمون في رجل من بني ضَبة يستشفع له بالزيادة في منزلته وجعل كتابه تعريضًا: «أما بعد؛ فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين لتطوّلك عليَّ، في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك تعدي طاعته والسلام». فكتب إليه المأمون: قد عرفنا توطئتك له، وتعريضك لنفسك، وأجبناك إليهما، ووافقناك عليهما. اهـ. وقوله: «إن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدي طاعته» من الكلام السَّرِي الذي يدل على مبلغ أدب عمرو، وبعد غوره في السياسة، ووقوفه على نفسية الخلفاء.

قدم رجل من أبناء دهاقين[1] قريش على المأمون لعِدَة سلفت منه، فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون، فقال لعمرو بن مسعدة: تُوصل مني رقعة إلى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبها تكن لك عليَّ نعمتان. فكتب: «إن رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عبده من ربقة المطل بقضاءِ حاجته، أو يأذن له بالانصراف إلى بلده فعل إن شاء الله». فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرًا، فجعل يعجب من حسن لفظها، وإيجاز المراد. فقال عمرو: فما نتيجتها يا أمير المؤمنين. قال: الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه، وبجائزة مائة ألف درهم، صلة عن دناءة المطل، وسماجة الإغفال.

وكتب عمرو بن مسعدة عن المأمون إلى أحد الخوارج عليه، نصر بن شبث: أما بعد؛ فإنك يا نصر بن شبث قد عرفت الطاعة وعزها، وبرد ظلها، وطيب مرتعها، وما في خلافها من الندم والخسار، وإن طالت مدة الله بك، فإنه إنما يُملي لمن يلتمس مظاهرة الحجة عليه لتقع عِبَرُه بأهلها على قدر إصرارهم واستحثاثهم؛ وقد رأيت

---

(١) الدهاقين: الزعماء أرباب الأملاك بالسود، واحدهم دهقان بكسر الدال، معرب.

إذكارك وتبصيرك لما رجوت بها أكتب به إليك موقعًا منك، فإن الصدق صدق، والباطل باطل؛ وإنها القول بمخارجه وبأهله الذين يُعنون به، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك في مالك ودينك ونفسك، ولا أحرص على استنقاذك والانتياش لك من خطئك مني. فبأي أول أو آخر أو واسطة أو إمرة، إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين تأخذ أمواله، وتتولى دونه ما ولاه الله، وتريد أن تبيت آمنًا أو مطمئنًا أو وادعًا أو ساكنًا أو هادئًا؛ فوعالم السر والجهر، لئن لم تكن للطاعة مراجعًا، وبها خانعًا، لتستوبلنَّ وَخَم العاقبة، ثم لأَبْدأنَّ بك قبل كل عمل، فإن قرون الشيطان إذا لم تُقطع كانت في الأرض فتنة وفسادًا كبيرًا، ولأطأن بمن معي من أنصار الدولة كواهل الرعاع أصحابك، ومن تأشب إليك من أداني البلدان وأقاصيها، وطغامها وأوباشها، ومن انضوى إلى حوزتك من خُراب الناس، ومن لفظه بلده ونفته عشريته، لسوء موضعه فيهم، وقد أعذر من أنذر، والسلام.

ومن حِكم عمرو بن مسعدة: العبودية عبودية الإخاء، لا عبودية الرق. الود أعطف من الرحم. إن الكريم ليرعى من المعرفة ما رعى الوصل من القرابة. عليكم بالإخوان، فإنهم زينة في الرخاء، وعُدة للبلاء. النفس بالصديق آنس منها بالعشيق، وغزل المودة أرق من غزل الصبابة. من حقوق المودة عفو الإخوان، والإغضاءُ عن تقصير إن كان. ذكر رجل رجلًا فقال: حسبك أنه خُلق كما تشتهي إخوانه. المودة قرابة مستفادة. ما تواصل اثنان فدام تواصلهما إلا لفضلهما أو فضل أحدهما. أسرع الأشياء انقطاعًا مودة الأشرار. المحروم من حرم صالحي الإخوان. لقاءُ الخليل شفاء الغليل. قلة الزيارة أمان من الملالة. إخوان السوء كشجر (في) النار يحرق بعضه بعضًا. علامة الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب ولا يبتدئ بالكتاب. لا يفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له. من لم يقدم الامتحان قبل الثقة، والثقة قبل الأنس أثمرت مودته ندمًا. إذا قُدمت الحرمة تشبهت بالقرابة. العتاب

حياة المودة. ظاهر العتاب خير من باطن الحقد. ما أكثر من يعاتب لطلب علة. ويبقى الود ما بقي العتاب. كمون الحقد في الفؤاد ككمون النار في الزناد. القريب بعيد بعداوته، والبعيد قريب بمودته. لا تأمننّ عدوك وإن كان مقهورًا، واحذره وإن كان مفقودًا، فإن حد السيف فيه وإن كان مغمودًا. لا تتعرض لعدوك في دولته، فإنها إذا زالت كفتك مؤونته. نصح الصديق تأديب، ونصح العدو تأنيب.

روى البيهقي قال: أخبرنا بعض أصحابنا قال: شهدت المأمون يومًا وقد خرج من باب البستان ببغداد، فصاح به رجل بصريّ: يا أمير المؤمنين إني تزوجت بامرأة من آل زياد، وإن أبا الرازي فرّق بيننا، وقال: هي امرأة من قريش، قال: فأمر عمرو بن مسعدة، فكتب إلى أبي الرازي: إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزيادية وخلعك إياها إذ كانت من قريش، فمتى تحاكمت إليك العرب لا أُمَّ لك في أنسابها، ومتى وكلتك قريش بابن اللخناء[1] بأن تلصق بها من ليس منها، فخلِّ بين الرجل وامرأته، فلئن كان زياد من قريش إنه لابن سُميّةَ بغي عاهرةٍ، لا يُفتخر بقرابتها ولا يتطاول بولادتها، ولئن كان ابن عُبيد لقد باء بأمر عظيم، إذ ادعي إلى غير أبيه، لحظٍّ تعجله ومُلك بهره اهـ.

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرجل عناية به إلى بعض العمال في قضاء حقه، وأن يختصر كتابه ما أمكنه حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد لا زيادة عليه، فكتب عمرو: كتابي كتاب واثق بمن كتب إليه، معنيّ بمن كتب له، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله.

---

(١) اللخناء: الأمة المنتنة المغابن.

وكتب إلى الحسن بن سهل: أما بعد؛ فإن هبة الله لك هبة لأمير المؤمنين، وزيادته إياك في عدده لمحلك عنده ومكانك من دولته؛ وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلامًا سريًّا، فبارك الله لك فيه، وجعله بارًّا تقيًّا، مباركًا سعيدًا زكيًّا.

ومن كتاب: وصل إليَّ كتابك، على ظمأ مني إليه، وتطلع شديد، وبعد عهد بعيد، ولوم مني على ما مستني به من جفائك، على كثرة ما تابعت من الكتب، وعدمت من الجواب، فكان أول ما سبق إليّ من كتابك السرور بالنظر إليه، أُنسًا بما تجدد لي من رأيك في المواصلة بالمكاتبة، ثم تضاعفت المسرّة بخبر السلامة، وعلم الحال في الهيئة، ورأيتك بما تظاهرت من الاحتجاج في ترك الكتاب، سالكًا سبيل التخلص مما أنا مخلصكَ منه، بالإغضاء عن إلزامك الحجة، في ترك الابتداء والإجابة، وذكرت شغلك بوجوه من الأشغال كثيرة متظاهرة ممكّنة، لا أجشمك متابعة الكتب، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب، ويقنعني منك في كل شهر كتاب، ولن تلزم نفسك في البر قليلًا، إلا ألزمت نفسي عنه كثيرًا، وإن كنت لا أستكثر شيئًا منك، أدام الله مودتك وثبت إخاءك، واستماح لي منك، فرأيك في متابعة الكتب ومحادثتي فيها بخبرك موفقًا، إن شاء الله.

وقال عن نفسه: إنه كتب إلى عامل دسْتَبي كتابًا أطاله، فأخذه المأمون بيده وكتب: «قد كثر شاكوك فإما عدلت، وإما اعتزلت»؛ فبالإيجاز فاز ابن مسعدة بجائزة البلاغة، والإيجاز في اصطلاح علماء البيان هو اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل، فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير، وكم من لفظ كثير يدل على معنى قليل، ومثال ذلك الجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة، فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها، ومن ينظر إلى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها، والبلاغة كما قال أرسطاطاليس: أن تجعل في المعنى الكثير كلامًا قليلًا، وفي

القليل كلامًا كثيرًا، وهذه البلاغة الموجزة يلمسها المرءُ في كلام هذا الذي فتن نظراءه بفنه.

لا تجد في كلام عمرو شيئًا من الوحشيِّ ولا السوقيّ، فألفاظه تتفهمها عامة طبقات القارئين والسامعين؛ أما تركيبه ونسجه فهو أيسر تركيب يجري مع الطبع، كأنه في إيراده يتكلم كلامه المعتاد معربًا ويسطره في الورق، نعم وهناك صعوبة في تحديه في جوامع كلمه. الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة قد تنتقل في الأيدي ويعجب بها ناظروها، ويفاخر بها مالكوها، ولكن متى وصلت إلى أيدي الصائغ الحاذق والجهبذ النقاد، تزيد بهاءً ورواءً، ويتجلى فيها فكر الآفق المفنن، فالسبك الحسن في كلام عمرو هو الذي تفرد به، ولما رأى أنه أبدع فنه زاد في تجويده، لانقطاعه معظم حياته إلى الخدمة، والسياسي من جملة خصائصه أن يوجز ويجمجم أحيانًا، ويعرّض لئلا يؤخذ بإقراره وتؤول له عباراته، وعمرو نبغ في هذه الطريقة.

ذكر المترجمون له أنه كان له فرس أدهم أغر، لم يكن لأحد مثله فراهةً وحسنًا، فبلغ المأمون خبره وبلغ عمرو بن مسعدة ذلك، فخاف أن يأمر بقوده إليه فلا يكون له فيه محمدة، فوجه به إليه هدية وكتب معه:

يا إمامًا لا يدا ... فيه إذا عدّ إمام
فضل الناس كما يفـ ... ـضل نقصانًا تمام
قد بعثنا بجواد ... مثله ليس يرام
فرس يُزْهَى به للـ ... ـحسن سرج ولجام
دونه الخيل كما دونـ ... ـك في الفضل الأنام
وجهه صبح ولكن ... سائر الجسم ظلام
والذي يصلح للمو ... لى على العبد حرام

يقول الثعالبي: إنه لم يكن في الأكاسرة بعد أزدشير الذي له فضيلة السبق أعدل من أنوشروان، ولذلك ضرب المثل به في العدل من بينهم؛ فأما سائر الأكاسرة فإنهم كانوا ظلمة فجرة يستعبدون الأحرار ويجرون الرعايا مجرى الأجراء والعبيد والإماء، فلا يقيمون لهم وزنًا، ويستأثرون عليهم حتى بأطايب الأطعمة والثياب الحسنة والمراكب، والنساء الحسان، والدور السرية، ومحاسن الآداب، فلا يجترئ أحد من الرعايا أن يطبخ سكباجًا، ويلبس ديباجًا، أو يركب هملاجًا، أو ينكح امرأة حسناء، أو يبني دارًا قوراء، أو يؤدب ولده، أو يمد إلى مروءة يده، وكانوا يبنون أمورهم على معنى قول عمرو بن مسعدة للمأمون -ملك ما يصلح للمولى على العبد حرام- إلا أنهم كانوا يحبون العمارة أشد الحب، ويرونها قوام الدين والملك، ولا يقارون أحدًا على الإخلال بها والتقصير فيها. وعمرو هو القائل:

ومستعذبٍ للهجر والوصل أعذب ... أُكاتمه حُبي فينأى وأقرب
إذا جدتُ مني بالرضا جاد بالجفا ... ويزعم أني مذنب وهو أذنب
تعلمت ألوان[1] الرضا خوف هجره ... وعلَّمه حبي له كيف يغضب
ولي غير وجه قد عرفت طريقه ... ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

قالوا: وهذان البيتان الأخيران متنازعان؛ على أن محمد بن عمرو بن مسعدة ذكر أنا أباه لم يقل من الشعر شيئًا إلا بيتًا واحدًا، فوقّع في ظهر رقعة لرجل:

أعززْ عليَّ بأمر أنت طالبه ... لم يكن النجح فيه انقضى أمده

(١) في رواية: أبواب بدل ألوان.

عظمة أخلاقه:

ذكروا أن شقيقه مجاشع بن مسعدة كان صديقًا لأبي العتاهية الشاعر، يقوم بحوائجه كلها، ويخلص مودته، فمات، وعرضت لأبي العتاهية حاجة إلى أخيه عمرو بن مسعدة فتباطأ فيها، فكتب إليه أبو العتاهية:

غَنيت عن العهد القديم غَنيتا وضيعت ودًّا بيننا ونسيتا
ومن عجب الأيام أن مات مألفي ومن كنت تغشاني به وبقيتا

فقال عمرو: استطال أبو إسحاق أعمارنا وتوعدنا، ما بعد هذا خير، ثم قضى حاجته.

ومرَّ عمرو بن مسعدة مرة بأبي العتاهية وهو جالس على الطريق، فوقف عليه يسأل عن حاله، فما قام ولا رفع إليه رأسه وهو يقول:

أقعدني اليأس منك فما أرفع رأسي إليك من كسلي

وهجا شقيقه مجاشع حماد عجرد وهو صبي حينئذ، فشبب حماد بأمه، فبلغ الشعر عمرو بن مسعدة، فبعث إلى حماد بصلة، وسأله الصفح عن أخيه، ونال أخاه بكل مكروه، وقال له: ثكلتك أمك! أتتعرض لحماد، وهو يثاقف[1] بشارًا ويقاومه، والله لو قاومته لما كان لك في ذلك فخر، ولئن تعرضت له لينهكنك وسائر أهلك، وليفضحنك فضيحة لا يغسلها أبدًا عنا.

وبلغ العتابي الشاعر أن عمرو بن مسعدة ذكره عند المأمون بسوءٍ، فقال:

قد كنت أرجو أن تكون نصيري وعلى الذي يبغى عليَّ ظهيري
وطفقت آمل ما يرجَّى سيبه حتى رأيت تعلقي بغرور

---

(١) يثاقف: يخاصم.

فحفرت قبرك ثم قلت دفنته ... ونفضت كفي من ثرى المقبور
ورجعت مفتريًا على الأمل الذي ... قد كان يشهد لي عليك بزور

فركب عمرو في موكبه واعتذر إليه.

وكان بين عمرو بن مسعدة وإبراهيم بن العباس الصولي مودة وقرابة، فحصل لإبراهيم ضائقة بسبب البطالة في بعض الأوقات، فبعث له عمرو مالًا، فكتب إليه إبراهيم:

سأشكر عمرًا ما تراخت منيتي ... أيادي لم تُمْنَنَ وإن هي جلت
فتًى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها ... فكانت قذى عينيه حتى تجلت

وذكر دعبل الشاعر أن عمرو بن مسعدة كان يقوم بأمر عمرو بن أبي بكر؛ يعني المؤملي قاضي دمشق، وكان محمد بن داود يحمل عليه، فقال:

لشتان بين المدعين وزارة ... وبين الوزير الحق عمرو بن مسعدة
فهمهم في الناس أن يجبهوهم ... وهمّ أبي الفضل اصطناع ومحمده
فاسكن رب الناس عمرًا جنانه ... وأسكنهم دارًا من النار موصده

وممن كان عمرو يجري عليهم الحرمازي، وكان في ناحيته، فخرج عمرو إلى الشام، وتخلف الحرمازي ببغداد لنقرس أصابه، فقال:

أقام بأرض الشام فاختل جانبي ... ومطلبه بالشام غير قريب
ولا سيما في مفلس حلف نقرس ... أما نقرس من مفلس بعجيب

يقولون: فلان منقرس كناية عن المثرى، ويشتق منه تنقرس فلان: إذا أثرى. قال المبرد: وسمعوا أن هذا الداء يكون في أهل النعمة.

ولي عمرو بن مسعدة فارس وكرمان، فقال له بعض أصحابه: أيها الأمير لو كان الحياءُ يظهر سؤالًا، لدعاك حيائي من كرمك ومن جميع أهلك إلى الإقبال عليَّ بما يكثر به حسد عدوي دون أن أسألك، فقال عمرو: لا تبغِ ذلك بابتذالك ماء وجهك، ونحن نغنيك عن إراقتهِ في عرض السؤال، فارفع ما تريده في رقعة يصل إليك سرًّا. ففعل.

ولقد جرى ذكر عمرو بن مسعدة في رسالة الحيدة، وفيها وصف ما جرى من المناظرة بين عبد العزيز بن يحيى المكي، وبين بشر بن غياث المريسي بحضرة أمير المؤمنين المأمون في مسألة خلق القرآن، جاء فيها كلام لعمرو بن مسعدة قاله لعبد العزيز بن يحيى وهو: «أيها الرجل قد حَمَلت نفسك على أمر عظيم، وبلغت الغاية في مكروهها، وتعرضت لما لا قِوام لك به في مخالفة أمير المؤمنين، وادعيت بها لا يثبت به حجة على مخالفتك، ولا لأحد غيرك، وليس وراءك بعد الحجة عليك إلا السيف، فانظر لنفسك وبادر أمرك، قبل أن تقع المناظرة وتظهر عليك الحجة، فلا تنفعك الندامة، ولا يقبل منك معذرة، ولا تقال لك عثرة، فقد رحمتك وأشفقت عليك مما هو نازل بك، وأنا أستقيل لك أمير المؤمنين وأسأله الصفح عن جرمك، وعظيم ما كان منك، إذا أظهرت الرجوع عنه والندم على ما كان، وآخذ لك الأمان منه والجائزة، فإن كانت لك ظلامة أزلتها عنك، وإن كانت لك حاجة قضيتها لك، فإنما جلست رحمة لك مما هو نازل بك بعد ساعة إن أقمت على ما أنت عليه، ورجوت أن يخلصك الله تعالى على يدي من عظيم ما أوقعت نفسك فيه».

دخل الحسن بن سهل على المأمون فقال له: كيف علمك بالمروءة؟ قال: ما أعلم ما يريد أمير المؤمنين فأجيبه. قال: عليك بعمرو بن مسعدة. قال: فوافيت عمرًا وفي داره صناع وهو جالس على آجرة ينظر إليهم، فقلت: إن أمير المؤمنين يأمرك أن

تعلمني المروءة. فدعا بآجرة فأجلسني عليها وتحدثنا مليًّا، وقد امتلأت غيظًا من تقصيره بي ثم قال: يا غلام عندك شيءٌ يؤكل؟ قال: فقدم طبقًا لطيفًا عليه رغيفان وثلاث سكرجات[1] في إحداهن خل وفي الأخرى مُرّى[2] وفي الأخرى ملح، فأكلنا، وجاء الفراش فوضأنا ثم قال: إذا شئت، فنهضتُ محفظًا[3] ولم أودعه، فقال لي: إن رأيت أن تعود إليَّ في يوم مثله. فلم أذكر للمأمون شيئًا مما جرى. فلما كان في اليوم الذي وعدني لقياه، سرت إليه فاستؤذن لي عليه فتلقاني على باب الدار فعانقني، وقبَّل بين عيني، وقدمني أمامه، ومشى خلفي، حتى أقعدني في الدست[4]، وجلس بين يدي، وقد فرشت الدار، وزينت بأنواع الزينة، ولأقبل يحدثني ويتنادر[5] معي، إلى أن حضر وقت الطعام، فأمر فقدمت أطباق الفاكهة، فأصبنا منها؛ ونُصبت الموائد فقدم عليها أنواع الأطعمة من حارها وقارها وحلوها وحامضها، ثم قال: أيُّ الشراب أعجب إليك؟ فاقترحت عليه. وحضر الوصائف للخدمة، فلما أردت الانصراف حمل معي جميع ما أحضر من ذهب وفضة وفرش وكسوة، وقُدِّم إلى البساط فرس بمركب ثقيل فركبته، وأمر من بحضرته من الغلمان الروم والوصائف حتى سعوا بين يدي وقال: عليك بهم فهم لك، ثم قال: إذا زارك أخوك فلا تتكلف له واقتصر على ما يحضرك، وإذا دعوته فاحتفل واحتشد ولا تدعن ممكنًا، كفعلنا بك عند زيارتك إيانا، وفعلنا يوم دعوناك.

وما الحسن بن سهل بالذي يُعَلَّم المروءة، وهو الوزير العظيم العاقل العالم الذي كان مثال المروءة، زوَّج ابنته بوران من المأمون فعمل (من الولائم والأفراح ما

(١) السكرجة: قصاع يؤكل فيها صغار.
(٢) المرى: رب مملح وتقول له سلامورة.
(٣) أحفظه: أغضبه فاحتفظ.
(٤) الدست: صدر البيت.
(٥) تنادر علينا: حدثنا بالنوادر.

لم يعهد مثله في عصر من الأعصار، وكان ذلك بفم الصلح، وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها، سواء كان ضيعة أو ملكًا آخر أو فرسًا أو جارية أو مملوكًا، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم، ونوافج المسك وبيض العنبر). وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم. لا جرم أن في أمر المأمون عمه بالذهاب إلى عمرو بن مسعدة يتعلم منه المروءة ما يشعر بمنزلة عمرو من الخليفة، وأنه عظيم في أخلاقه، يعرف كيف يربي الناس عليها.

ذكر القاضي التنوخي أن المأمون أمر محمد بن بزوان والوزير أحمد بن أبي خالد أن يناظرا عمرو بن مسعدة في مال الأهواز، فناظراه فتحصل عليه ستة عشر ألف ألف درهم، فأعلم محمد المأمون بذلك، فقال له المأمون: اقبل كل حجة له وكل ادعاء وكل تعلق. قال: قد فعلت. قال: عد لذلك فعاد، فتعلق عمرو بأشياء لا أصل لها. فسقطت من المال عشرة آلاف ألف، وبقي ستة آلاف ألف درهم لا حجة له فيها، أخذ خطه بها، فأخذ المأمون الرقعة، ثم أحضر عمرًا بعد خروج محمد فقال: هذه رقعتك؟ فقال: نعم. فقال: وهذا المال واجب عليك؟ قال: نعم. قال: فخذ رقعتك فقد وهبناه لك. قال: إذا تفضلت به يا أمير المؤمنين فإنه واجب لو أجزت به أحمد بن عروة عامل الأهواز وهو مقرٌّ به، وأشهدك أني قد وهبته لك. فاغتاظ المأمون وخرج عمرو وقد عرف غيظ المأمون وخطأه فيما عمله، فلجأ إلى أحمد بن أبي خالد فأخبره بالخبر وكان يخصه فقال: لا عليك. فدخل إلى المأمون فلما رآه قال: ألا تعجب يا أحمد بن عمرو، وهبنا له ستة آلاف ألف درهم بعد أن تجافينا له عن أضعافها، فوهبها بين يدي من أحمد بن عروة، كأنه أراد أن يباريني ويصغر معروفي. قال: أوَفعل هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: لو لم يفعل هذا لوجب أن يسقط

حاله. قال: وكيف؟ قال: لأنه لو استأثر به على أحمد بن عروة وآخذ أحمد بالمال وأداه إليه، كان قد أخرجه من معروفك صفرًا، ولما كانت نعمتك على عمرو نعمة على أحمد وهما خادمان، وكان الأجمل أن يتضاعف معروفك عندهما، فقصد عمرو ذلك فصار المال تفضلًا منك على عمرو وعلى أحمد بن عروة، ومع ذلك فأنت سيد عمرو لا يعرف سيدًا غيرك، وعمرو سيد أحمد، فاقتدى في أمر أحمد بما فعلته في أمره. وأراد أيضًا أن يسير في ملوك الأمم أن خادمًا من خدمك اتسع قلبه لهبة هذا المال من فضل إحسانك إليه، فيزيد في جلالة المملكة وجلالة قيمتها، فيكسر ذلك الأعداء الذين يكاثرونك، فسرى عن المأمون وزال ما بقلبه على عمرو.

وروى التنوخي أيضًا أن المأمون ذكر عمرو بن مسعدة، واستبطأه في أشياء وكان ذلك بحضرة أحمد بن أبي خالد، فأخبر به عمرًا أحمد، فدخل عمرو إلى المأمون فرمى بنفسه وقال: أنا عائذ بالله من سخطك يا أمير المؤمنين، أنا أقل من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد، ويسر عليَّ ضغنًا يظهر منه لمكانه ما ظهر، فقال له المأمون: وما ذاك؟ فأخبره بما بلغه، فقال: لم يكن كذلك، وإنما جرى معنى أوجب ذكر ما ذكرت، فقدمته قبل أن أخبرك به، وكان ذلك عزمي، وما لك عندي إلا ما تحب، فليفرخ روعك، وليحسن ظنك، وسكن ما به حتى شكره، وجعل ماء الحياة يدور في وجهه. فلما دخل أحمد بن أبي خالد قال له: أشكو إليك من بحضرتي من أهلي وخدمي، فما للمجلس حرمة حتى تؤدي ما يجري فيه إلى عمرو بن مسعدة، فقد أبلغ لي شيئًا قلته فيه فاتهمت به بعض بني هاشم ممن كان حاضرًا، ذلك أن عمرًا دخل عليَّ فأعاد ما كان، واعتذر فجعلت أعتذر إليه بعذر لم يبن الحق نسجه، ولم يتسق القول فيه، وإن لسان الباطل ينبئ عن الظاهر بالباطن. فقال له أحمد: لا يتهم أمير المؤمنين أحدًا، أنا أخبرت عمرًا، قال: ما دعاك إلى ذلك؟ قال: الشكر لله وإليه لاصطناعك والنصح بك، والمحبة لإتمام نعمتك على أوليائك وخدمك، وقد علمت

أن أمير المؤمنين يحب إصلاح الأعداء والبعداء، فكيف بالأولياء والقرباء، لا سيما مثل عمرو في موضعه من الدولة وموقفه من الخدمة، ومكانه من أمير المؤمنين، فأخبرته بما أنكره عليه ليقوِّم أَوَدَ يقينه، ويتلافى ما فرط منه، وإنما العيب لو أذعت سرًّا فيه قدح على السلطان أو نقض تدبير له؛ فقال له المأمون: أحسنت والله يا أحمد، إذ أخبرتني بخاصة الظن، وصدقتني عن نفسك.

قال إبراهيم بن الحسن بن سهل: كنا في مجلس المأمون وعمرو بن مسعدة يقرأ عليه الرقاع، فجاءته عطسة، فلوى عنقه فردها، فرآه المأمون، فقال: يا عمرو لا تفعل فإن رد العطسة وتحويل الوجه بها يورثان انقطاعًا في العنق. فقال بعض ولد المهدي: ما أحسنها من مولى لعبده، وإمام لرعيته. فقال المأمون: وما في ذلك؟ هذا هشام اضطربت عمامته، فأهوى الأبرش الكلبي إلى إصلاحها، فقال هشام: إنا لا نتخذ الإخوان خَوَلًا! فالذي قال هشام أحسن مما قلته. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إن هشامًا يتكلف ما طبعت عليه، فما تُعْدَل[1] به، ليس له قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا قيامك بحق الله، وإنك والملوك كما قال النابغة الذبياني:

ألم تر أن الله أعطاك سورة[2] ... يُرى كل مَلْك دونها يتذبذب
لأنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ثروته ونعمته:

ظهر أن عمرو بن مسعدة كان ذا ثروة طائلة، على كثرة ما بذل للعلماء والشعراء وغيرهم، وقد كان له قصور في دار السلام، وله ساباط يعرف به يقال له: ساباط[3]

(١) يقال ما يعدلك عندي شيء: أي ما يشبهك.

(٢) السورة: الشرف والفضل والرفعة.

(٣) الساباط: سقيفة بين دارين أو جدارين، والطاق: عقد البناء حيث كان، والجمع: أطواق وطيقان.

عمرو بن مسعدة، وهو فوق الجسر، ومن منازله منزل بحضرة طاق الحراني إبراهيم بن ذكوان. جمع كل هذا من مال دولة خدمها بالإخلاص والعقل، وربما كان فيها ما أخذ من غير حله، إن صح ما روي أن المأمون وقَّع في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة: «يا عمرو عمِّر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها»، ولما مات عمرو رُفع إلى المأمون أنه خلف ثمانين ألف ألف درهم. فوقَّع على الرقعة: «هذا قليل لمن اتصل بنا، وطالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيه»؛ أي: أن عمرًا خلف ثمانية ملايين دينار.

وروى المسعودي أنهم عرضوا لمال عمرو ولم يعرض لمال وزير قبله، والرواية الأولى أصح، وهي عن الصولي ابن عم عمرو بن مسعدة.

خلف عمرو هذه الثروة بعد هذا البذخ والرفاهية، في زمن كانت الخلافة العباسية سيدة الدول، وفي أيام خليفة يعرف أقدار الرجال، ويرى أنه يقلّ في اصطناعهم كل برّ ومكرمة، وكان يعتمد على عقلهم في تدبير ملكه، وللعقل قيمة عظيمة دونها كنوز الأرض وركازها في نظر المأمون. ولقائل أن يقول: ومن أين لفرد أن يجمع مثل هذه الثروة العظيمة، وهو مقيد بخدمة الدولة؛ لا يعمل فيما يجهد له الناس في الجمع ليكون عِرَض مال حسن القومة عليه؟ فالجواب: أن الخلفاء كانوا يُقْطِعون رجال دولتهم الولايات العظيمة، وربما نزلوا لهم عن خراجها السنة أو السنين، ويهبون لهم من ضروب العطايا من ناطق وصامت، وعقار ومتاع ما يتأثلون به، والدولة التي قدرت مساحة ممالكها بنحو مساحة قارة أوربا اليوم، وضمت جميع الأقطار العامرة في آسيا وأفريقيا، إذا جمعت جميع دخلها الذي لا تحتاج إليه، تقف الحركة الاقتصادية في البلاد لا محالة، فترى من الحكمة أن تنتقل الثروة في الأيدي، وما كانت الدولة في الحقيقة تحتاج يومئذ إلى نفقات كبيرة لإطعام الجيوش وإعداد الأساطيل وتجهيزها بالمدمرات والمهلكات شأن دول عصرنا.

ولقائل ممن تشبع بروح الديمقراطية في هذا العصر أن يقول: وهل هذا هو المعقول في قيام الملك من الإفراط في الإفضال على أفراد يسوِّغون جباية قطر أو أقطار صُبرة واحدة وهي تجمع بالدانق والدرهم؟ وهل بمثل هذا نجح الخلفاء الأُول أو أرباب الدول الغربية لعهدنا؟ فالجواب أن طبيعة القرن الثاني والثالث غير طبيعة القرن الأول، وهذان القرنان الأخيران لا يشبهان بحال قرون البشر منذ عشرة قرون، خصوصًا إذا وضعنا موضع النظر أيضًا اتساع رقعة الملك، وعمران العراق وحده، دع غيره من الأقطار، فإن كل هذا أعظم حامل على البذل، ولهذا كان للخلفاء في هذا العطاء بعض مبرر لأعمالهم، وإن كان لا مبرر من إسراف، لكن حالة العمران اقتضت ذلك في الدهر السالف؛ وكان الأولى أن يعمدوا إلى القصد في الأخذ والقصد في العطاء، ويقيموا بها يفضل المصانع والمعالم في أرجاء المملكة. والمنصف يقول: إن هذا النظام البديع في تنظيم الموازنات هو وليد العصور الجديدة، وهذا التقدير وهذا التقتير حتى في التافه والقطمير، هما من خلق دول الغرب. وكان ذلك على حالة ابتدائية في عصر الأمويين والعباسيين، ولم تكن أسباب الحياة تشعبت هذا التشعب، ولا الأوضاع هذه الأوضاع، ولا الإبداع في النظم هذا الإبداع.

عرفنا من سيرة ابن مسعدة ما أطللنا به من نافذة ضيقة على ما خصت به نفسه، وانطوى عليه من الصفات السامية التي كان بها عظمته، وربما لم يخل عصره من بلغاء أمثاله لو فُتح لهم الطريق لأغنوا غناءه، ولكن الطبائع تختلف، وهذه الرقة في السياسة يصعب أن يبرز فيها كل إنسان، فهو كما كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضي وقد احتاج إلى رجل يوليه بعض الأعمال، فقال: إنه يريد رجلًا جامعًا لخصال الخير، ذا عفة ونزاهة طِعْمة[1]، قد هذبته الآداب، وأحكمته التجارب، ليس

(١) في الأساس: ومن المجاز فلان طيب الطعمة وخبيث الطعمة بالكسر، وهي الجهة التي منها يرتزق، بوزن الحرفة.

بظنين في رأيه، ولا بمطعون في حسبه، إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قُلِّد مهمًّا من الأمور أَجزأ[(١)] فيه، له سنٌّ مع أدب ولسان، تقعده الرزانة، ويسكنه الحلم، قد فُرَّ[(٢)] عن ذكاء وفطنة، وعض على قارحة[(٣)] من الكمال، تكفيه اللحظة، وتشرده السكتة، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها، وقام في أمور فحمد فيها، له أناة الوزراء، وصولة الأمراء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وجواب الحكماء، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه، وحسن بيانه، دلائل الفضل عليه لائحة، وأمارات العلم له شاهدة، مضطلعًا مما استنهض، مستقلًّا بما حمل. اهـ.

وهذه الصفات هي صفة عمرو بن مسعدة، أنعم به وبسيده، وسقيًا لعصر أخرج عظماء يحق لنا التمجد بهم، مهما بَعُدَ العهد.

(١) أجزأني كذا: كفاني وهذا مجزي.

(٢) أي: جرب واختبر فيهما، وأصله من فر الدابة: كشف عن أسنانها لينظر ما سنها.

(٣) قوله: وعض على قارحة... إلخ: كناية عن بلوغه درجة الكمال.

أحمد بن يوسف الكاتب

نشأته وظهوره:

هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح مولى بني عجل من قرية من قرى الكوفة تعرف بريا، يقال: إن أبا صبيح منها، وإنه مولى إسلام. حَدّث جماعة من الكُتَّاب أن السري بن بشر العجلي اشترى صبيحًا فأعتقه، وكان صبيح قبطيًّا. ويقول الصولى: إن هذا هو الصحيح من نسبه، فهو من موالي مصر أسلم جد جده، وكان أحمد وأخوه القاسم شاعرين أديبين، وأولادهما جميعًا أهل أدب، يطلبون الشعر والبلاغة. وكان جده القاسم كاتبًا أيضًا، وهو على ديوان الغرب أيام بني العباس وفي آخر أيام بني أُمية، ثم كتب القاسم لعبد الله بن علي عم المنصور، وكتب يوسف ابنه، ثم كتب يوسف ليعقوب بن داود وزير المهدي.

فأحمد إذًا معرق في الكتابة، كان أبوه وجده كاتبين، ولا شك أنهما من المجودين في الإنشاء؛ لأنهما كتبا لعظماء في عهد عظمة الأمة، وكان يعقوب بن داود خاصة كاتبًا ممتازًا بين الكتاب، معدودًا في الدرجة الأولى، ومثله لا يرتضي لكتابته إلا من كان في صناعته آية، ومن كان له قديم يمتُّ إليه في أبواب الآداب يهون عليه تعاطيها، إذ يكون أنس بها في صباه، ورأى أمامه من يقتدي به ويجري في طريقه.

نشأ أحمد في أرقى بيئة يعيش فيها ناشئ، ولعله عرف وهو صبي عن هذه الصناعة -صناعة الكتابة- ما لا يتيسر لغيره ممن قضوا السنين يمارسونها. عرف ما

يصلح في معاناة أمور الملك والسلطان، وعرفنا أن أحمد بن يوسف ورث عن أبيه وجده حب الأدب والشعر، وما عرفنا بمن تخرج لأول أمره ولا سنة مولده.

ولنا أن نقول في أصل أحمد ونشأته: إنه عربي النشأة، بغدادي الدار، مصري الأصل والنبعة، نشأ كاتبًا شاعرًا يستفزه الطرب، ثم هو يقول الشعر فيجيد، وقد يمدح وقد يهجو على طريقة أبناء ذاك الزمان، وعُرف بحب المرح، وبتعاطي الشراب، والأنس إلى القينات، والافتتان بالجمال حيث كان. واشتهر باستهتاره في شهواته، وأنه مُسْتَرَقٌّ بلذاته.

كان أحمد يبرز في معرفة مواقع الاستشهاد بآيات الكتاب العزيز، ويقتبس منه للتدليل على قضاياه، وكان متمكنًا من الشرع، وخاصة فيما كان له صلة بالأحوال والمعاملات؛ أما درجته في رواياته في الحديث والأدب، فهذا مما أغفله من ترجموا له؛ وطريقته في إنشائه الاعتماد على المرسل من الكلام، في طابع نقي بريء من كل شائبة، خالٍ من التعمل، لا يعمد إلى السجع إلا في بعض التحميدات، وكانت الأسجاع في هذا الضرب من الإنشاء زيًّا سلطانيًّا، لم يسعه إلا تقليده، يطيل بعض الشيء عن الخلفاء على ما سنعرفه في كتابه الخميس الذي كان يقرؤه أهل خراسان، وهو على لسان المأمون، ولكنه على تطويله لا يأتي بجملة إلا إذا طرحتها اختل مكانها، هو يسجع وكل سجعة من سجعاته على الأغلب ذات معنى مستقل، فهو من هذا النظر صاحب طريقة متفرد فيها.

أما إذا كتب أحمد على لسان غيره، فيلتزم طريقة أخرى، لأن الكتابة الديوانية أو الرسمية أمست على عهده ذات قواعد ورسوم لا يحمد من كاتب، ولو كان من عيار أحمد بن يوسف، أن يتعداها، فتراه في كتاباته الخاصة مقلًّا من ألفاظه مكثرًا من معانيه، وفي كتابات الدولة يساير العرف والعادة؛ وفرق بين من يكتب لغيره ومن

يكتب لنفسه، هو يكتب لغيره ما يروقه ويريده عليه، ويكتب باسمه ما يعبر به عن ذات نفسه وشهوة قلبه.

لم يؤثر عن أحمد بن يوسف أنه أفرد موضوعًا بالتأليف، على عادة الكُتَّاب والعلماء، وما خلف غير ديوان رسائله. وقال ابن النديم: إن له رسالة الحسن. وعدها في جملة الكتب المجمع على جودتها، وحكمنا اليوم عليه برسائل قليلة أبقت عليها الليالي، وبعضها في شئون الدولة والخلافة، بل ما علمنا أيضًا إن كان دخل دواوين الخلافة لأول أمره أم تخرج في الكتابة في بيته، فاستفاضت شهرته، وعرف له الخاصة نبوغه، حتى وصل إلى المأمون.

قالوا: إن أول ما ارتفع به أن الأمين لما قُتل أَمَر طاهر بن الحسين الكاتب أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا، فقال طاهر: أُريد أخصر من هذا؟ فوصف له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة؛ فأحضره لذلك، فكتب: «أما بعد[1]؛ فإن المخلوع قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، قد فرق بينهما حكم الكتاب في الولاية والحرمة، بمفارقته عصمة الدين، وخروجه عن إجماع المسلمين، لقول الله عز وجل فيما اقتص من أنباء نوح وابنه: {إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح}، ولا طاعة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة ما كانت في ذات الله، وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعده، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقه، الكائن له فيمن خان عهده، ونقض عقده، حتى ردَّ به الألفة بعد فرقتها، وجَمعَ به الأمة بعد شتاتها، وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها، وقد وجهت إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس المخلوع، وبالآخرة وهي البردة والقضيب، والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه، الراجع إليه تراث آبائه الراشدين».

---

(١) روى ياقوت في طبقات الأدباء هذا الكتاب برواية أخرى فيها زيادات قليلة.

وبعد هذا الكتاب انتشر صيت أحمد لتجويده في موضوع يصعب على كل كاتب أن يجود فيه لدقته، وقد أبدع في ذكر الغرض، وأتى بكلام فيه صنعة عجيبة لتخفيف مصيبة المأمون بأخيه الذي نازعه، فقلل من شأن الخطب بأخصر أسلوب. أما غيره من زملائه الكتاب فقد أطالوا، والإطالة في مثل هذا الموقف غير محمودة، فقدر لأحمد أن يبذَّهم لمعرفته بصناعته، وبما يجب أن يخاطب به الخليفة المأمون وهو بين حسرة وغبطة؛ وساعده على الظهور أن طاهر بن الحسين الخزاعي أكبر قواد المأمون والذي تولى إطفاء الفتنة وقتل الأمين كان كاتبًا من الطراز الأول، يعرف مقدار كد الأفهام وينثر المليح العالي من الكلام، ومثله من يحكم لأحمد بن يوسف أو عليه، فخصه لما رأى من طول باعه بالكرامة، واعتمد عليه من دون الكتاب.

وفي رواية ثانية: أن ذا الرياستين الفضل بن سهل لما أدخل رأس الأمين على أخيه المأمون أدخله على ترس بيده، فلما رآه سجد، ثم أمره المأمون أن ينشئ كتابًا عن طاهر بخبره ليقرأه على الناس، فكتبت عدة كتب لم يرضها واستطالها، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب، فلما عرض النسخة على ذي الرياستين رجع نظره فيها، ثم قال لأحمد: ما أنصفناك. وأمر له بصلات وكسي وكراع وغير ذلك، وقال له: إذا كان غدًا فاقعد في الديوان، وليقعد جميع الكُتَّاب بين يديك، واكتب إلى الآفاق.

وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية، وسواء كتب أحمد في خراسان أو بغداد عن يد الفضل أو عن يد طاهر، فقد علا بهذا الكتاب نجمه، وعُرف من بين كُتَّاب عصره فضله، وفي هذا الدور عرفه الرؤساء فقط.

بقي أن نعرف كيف اتصل بالمأمون، وصاحب الفضل لا يخفى، وربُّ العلم لا ينكر محله، فقد ذكروا أن أحمد بن أبي خالد الوزير كثيرًا ما كان يصف أحمد للمأمون، ويحمله على منادمته، وكان طاهر بن الحسين يريده ويزين أمره، وإبراهيم بن المهدي

يطريه ويقرظه، فأمر المأمون أحمد بن أبي خالد بإحضاره فلما وقف بين يديه قال: «الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي استخصك فيما استحفظك من دينه، وقلدك من خلافته، بسوابغ نعمه، وفضائل قسمه[1]، وعرفك من تيسير كل عسير جاولك[2] عليه متمرد حتى ذلّ، ما جعله تكملة لما حباك به من موارد أموره بنجح مصادرها، حدًّا ناميًا زائدًا لا ينقطع أولاه، ولا ينقضي أخراه، وأنا أسأل الله يا أمير المؤمنين من إتمام بلائه لديك، ومنّه عليك، وكفايته ما ولاك واسترعاك، وتحصين ما حاز لك، والتمكين من بلاد عدوك، ما يمنع به بيضة الإسلام، ويعزُّ بك أهله، ويبيح بك حمى الشر، ويجمع لك متباين الألفة، وينجز بك في أهل العناد والضلالة وعده، إنه سميع الدعاء، فعّال لما يشاء». فقال المأمون: أحسنت وبورك عليك ناطقًا وساكتًا. ثم قال بعد أن بلاه واختبره: يا عجبا لأحمد بن يوسف كيف استطاع أن يكتم نفسه؟!

وما ندري كم كان عمر أحمد يومئذ، ولا شك أنه كان على أبواب الكهولة، فنبل بالكتابة، وكان من قبل خاملًا، فاستحق اسمها على ما استحقها عبد الحميد بن يحيى والربيع والفضل بن الربيع ويعقوب بن داود ويحيى بن أبي خالد وجعفر بن يحيى وعبد الله بن المقفع والفضل بن سهل والحسن بن سهل ومحمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وإبراهيم بن العباس الصولي ونجاح بن سلمة وأحمد بن محمد المدبّر وأضرابهم.

جاء أحمد يكتب للمأمون بعد الفضل بن سهل والحسن بن سهل وعمرو بن مسعدة، وقبل أن يتصل بالمأمون لم يكن معروفًا إلا عند خاصة الكُتَّاب وأهل الأدب، حتى إذا أُعجب به الخليفة بعدت شهرته في العالمين وحان الوقت الذي ظهر

---

(١) القسم: النصيب.

(٢) في رواية طيفور في كتاب بغداد: وعرفك من تيسير كل عسير جاولك، وغلبة كل متمرد صاولك ما جعله... إلخ.

فيه ظهورًا لا خفاء بعده. مات كاتب المأمون أحمد بن أبي خالد، فسأل المأمون الحسن بن سهل عن رجل كفء يخلفه، فذكر له أبا جعفر أحمد بن يوسف، وأبا عباد ثابت بن يحيى الرازي، قائلًا: إنهما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين وخدمته وما يرضيه. فقال له: اختر لي أحدهما، فقال الحسن: إن صبر أحمد على الخدمة، وجفا لذته قليلًا فهو أحبهما إليَّ؛ لأنه أعرق في الكتابة وأحسنهما بلاغة، وأكثر علمًا، فاستكتبه المأمون.

وكان أحمد يعرض الكتب ويوقّع ويخلفه أبو عباد إذا غاب عن دار المأمون، وكان أحمد بعد دخوله على المأمون يتقلد له ديوان السر، وبريد خراسان، وصدقات البصرة، وصير له المأمون نصف الصدقات بالبصرة طعمة له سبع سنين، وكان قبل ولايته البصرة سلَّفه الأهواز فصرف عنها. وما برح يزداد كل يوم رفعة ويعظم في عينه لصدقه ونصحه. كتب أحمد بن يوسف بين يدي المأمون فاستحسن خطه وقال له: لوددت أني أكتب مثل خطك وعلى صدقة ألف ألف درهم. فقال له: لو كان في الخط حظ ما حرمه رسول الله.

وكان المأمون لعلمه بقدم أحمد في صناعته إذا حضر أمر يحتاج فيه إلى كتاب يشهر ويذكر، أمره فكتب مثل كتاب الخميس وغيره. وحدّث عن نفسه قال: أمرني المأمون أن أكتب إلى جميع العمال في أخذ الناس بالاستكثار من المصابيح في شهر رمضان، وتعريفهم ما في ذلك من الفضل، فما دريت ما أكتب ولا ما أقول في ذلك، إذ لم يسبقني إليه أحد فأسلك طريقه ومذهبه، فَقِلْتُ[1] في وقت نصف النهار، فأتاني آتٍ في منامي فقال: قل فإن في ذلك أنسًا للسابلة، وإضاءة للمتهجدين، ونفيًا لمظان الريب، وتنزيهًا لبيوت الله عن وحشة الظلم.

---

(١) القائلة: نصف النهار. قال قيلًا وقائلة وقيلولة ومقالًا ومقيلًا وتقيل نام فيه فهو قائل.

أخذت الدنيا تنهال على أحمد في وزارته، ومن يتعلق بخدمة المأمون ولا يسعد! حتى أمسى بتليده وطريفه عنوان المجد والعظمة. حدثوا عنه أن عبد الله بن طاهر لما خرج من بغداد إلى خراسان قال لابنه محمد: إن عاشرت أحدًا بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب فإن له مروءة. فما عرّج محمد حين انصرف من توديع أبيه على شيء حتى هجم على أحمد في داره فأطال عنده، ففطن له أحمد فقال: يا جارية غدّينا، فأحضرت طبقًا وأرغفة نقية وقدمت ألوانًا يسيرة وحلاوة، وأعقب ذلك بأنواع من الأشربة في زجاج فاخر وآلة حسنة. وقال: ليتناول الأمير أيها شاء، ثم قال له: إن رأى الأمير أن يشرّف عبدَه ويجيئه في غدٍ أنعم بذلك.

قالوا: فنهض محمد وهو متعجب من وصف أبيه له، وأراد فضيحته فلم يترك قائدًا نبيلًا، ولا رجلًا مذكورًا من أصحابه إلا عرفهم أنه في دعوة أحمد بن يوسف، وأمرهم بالغدو معه، فلما أصبحوا قصدوا دار أحمد بن يوسف وقد أخذ أهبته، وأظهر مروءته، فرأى محمد من النضائد والفرش والستور والغلمان والوصائف ما أدهشه، فلما رفعت الموائد؛ وكانت كما ادعى الراوي ثلثمائة مائدة، وقد حف بثلثمائة وصيفة، ونقل إلى كل مائدة ثلثمائة لون في صحاف الذهب والفضة، قال ابن طاهر: هل أكل مَن بالباب؟ فنظروا فإذا جميع من بالباب قد نصبت لهم الموائد فأكلوا، فقال: شتان بين يوميك يا أبا جعفر. فقال: أيها الأمير، ذاك قوتي، وهذه مروءتي.

وإذا استجزنا حذف ما في هذه الحكاية من المبالغة -ومثلها وقع للحسن بن سهل مع عمرو بن مسعدة على ما قرأته في الكلام على حياة عمرو، والقصتان منقولتان من كتاب «ملح المما لحة» لابن باقيا الكاتب- إذا حذفنا جانب الإغراق في الوصف على ما قد يجاوز قدرة الخليفة دع وزيره، يبقى من القصة طرف صالح، يصح أن يحكم به على نعمة أحمد في عهد سيده المأمون. قالوا: وكان المأمون يقول

لأحمد، وقد ولى أخاه القاسم خراج السواد فجباه فضلًا مما جباه غيره في سائر أيام المأمون: يا أحمد، القاسم يجمع، ونحن نفرق. عن محمد بن عبد الملك قال: وهب لي أحمد بن يوسف الكاتب على ظَهْر يدٍ ألفي ألف درهم تفاريق.

ومن أظهر صفات أحمد بن يوسف، وهذه هي التي كان يعجب بها المأمون، شدة عارضته، وقوة بديهته، والبديهة يظهر أثرها في تدبير الملك، وما يعرض للخليفة من شئون تحتاج إلى أن يبت فيها حالًا من جواب على سؤال، وإعطاء رأي في معضلة، في ساعة يكون فيها الكاتب قد عاوده السأم والتعب، واضطراب النفس وموت الخاطر، وقد تطلب إليه معالجة أصعب الموضوعات، في أضيق الأوقات، وأتعب الساعات.

ذكروا أن أحمد جلس يومًا وهو زير يقرأ الكتب بين يدي المأمون، فمرت قصة أصحاب الصدقات، فقال المأمون لأحمد: انظر في أمرهم، قد كثر ضجيجهم، فقال: قد نظرت في أمرهم وفررته[1]، ولكنهم أهل تعدٍّ وظلم، وبالباب منهم جماعة، فقال المأمون: أدخلوهم إليَّ، فدخلوا فناظروه فاتجهت الحجة عليهم، فقال أحمد: هؤلاء ظَلَّموا رسول الله، كيف يرضون بعده، قال الله عز وجل: {ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون}[2]، فعجب المأمون من حسن انتزاعه، وحضور مراده في وقته، وقال: صدقت يا أحمد وأمر بإخراجهم.

وكثر طلاب الصدقات بباب المأمون مرة، فكتب إليه أحمد: «داعي نداك يا أمير المؤمنين ومنادي جدواك جمعا الوفود ببابك، يرجون نوالك المعهود، فمنهم من

---

(١) من المجاز فررت عن الأمر: بحثت عنه، وفر عن هذا الأمر وفر فلان عما في نفسه.

(٢) يلمزك: يعيبك.

يمتُّ بحرمة، ومنهم من يُدِلُّ بخدمة، وقد أجحف بهم المقام، وطالت عليهم الأيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسيبه، ويحقق حسن ظنهم بطَوْله[1]، فعل إن شاء الله».

فوقّع المأمون: الخير متبع، وأبواب الملوك مغانٍ لطالبي الحاجات، ومواطن لهم، ولذلك قال الشاعر:

يسقط الطير حيث يلتقط الـ ـــحبَّ ويغشى منازل الكرماء

فاكتب أسماء من ببابنا منهم، واحكِ مراتبهم، ليصل إلى كل رجل قدر استحقاقه، ولا تكدّر معروفنا عندهم بطول الحجاب، وتأخير الثواب، فقد قال الشاعر:

فإنك لن ترى طردًا لحرّ كإلصاق به طرف الهوان

ومن أخبار أحمد وفيها صورة أخلاقه، أنه خاصم رجلًا بين يدي المأمون، وكان صغا المأمون إليه على أحمد، ففطن لذلك فقال: يا أمير المؤمنين إنه يستملي من عينيك ما يلقاني به، ويستبين بحركتك ما تُجِنّهُ له، وبلوغ إرادتك أحبُّ إليَّ من بلوغ أملي، ولذة إجابتك أمتع عندي من لذة ظفري، وقد تركت له ما نازعني فيه، وسلمت له ما طالبني به. فاستحسن ذلك المأمون.

وكان واسع الصدر كأكثر من يلي شيئًا من أمر الأمة من العظماء. قيل: إن أبا العتاهية أتى أحمد فحُجب عنه فقال:

متى يظفر الغادي إليك بحاجة ونصفك محجوب ونصفك نائم

---

(١) الطول: الفضل، والسيب: العطاء.

ولنا أن نستدل على غنى أحمد بن يوسف أنه أهدى إلى المأمون لما استكتبه لوزارته، واستخصه في يوم مهرجان، هدية بألف ألف درهم وكتب إليه:

على العبد حق فهو لا شك فاعله ... وإن عظم المولى وجلَّت فضائله
ألم ترنا نُهدي إلى الله ما له ... وإن كان عنه ذا غنًى فهو قابله
ولو كان يُهدى للمليك بقدره ... لقَصَّرَ عَلُّ البحر عنه وناهله[1]
ولكننا نُهدي إلى من نجلّه ... وإن لم يكن في وسعنا ما يشاكله

وأهدى إليه في عيد وكتب إليه: هذا يوم جرت فيه العادة بإهداء العبيد للسادة، وقد أهديت لأمير المؤمنين قليلًا من كثيره عندي. فقال المأمون: عاقل أهدى حسنًا.

كان إعجاب الخليفة بأحمد كثيرًا، وبذلك ندفع ما قاله صاحب غرس النعمة في كتاب الهفوات، ونقله ياقوت عنه من أن المأمون كان سب موت وزيره، والرواية: أن المأمون كان إذا تبخر طُرح له العود والعنبر، فإذا تبخر أمر بإخراج الجمرة ووضعها تحت الرجل من جلسائه! إكرامًا له، وحضر أحمد بن يوسف يومًا، وتبخر المأمون على عادته، ثم أمر بوضع الجمرة تحت أحمد بن يوسف فقال: هاتوا ذا المردود. فقال المأمون: ألنا يقال هذا؟ ونحن نصل رجلًا واحدًا من خدمنا بستة آلاف ألف دينار، إنما قصدنا إكرامك، وأن أكون أنا وأنت قد اقتسمنا بخورًا واحدًا، يُحضر عنبر، فأحضر منه شيء في الغاية من الجودة، في كل قطعة ثلاثة مثاقيل، وأمر أن تطرح قطعة في المجمر ويبخر بها أحمد، ويدخل رأسه في زيقه حتى ينفذ بخورها، وفُعل به ذلك بقطعة ثانية وثالثة وهو يستغيث ويصيح، وانصرف إلى منزله وقد احترق دماغه واعتل ومات سنة (٢٣١)، وقيل: (٢١٤).

(١) النهل -محركة-: أول الشرب، والعل: الشربة الثانية.

وهذه القصة منقوضة بالبداهة، ذلك أن أحمد بن يوسف يعرف مقام الخليفة، ولا يجرؤ أن يقول ما نسب إليه في حضرته ولا في غيبته، والمأمون صاحب النفس العظيمة يعرف قدر الرجل، فلا يرى مهما كان ذنبه أن يهلكه بالعنبر في مجلسه، ولكن الرجل مات حتف أنفه. وربما وضع هذه القصة من أراد إسقاط المأمون، ونسبة ضعف العقل إلى وزيره.

ولا بد من القول أن أحمد بن يوسف كان يحسن سياسة خليفته ويستميت في حبه ودعوة الناس إليه، وكانت مكانته في الأدب والظرف وفاء مكانته في السياسة. قال بعض القدماء في وصف كلامه: لم أرَ كلامًا أحسن وصلًا، ولا أمتن فصلًا، ولا أمنع إنذارًا، ولا أقنع إعذارًا، ولا أرأب لصدع، ولا أشعب لجمع من كلام أحمد بن يوسف. وقال جعفر بن يحيى: عبد الحميد أصل، وسهل بن هارون فرع، وابن المقفع ثمر، وأحمد بن يوسف زهر، وناهيك بها شهادة من كاتب مثلهم.

شيء من كلامه:

من مطولات أحمد بن يوسف كتاب كتبه في الإفاضة بمحامد المأمون، ولعله كُتب إلى شيعة خراسان ليستميل قلوبهم، جاء فيه في ولاية المأمون لعلي بن موسى الرضا: «وأحسن جزاء أمير المؤمنين ومَثُوبته، على صلة رحم رسول الله التي هي رحمه وقرابته، واختياره لولاية عهده الأمير الرِّضا علي بن موسى، حفظه الله، حين أحمد سيرته، ورضي محبته، وعرف استقلاله، بما قلده في هديه ودينه ووفائه، بما أكد الله به عليه، ومن عهد أمير المؤمنين أيده الله في اعتيامه[1] من آزره وآساه بما شَفَع رأيه، وأنفذ تدبيره، حين همَّ لاستصلاح ما استرعاه الله من أمور عباده، لما انتقى القائم بدعوته، ورئيس شريعته الأمير ذا الرياستين رحمه الله، فاتخذه مكاتفًا ظهيرًا

(١) الاعتيام: الاختيار.

ووزيرًا دون من سواه، فاتبع منهاج أمير المؤمنين، أيده الله، وسار بسيرته، شرقًا وغربًا، وغورًا ونجدًا، موفيًا بعهده، قائمًا بدعوته، مقتفيًا لأثره وسنته، فحسم الله به الأدواء، وقمع به الأعداء، من عتاة الأمم وطواغيت الشرك، وأباد على يده أهل الشقاق والنفاق، في كل أُفق وطرف، بِجَدّ أمير المؤمنين، أعزه الله، وبركة سياسته ودولته، ونُجح سعي من قام بنُصرة من قام بحقه، وأنار برهانه حتى توفاه الله عز وجل، حين بلغ همته وغايته، وحُمَّ أجله، وانقطعت مدته، سعيدًا حميدًا، شهيدًا فقيدًا، عند إمامه أكرمه الله، وعند الخاصة والعامة. وكان من إجلال أمير المؤمنين الحادثُ الذي نزل به، فأحيا آثاره، بوصف محاسنه، في مشاهده ومجامعه، وترحمه عليه عند ذكره، وحفظه في لحمته، وأهل حرمته، وفيمن كان يحمد الله على طاعته ونصيحته، ما أتم به نعمته، عندنا وعندكم معشر الشيعة، فقد أصبح أمره بكم متصلًا، وموقعه من جماعتكم متمكنًا، بقبضكم ما قبضه، ويبسطكم ما بسطه، من لوعه المصيبة وحسن العقبي».

وقال: «فأية نعمه أجل قدرًا ، وأسني أمرًا، معشر الشيعة من نعمة أمير المؤمنين، أيده الله، عند الأمير ذي الرياستين، ومراتبه التي رتبه بها، فإنه أعطاه رياسة الحرب، ورياسة التدبير، وعقد له على رأسهما عَلَمًا في دعوته وقلده سيفهما، وختمه بخاتم الخلافة وخاتم الدولة، وجعل صِلاته بين صاحب حَرَسه وصاحب شرطته، ومسيره بين أمير المؤمنين وبينهما، أمامه وخلافه، وصير له الجلوس على الكرسي بحضرته، في صدر كل مجلس جلس، إلا أن يؤثر به من أحب من أبناء الخلفاء، وقدمه في دخول دار الأمير راكبًا، إلى أقصى مكان ينتهي إليه أحدٌ من بني هاشم، لأنه منهم وأعظمهم غناء عنهم، فسماه صاحب دعوته وسيفه علي عدوه؛ وبابه الذي يدخل إليه منه، وولاه خيوله في أقطار الأرض، ومقدَّمته بحضرته، وقلده من الثغور ما قد علمت، بما أفرده في عهده، أي ما أنفذه من أمره في جميع سلطانه وملكه، من

مشارق الأرض ومغاربها، وأين يأتي الوصف علي ما فضله به، وقدمه وشرفه علي الناس كافة، ولكنا نُخْطر بذكره، ثم نكل السامعين إلي ما يرجعون إليه من المعرفة التي لا تبلغها الصفة، ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته، تولى غسله وتكفينه، ومباشرته لجهازه، إلى حفرته بيده، وقاسى من الغصص وبرحاء[1] الحزن، وإذراء العبرة، وإراقة الدمعة، ما حال بينه وبين الكلام، وكاد يمنعه من القول والدعاء في صلاته عليه، وحَفِظ أهل الحرمة به رعاية له فيهم، ووفاء بعهده من بعده، وأقر خاصته وقواده وعمّاله وكتّابه علي مراتبهم، وحمد بحمده وذم بذمه وجدد لجنده...».

وبعد أن عدد ما صنع المأمون من الأعمال الحسنة قال خطابًا للمأمون: «فيأيها الإمام المنصور المهدي الرشيد، حُزْت فضائل الآباء، واهتديت بهدي الأنبياء، أنشكرك عن الإسلام، فأنت القائم به الداعي له، والناصر لحقه، أم نشكرك عن الأمصار، فأنت المفتتح لمتنعها عنوة، والمتطول على أهلها بالرحمة، والمتعطف عليهم بحسن الفائدة، بعد ما هيجت منك سَوْرة الغضب، فأطفأت نارها، وأخمدت لهبها، وعُدت على ما من سفِه وأضاع حظه. أم نشكرك على المساجد، فأنت الذي أسستها على التقوى، وعمرتها بتلاوة القرآن، وطهرت المنابر وركبتها، تعلوها صائمًا، وتنطق عليها صادقًا، وتدعو إلى الرشد عليها ناصحًا، وتختم القرآن قبل أن تبدأها محسنًا، وتتلو من قوارعه ما تصيخ له الأسماع، وتلين له القلوب. أم نشكرك على البيت العتيق، والركن والمقام والحجر وزمزم ومشاعر الحج، وأنت ذببت عنها، وأعدت إليها عهدها في مبعث نبيها، فأمنت النازع إليها من كل فج عميق، والحالّين بها من الركّع والسجود. أم نشكرك عن رسول الله فيما حفظت فيه من عترته، بعفوك عن مجرمهم، ومضاعفتك ثواب محسنهم، وإحيائك من أمرهم ما كان قد اندرس

(١) برحاء الحمى وغيرها: شدة الأذى.

وانطمس بعد نبي الله، وقد راعيت منه في قرابته وقرابتك، وذوي رحمه ورحمك، ما ضيع الناس، ووصلت منهم ما كان وصله، إذ كان الله عز وجل قد فرض صلة الأرحام، فكان أطوع خلق الله فيما فرض عليه؛ أم نشكرك على العوام، فقد ألبست المسلمين ثوب الأمن، وأذقتهم طعم السعة والرفاهة، وعدلت بينهم بالإنصاف، وتوليت دونهم النَّصَب، وآثرتهم بالراحة. أم نشكرك عن الملوك والقواد والأجناد، فأنت الذي رفعت منازلهم، ووفرت عددهم، فلم يكن في دهر أحد من الخلفاء، أسعد ولا أحظى منهم في سلطانك، بما بذلت لهم من المعاون، ووليتهم من الثغور والأمصار، وأدررت عليهم من الأرزاق والخواص. أم نشكرك عن الأحكام والسنن، فأنت الذي أنهجت سبيلها، فأوجبت فرضها ونافست في أهلها....».

***

وقَّع إلى عامل قد أخَّر حمل المال: قد استبطأك الإغفال، وأبطرك الإهمال، فما تصحب قولك فعلًا، ولا تتبع وعدك إنجازًا، وقد دافع بمال نُجِّم[1] لزمك حمله، حتى وجب عليك مثله، فاحمل ثلاثة أنجم، ليكون ما يتعجل منك أداء ما أُخر عنك إن شاء الله.

***

ووقَّع إلى عامل ظالم: الحق طريق واضح لمن طلبه، تهديه محجته، ولا يخاف عثرته، وتؤمن في السر مغبَّته، فلا تستقلِن منه، ولا تعدلن عنه، فقد بالغت في مناصحتك، فلا تحوجني إلى معاودتك، فليس بعد التقدمة إليك، إلا سطوة الإنكار عليك.

***

(١) نجم المال: أداه نجومًا؛ أي في أوقات مضروبة.

ووقَّع إلى عامل ذكر أنه قد أصلح ما تحت يده: أنا لك حامد فاستدم أحسن ما أنت عليه، يدم لك أحسن ما عندي، واعلم أن كل شيء لا يزاد فيه ينقص، والنقصان وإن قل يمحق الكثير، كما ينمي على الزيادة القليل.

***

ووقَّع في كتاب: مستتم الصنيعة مَن صابرها، فعدل زيغها، وأقام أودها، صيانة لمعروفه، ونصرة لرأيه؛ فإن أول المعروف مستخف، وآخره مستثقل؛ تكاد أوائله تكون للهوى، وأواخره تكون للرأي؛ ولذلك قيل: ربُّ الصنيعة أشد من ابتدائها.

***

ووقَّع إلى بعض العمال في العناية بأحدهم: أنا بفلان تام العناية، وله شديد الرعاية، وكنت أحب أن يكون ما أرعيته طرفك من أمره في كتابي، مستودعًا سمعك من خطابي، فلا تعدلن بعنايتك إلى غيره، ولا تمنحن بعقدك سواه، حتى تنيله إرادته، وتتجاوز به أُمنيته. إن شاء الله.

***

ومما نُسب إليه في ذم بخيل:

كأن البخل والشؤم صار معًا في سهمه، وكانا قبل ذلك في قِسْمه، فحازهما بالوراثة، واستحق ما استملك منها بالشفعة، وأشهد على حيازتهم أهل الدين والأمانة، حتى خلصا له من كل مانع، وسلما له من تبعة كل منازع، فهو لا يصيب إلا مخطيًا، ولا يحسن إلا ناسيًا، ولا ينفق إلا كارهًا، ولا ينصف إلا صاغرًا.

وفي مثله:

وصل كتابك فرأيناك قد حليته بزخارف أوصافك، وأخليته من حقائق إنصافك، وأكثرت فيه الدعاوى على خصمك، من غير برهان أتيت به على دعواك وزعمك...

وكتب إلى عبد الله بن طاهر عند خروج عبيد الله بن السريِّ إليه يهنئه بذلك الفتح: بلغني -أعز الله الأمير- ما فتح الله عليك، وخروج ابن السريِّ إليك، فالحمد لله الناصر لدينه، المعز لدولة خليفته على عباده، والمذل لمن عَنَدَ عنه وعن حقه ورغب عن طاعته، ونسأل الله أن يظاهر له النعم، ويفتح له بلدان الشرك، والمد لله على ما والاك مذ ظعنت لوجهك، فإنا ومن قِبَلنا نتذاكر سيرتك في حربك وسلمك، ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة والليان في مواضعهما، ولا نعلم سائس جند ولا رعية عدل بينهم عدلك، ولا عفا بعد القدرة عمن آسفه وأضغنه عفوك. ولقلَّ ما رأينا ابن شرف لم يلق بيده متكلًا على ما قدمت له أُبوته، ومن أُوتي حظًّا وكفاية، وسلطانًا وولاية، لم يخلد إلى ما عنا له حتى يخلَّ بمساماة ما أمامه، ثم لا نعلم سائسًا استحق النجح لحسن السيرة وكف مَعَرَّة الأتباع استحقاقك، وما يستجيز أحد ممن قبَلنا أن يقدّمَ عليك أحدًا يهوى عند الحاقة[1]، والنازلة المعضلة، فليهنَكَ منة الله ومزيده، ويسوغك الله هذه النعمة التي حواها لك بالمحافظة على ما به تمت لك من التمسك بحبل إمامك ومولى جميع المسلمين، وملّاك وإيانا العيش ببقائه، وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قِبَلنا مكرمًا مقدمًا معظمًا، وقد زادك الله في أعين الخاصة والعامة جلالة وبجالة، فأصبحوا يرجونك لأنفسهم، ويعدّونك لأحداثهم ونوائبهم، وأرجو أن يوفقك الله لمحابّه كما وفق لك صنعه وتوفيقه، فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ولم تزدك إلا تذللًا وتواضعًا، فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك وأودع فيك والسلام.

---

(١) الحاقة: النازلة الثابتة كالحقة.

وكتب إلى عبد الله بن طاهر أيضًا عن المأمون يعزله عن ديار مصر وتسليم العمل إلى إسحاق بن إبراهيم: أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين قد رأى تولية إسحاق بن إبراهيم ما يتولاه من أعمال المعاون بديار مصر، وإنما هو عملك نقل منك إليك، فسلمه من يدك إلى يدك والسلام.

لما توفي طاهر بن الحسين بخراسان، وعبد الله بن طاهر في وجه نصر بن شبث، كتب إليه أحمد بن يوسف يعزيه عن نفسه:

أما بعد؛ فإنه قد حدث من أمر الرزء العظيم بوفاة ذي اليمينين ما إلى الله عز وجل فيه المفزع والمرجع، وفيه عليه المستعان، وإنا لله وإنا إليه راجعون، اتباعًا لأمر الله، واعتصامًا بطاعته، وتسليمًا لنازل قضائه، ورجاء لما وعد الصابرين من صلواته ورحمته وهداه، وعند الله نحتسب مصيبتنا به. وقد كان سبق إلى القلوب عند بداهة الخبر من اللوعة، واضطلاع الفجيعة، ما كنا نخاف إحباطه من الأجر، لولا ما تدارك الله به من الكر بما وعد أهل الصبر؛ فنسأل الله أن يرأب[1] هذه الثلمة، ويسد هذه الخلة، بأمير المؤمنين أولًا وبك ثانيًا، وأن يعظم مثوبتك، ويحسن عقباك، ويخلف بك ذا اليمينين، ويعمر بك مكانه من أمير المؤمنين ومن كافة المسلمين. فأما ما يحتاج إليه من التسلية والتعزية، فإنك في فضل رأيك، واتساع لُبِّك، في حال العزة والنماء، لم نكن تخلو من عوارض الذكر، وخواطر الفكر، فيما تعرو به الأيام من نوائبها، وتبعث به من حوادثها، وفي هذا لمن وفق له إعداد للنوازل، وتوطين الأنفس على المكاره، فلا يكون معه هلع، ولا إفراط جزع، بإذن الله، مع أن مرد كل جزع إلى سلوة، ولا ثبات عليها، فأولى بالراغب في ذات الله أن يهتبل[2] مثوبته في

(١) رأب الصدع: أصلحه وشعبه كارتأبه. والثلمة بالضم: فرجة المكسور والمهدوم، والخلة بفتح الخاء: الحاجة والفقر والخصاصة.

(٢) اهتبل كلمة حكمة: اغتنمها.

أوانها من بعض الأسى، وفجاءة النكبة، وأولى بذي اللب إذا علم ما هو لا بد صائر إليه، ألا يبعد منه إبعادًا يلزمه التفاوت عند التأمل، واختلاف الحالين في بُعد الأمد بينهما؛ وقد كنت أحب ألا أقنع في تعزيتك برسول ولا كتاب، دون الشخوص إليك بنفسين لو أمكنني المسير؛ إجلالًا للمصيبة، وتأنسًا بقربك، بعد الذي دخلني من الوحشة، فقد عرفت ما خصني من المَرْزِئة[1] بذي اليمينين، كما كنت أتعرف من جميل رأيه، وعظيم بره حاضرًا، وما كان يذكرني به غائبًا؛ ذكره الله في الرفيق الأعلى.

***

وأخصر من هذا ما عزى به ولد رجل من آل الربيع، وكان له مواصلًا فقال: عظَّم الله أجركم، وجبر مصابكم، ووجَّه الرحمة إلى فقيدكم، وجعل لكم من وراء مصيبتكم حالًا تجمع كلمتكم وتلم شعثكم، ولا تفرق ملأكم.

وسمع قول عليّ: لا تكونن كمن يعجز عن شكر ما أُوتي، ويلتمس بالزيادة فيما بقي. فكتب: أحق من أثبت لك العذر في حال شغلك من لم يخل ساعة من برِّك في وقت فراغك.

***

ومن كلامه يعتذر إلى بعض الأخلاء: لي ذنوب إن عددتها جلت، وإن ضممتها إلى فضلك حسنت، وقد راجعت إنابتي، وسلكت طريق استقامتي، وعلمت أن توبتي في حجتي، وإقراري أبلغ في معذرتي؛ فهذا مقام التائب من حرمه، المتضمن حسن الفيئة[2] على نفسه، فقد كان عقابك بالحلم عني، أبلغ من أمرك بالانتصاف

(١) المرزئة: كالرزء والرزيئة (ج) أرزاء ورزايا.

(٢) الفيئة: الرجعة.

مني، فإن رأيت أن تهب لي ما استحققته من العقوبة، لما ترجوه من المثوبة، فعلت إن شاء الله.

***

وكتب في الذم: أما بعد؛ فلا أعلم للمعروف طريقًا أحزن ولا أوعر من طريقه إليك، ولا مستودعًا أقل زكاءً، ولا أبعد ثمرة خير من مكانه عندك؛ لأنه يحصُل في حسب دنيّ، ولسان بذيّ، ونسب قصيّ، وجهل قد ملك طباعك، فالمعروف لديك ضائع، والشكر عندك مهجور، وإنما غايتك في المعروف أن تحرزه، وفي وليّه أن تكفر به.

ومن كلامه: قد كان كتابي نفذ إليك بما كان غيره أولى بي، وألزم لي في حق الحرية والكرم، اللذين جعلا لك إرثًا، والشرف والفضل اللذين قسما لك حظًّا، ولكني دُفعتُ من اتصال الزلل، والإخلال بالعمل، إلى ما اضطرني إلى محادثتك، ودعاني إلى مخالفتك لأجَلّي عني هبوة[1] الاتهام، وأصرف عنك عارض الملام، وقد جرى لك المقدار بالسؤدد الذي خصك الله بمزيته، وأفردك بفضيلته، فليس يحاول أحد استقصاءً عليك إلا عرض دونه حاجز من واجبك، يضطره إلى ذلة التنصل إليك، ويحور ذلك عن التعمد.

وكتب إلى صديق له: هذا يوم رقت حواشيه، وبدت تباشير الحبور فيه، والمرء بأخيه كثير، وبمساعدته جدير، وأنت قطب السرور، ونظام الأمور، فلا تتأخر فنقلّ، ولا تنفرد عنا فنذلّ.

***

(١) الهبوة: الغبرة.

وكتب إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي وقد زاره إبراهيم بن المهدي: عندي من أنا عنده، وحجتنا عليك إعلامنا لك، والسلام.

***

وكتب: عندي فلان وفلان؛ فإن كنا من شأنك فقد آذناك.

***

وكتب إلى صديق له يستدعيه: يوم التلاقي قصير، فأَعن عليه بالبكور.

***

وكتب إلى صديق له يستدعيه:

إن كنت تنشط للصبوح فيومنا ... يوم أغرُّ مُحَجَّل الأطراف
وترى السحابة في السماء تعلقت ... وكأنما كسيت جناح غُداف[1]
طورًا تبلل بالرذاذ وتارة ... تهمي عليك بدلوها الغراف
فانعم صباحًا وأتنا متفضلًا ... ودع الخلاف فليس يوم خلاف

***

وكتب إلى إبراهيم بن المهدي في هدية استقلها:

«بلغني استقلالك لما أَلطفت[2]، والذي نحن عليه من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك في البر، فأهدينا هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم».

(١) الغداف: كغراب، غراب القيظ والنسر الكثير الريش (ج) غدقان.
(٢) ألطفه بكذا: بره.

وكان يقول في إبراهيم بن المهدي: القلوب من غِنائه على خطر، فكيف الجيوب.

***

كتب إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود: بارك الله في مولودك الذي أتاك، وهنأك نعمته بعطيته، وملّاك كرامته بفائدتك، وأدام سرورك بزيادته، وجعله بارًّا تقيًّا، ميمونًا مباركًا زكيًّا، ممدودًا له في البقاء، مُبَلَّغًا غاية الأمل، مشدودًا به عضدك، مُتَكَثّرًا به ولدك، مُدامًا به سرورك، مدفوعًا به الآفات عنك، مشفوعًا بأكثر العدد من طيب الولد.

***

وله في مثل ذلك: هنأك الله هذه الفائدة التي أفادكها، وبارك الله في الهبة التي رزقكها، وشفعها بإخوة متواترين، يسرونك في حياتك، ويخلفونك في عقبك.

***

وله: وهنأ الله أمير المؤمنين نِعمه، وملّاه كرامته، وأولى له فتوحه، وأدام إعزازه، وتولى حياطته وكفايته، فيما دنا منه وما غاب عنه، وأطال الله بقاءه والإمتاع به.

***

وكتب في تهنئة بمولود: أما بعد؛ فليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورًا إلا كنتُ به بهجًا، أعتدُّ فيه بالنعمة من الله الذي أوجب عليَّ من حقك، وعرَّفني من جميل رأيك، فزادكَ الله خيرًا، وأدام إحسانه إليك، وقد بلغني أن الله وهب لك غلامًا سريًّا[1] أجمل صورته، وأتم خلقه، وأحسن فيه البلاء عندكَ، فاشتد سروري

---

(١) السري: الظريف.

بذلك، وأكثرت حمد الله عليه، فبارك الله فيه، وجعله بارًّا تقيًّا، يشد عضدك، ويكثر عددك، ويُقر عينك.

***

وله في فتح السند: الحمد لله ولي الحمد، وأهل الثناء والمجد، خالق الخلق، ومدبر الأمر، المسبغ على عباده، والموجب عليهم حجته، فليسوا يرجون إلا سعة فضله، ولا يحذرون إلا ما اجترحوا من معصيته، لما سبق من جزيل إحسانه، وتظاهر من امتنانه، وتقدم به الإعذار والإنذار اللذان لا يستخف بما عظم منهما، إلا من استحوذ عليه الشيطان، واستولى عليه الخذلان، وقاده الحَيْن إلى موارد الهلكة.

***

وله تحميد إلى الولاة عن الخليفة: أما بعد؛ فالحمد لله ذي المنن الظاهرة والحجج القاهرة، الذي قطع بينه وبين عباده المعذرة، ورادف عليهم البينة، ومهلة النظرة[1]، وجعل ما آتاهم من حظوظ الدنيا بالقسم المكتوب، وما ذخر له من ثواب الآخرة بالنجح المطلوب، فهم في العاجلة شركاء في النعمة، وفي الآجلة شتى في الرحمة، يختص بها أهله، المنتفعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحال بعد الحال، المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مدد آجالهم، قبل حلول ما يتوقع، وفوت ما لا يرتجع.

***

سمع أحمد لأخيه شعرا قد كتب به إلى هويّ[2] له:

أيا باذلًا ودًّا لمن لا يشاكله ... يساعده في حبه ويواصله
عليك بمن يرضى لك الناس وده ... أواخره محمودة وأوائله

(١) النظرة كفرحة: التأخير في الأمر.

(٢) الهوي كغني: المهوي؛ أي الذي يهوى ويعشق.

فكتب إليه أحمد: وفقك الله يا أخي للسداد، وهداك للرشاد، قرأت لك شعرًا أنفذته إلى من تخطب مودته، وتستدعي عشرته، فسرني شغفك بالأدب، وساءني اضطرابك في الشعر، وليس مثلك من أخرج من يده شيئًا يعود بعيب عليه، وأعيذك بالله أن تلج لجة الشعر بلا عوم ينجيك منها، وسباحة تصدرك عنها، فتنسب إلى قبيح أمر هويت النسبة إلى حسنه، فاعرف الشعر قبل قوله، واستعن على عمله بأهله، ثم قل منه ما أحببت، إذا عرفت ما أوردت وأصدرت، وهذه أبيات على وزن أبياتك نظمتها بمثل ما نثرته لك وهي:

أبا حسن عانِ الدراية قبل ما ... تريغ(١) من الشعر الذي أنت قائله
ففي الشعر آداب كثير فتونها ... وباطل لهو إن تَعَنَّاك باطله(٢)
وحسبك عجزًا بامرئ متغزل ... إذا عَيَّ بالأمثال فيمن يواصله
يهون على معشوقه ما أعزه ... فتنقلب الأحوال فيما يحاوله
فدونك نصحًا من خبير مجرب ... قضى آخرًا أفضت إليه أوائله
ومستأنف الأيام منها كسالف ... فبالسالف الماضي فقس ما تزاوله

ولأحمد بن يوسف شعر رقيق كما رأيت، ومنه ما كتب به إلى أبي دُلف القاسم بن عيسى، وكانت بينهما مودة، وكانا يتهاديان ويتكاتبان، ثم ولى أبو دُلف الجبل كله، وأعرض -فيما يظهر- عن أحمد فكتب إليه:

ما على ذا كنا افترقنا بشيرا ... ز ولا هكذا عقدنا الإخاء
لم أكن أحسب الإمارة يزدا ... د بها ذو الوفاء إلا صفاء

---

(١) أراغ: أراد وطلب.

(٢) هذه رواية المرزباني في الموشح، ورواية الصولي في الأوراق هكذا:

ففي الشعر فصل لو وفيت بحقه ... ونقص إذا لم توف يشهر باطله

تطعـــن النـــاس بالمثقفـــة الـــسمـ ـــر عـلى غـدرهم وتنـسى الوفـاء

وقال:

نفـــسي عـــلى حـــسراتها موقوفـــة فـوددت لـو خرجـت مـن الحسرات
لـــو في يـــديَّ حـــساب أيـــامي إذًا ألفيتـــــه متطلبًّـــــا لوفــــاتي
لم أبـــكِ حبًّـــا للحيـــاة وإنـــما أبكـــي مخافـــة أن تطـــول حيـــاتي

وذكر من طريف شعره قوله:

أصبحت مخمـورًا أحـدث عـن نفـسي ومـا لي مـن علـم بـما كـان بـالأمس
ســقاني عبيـــد مـــن يديـــه مدامـــة يـصرّفها لي ثـم يلحـى عـلى الجلـس
فيـــا رب يـــوم قـــد حمـــدت مـــساءه يبـــاكرني ذمّ لـــه مطلـــع الـــشمس
فأصـبحت قـد حـدثت نفـسي بتوبـة ويعتـــادني للهـــو عنـــدي إذا أُمـــسي

وقال أيضًا:

عـــذب الفـــراق لنـــا قبيـــل وداعنـــا ثـــم اقتبلنـــــاه كـــــسم نـــاقِع
وكـــأنها أثـــر الـــدموع بخـــدها طَـــلٌّ ســـقيط فـــوق ورد يـــانع

قال أبو بكر الصولي: هو أول من أفصح عن هذا المعنى وتبعه الناس.

عتب أحمد على جارية له في شيء سألته ألا يفعله ثم فعلت مثله فقال:

وعامـــل بـــالفجور يـــأمر بالبـــ ـــر كهـــاد يقـــود[1] في الظلـــم
أو كطبيـــب قـــد شـــفّه ســـقم وهـــو يـــداوي مـــن ذلـــك الـــسقم
يـــا واعـــظ النـــاس غـــير مـــتعظ ثوبـــك طهـــر أولا فـــلا تلـــم

ومن شعره:

(١) رواية ابن عساكر: (يخوض).

يـزين الـشعر أفواهًـا إذا نطقـت بالـشعر يومًـا وقـد يـزري بـأفواه
قـد يـرزق المـرء لا مـن حـسن حيلتـه ويصرف الرزق عن ذي الحيلة الداهي
مـا مـضّنى مـن غنـى يومًـا ولا عـدم إلا وقـولي عليـه الحمـد لله

وقال:

إذا قلـت في شيء: نعـم فأتمـه فـإن نعـم دَيـن عـلى الحـر واجـب
وإلا فقـل: لا فاسـترح وأرح بهـا لكـيلا يقـول النـاس إنـك كـاذب

وقال في إفشاء السر:

إذا المـرء أفـشى سره بلـسانه ولام عليـه غـيره فهـو أحمـق
إذا ضـاق صـدر المـرء عـن سر نفـسه فـصدر الـذي اسـتودعته الـسر أضـيق

وقال:

يـا سـاخطًا مـن أن طربـت لزلـزل لـك حرمـة ولزلـزل إحـسان
أعـضبت مـن طـربي عـلى إحـسانه أحـسن لأغـضب أيهـا الغـضبان

وقال في الهجاء:

كأنـه مـن سـوء آدابـه أسـلم في كتـاب سـوء الأدب

وقال:

نفـسي عـلى زفراتهـا مطويـة ووددْت لـو خرجـت مـع الزفـرات

ومن كلامه: مجالسة البغضاء تثير الهموم، وتجلب الغموم، وتؤلم القلب، وتقدح في النشاط، وتطوي الانبساط.

وقال: بالأقلام تساس الأقاليم.

وقال: القلم لسان البصر يناجيه بما استتر من الأسماع، إذا نسج حلله، وأودعها حكمه.

وله من كلام: قد أذهب الله وصب العلة ونصبها، ووفر خراجها وثوابها، وجعل فيها من إرغام العدو بعقباها، أضعاف ما كان عنده من السرور بفتح أولاها.

وقال: عبرات الأقلام في خدود كتبها، أحسن من عبرات الغواني في صحون خدودها.

ومما كتب به: أحق من أثبت لك العذر في حال شغلك، من لم يخل ساعة من برك في وقت فراغك.

ومن كلامه: إذا لم تقدر أن تعض يد عدوك فقبِّلْها.

كان أحمد عدوًّا لسعيد بن سالم الباهلي وولده، فذكرهم يومًا فقال: لولا أن الله عز وجل ختم نبوته بمحمد وكتبه بالقرآن، لبعث فيكم نبي نقمة وأنزل عليكم قرآن عذاب، وما عسيت أن أقول في قوم محاسنهم مساوي السفل، ومساويهم فضائح الأمم.

إبراهيم بن العباس الصولي

حياته الخاصة والعامة:

في بغداد وفي عهد الرشيد السعيد، ولد إبراهيم بن العباس بن محمد بن صُول، في بيت عُرف بالأدب والسياسة، وكان جده من رجال الدولة العباسية ودعاتها؛ وصُول جد أبيه يدين بالمجوسية، أسلم في جُرجان على يد يزيد بن المهلب، فأصبح له مولًى، وأصل صول تركي الجنس، أقام في فارس، فنشأ أبناؤه على التشبه بأهلها.

وتخرّج إبراهيم في مدينة المنصور بأخيه عبد الله بن العباس، وكان من وجوه الكُتَّاب، وهو أسنُّ من أخيه بنحو عشرين سنة؛ وجاء إبراهيم آدب من عبد الله، وأحسن شعرًا، وأحذق كتابة، وأعرق في البلاغة، وكان المطبوع فيه أكثر من المكسوب، علَّمه الدهر ما لم تعلمه الكتب، وأوحى إليه الزمن المؤدب ما لم يُوحه لرجل عاش في بيئة ضيقة، وعيش ضنك، وبيت خامل.

كان الصولي مجموعة ثقافات وعناصر؛ فيه الدم التركي والدم العربي، جاءه الدم العربي من أمه، وكان خاله العباس بن الأحنف من أشعر الشعراء في عصره، وربما كان إبراهيم يعرف التركية لغة آبائه، والفارسية لغتهم الثانية، بعد جلائهم إلى خراسان، أما ثقافته العربية، فأوسع ثقافة في لغة العلم والدين ولغة دولته العظيمة.

كان محيط الصولي متسع الرحاب وحياته كلها كذلك، دخل في خدمة الدولة كآبائه، يتولى بعض أعمال الإدارة، ويتعرف إلى رجالها ويختلط بهم، واطلع على عورات الناس ومحامدهم، وكشف سر مجتمعه وعلانيته، قلّب الأخلاق والأعراق

كل مقلّب، وثافن العظماء، وعرف ما يرضيهم وما يغضبهم، وكتب للخلفاء وتأدب بآدابهم، كتب للمعتصم والواثق والمتوكل؛ وقلما ذهب رجل برضا الملوك إلا كانت له مزايا تنفع دولتهم.

وأصاب الصولي ما يصيب قُربان[1] الملوك من السعادة ونقيضها، وعانى من الكبراء ما يعانيه أمثاله ممن تطوحوا في الخدمة، وكان بعض ما نال مما أوقعته فيه المنافسة، وبعضه مما استحق عليه النكبة: جرى في طريقة رجال الدولة المطلقة المستبدة، فمثَّل صورة صحيحة من مجتمعه، على ما كان كلامه صورة صادقة من قلبه وفكره، ودخل فيما يدخل فيه نظراؤه من أرباب الولايات، وما خرج على مألوفهم، بل ضَرَب على وترهم، وحطب في حبلهم، تآمر على خصمائه وتآمروا عليه، وضربهم وضربوه، ومدح الناس ومدحوه، وثلبهم وثلبوه، وحسدهم وحسدوه، وكان في كل ما أتى مدفوعًا بنابل[2] من تربية عصره ومصره، تجسدت فيه أخلاق عَصْرِييه، فانعكس كل ما رأى على صحيفة شعره ونثره، فردده وردد عنه حتى عاد بعدُ أمثالًا.

لما عزم المأمون على الفتك بالفضل بن سهل عرف الصولي ذلك من صديق له كان من بعض من وُضعوا له، فما رأى إلا القيام بحسن الصنيعة مع الفضل، وقد عاش هو وأخوه عبد الله في حمايته واصطناعه، ورفع منهما وحَنَا عليهما، فأخبر الفضل بما يُدبر له، وانتهى الخبر إلى المأمون، فعرف أن الصولي قد أبلغ الفضل ما يُراد به، فطلبه فاستتر، ثم عفا عنه بما بلغه عنه من جواب لطيف، دل على بُعد نظر وذكاء.

---

(١) القربان: جليس الملك الخاص.

(٢) النابل: السائق.

بدأت حياة إبراهيم في السياسة ومن المعتصم، وسار سيرة أرباب الإدارة إذ ذاك، يأخذ ويعطي من مال الأمة والدولة، ويُقلد كبار العمال في مظاهرهم، ولا يتعفف عن مال ومتاع؛ كان مظهرًا من مظاهر العاملين في الدولة، يستمتع بخيراتها أنَّى وجدها، ويفوقهم بأنه كان على جانب عظيم من المروءة وسعة الفضل؛ ولا عجب أن سار الصولي هذه السيرة، وقد كان في زمن يكتب فيه مثل أبي العيناء النديم إلى صديق له ولي ولاية: «واعلم أن الخيانة فطنة، والأمانة حرفة، والجمع كيس، والمنع صرامة، وليس كل يوم ولاية، فاذكر أيام العطلة، ولا تحقِرن صغيرًا، فإن من الدور إلى الدور، وإيلاء الولاية رِقدة، فتنبه قبل أن تنبه، وأخو السلطان أعمى، عن قليل سوف يبصر، وما هذه الوصية التي أوصى بها يعقوب بنيه، ولكن رأيت الحزم في أخذ العاجل، وترك الآجل».

وموطن الضعف من أخلاق الصولي أنه كان كما أراد أبو العيناء يأخذ العاجل ولا يبالي، ويدب إليه دبيب الوشاة، فينجو مرات، ويَعْطَب مرات. روى الجهشياري أنه لم يكن للصولي تقدم في الخراج على بلاغة فيه، وكان بينه وبين أحمد بن المدَبِّر تباعد، وكان أحمد مقدمًا في الكتابة، فقال أحمد بن المدبر للمتوكل: قلدت إبراهيم بن العباس ديوان الضياع، وهو متخلف في هذا الشأن، لا يحسن منه قليلًا ولا كثيرًا، وطعن عليه طعنًا قبيحًا، فقال المتوكل: في غدٍ أجمع بينكما. واتصل الخبر بإبراهيم فأيقن بحلول المكروه، وعلم أنه لا يفي بأحمد بن المدبر في صناعته، وغدا إلى دار السلطان آيًا من نفسه ونعمته، وحضر أحمد فقال له المتوكل: قد حضر إبراهيم وحضرتَ ومن أجلكما قعدت، هات، اذكر ما كنت فيه أمس، فقال أحمد: أي شيء أذكر عنه فإنه لا يعرف أسماء عماله في النواحي، ولا يعلم ما في دساتيرهم من تقديراتهم وكيولهم، وحمل من حمل منهم ومن لم يحمل، ولا يعرف أسماء النواحي التي تقلدها، وقد اقتطع أصحابه بناحية كذا كذا ألفًا، واختلت ناحية كذا في العمارة، وأطال في ذكر هذه الأمور؛ فالتفت المتوكل إلى إبراهيم

فقال: ما سكوتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين جوابي في بيتي شعر قلتهما، فإن أذن أمير المؤمنين أنشدتهما. فقال: هات. فأنشده:

ردَّ قولي وصدَّق الأقوالا وأطاع الوشاة والعذَّالا
أتراه يكون شهر صدود وعلى وجهه رأيت الهلالا

وقيل: إن إبراهيم لما سمع كلام ابن المدبر ضاقت عليه الحجة، وخاف أن يحقق قوله إن اعترف، ثم لا يرجع منه إلى شيء فيعود عليه الغرم، فعدل عن الحجة إلى الحيلة فأنشد البيتين.

وفي رواية: أن الخليفة لما سمع ما سمع قال: لا يكون ذلك، والله لا يكون ذلك أبدًا. والتفت إلى الواشي وقال له: كيف تقبل في المال قول صاحبه.

وفي رواية ثانية: أن المتوكل قال لما سمع البيتين: زه زه أحسنت؛ إيتوني بمن يعمل في هذا لحنًا، وهاتوا ما نأكل وجيئوا بالنساء، ودعونا من فضول ابن المدبر، واخعلوا على إبراهيم بن العباس، فخلع عليه وانصرف إلى منزله.

قالوا: ومكث إبراهيم بن العباس يومه مغمومًا، فقيل له: هذا يوم سرور وجذل بما جدد الله لك من الانتصار على خصمك، فقال: الحق أولى بمثلي وأشبه، إني لم أدفع حجة أحمد بحجة، ولا كُذّب في شيء مما ذكر، ولا أنا ممن يعشره في الخراج، كما أنه لا يُعشرني[1] في البلاغة، وإنما فلجت[2] برطازة[3] ومخرقة، أفلا أبكي فضلًا عن أن أغتم من زمان يدفع هذا كله.

(١) لا يبلغ معشاره. يقال: فلان لا يعشر فلانًا ظرفًا؛ أي: لا يبلغ معشاره، وعشرت (بتشديد الشين) القوم تعشيرًا إذا كانوا تسعة فجعلتهم عشرة، وعشرتهم (بفتح الشين): إذا أخذت واحدًا فصاروا تسعة.
(٢) الفلج: الظفر، ويَفْلُجُ ويفْلِجُ في الكل.
(٣) والرطازات مخففة: الخرافات.

وبهذه الوقعة تمثل لنا أدب الصولي، وضعفه فيها وسد إليه من عمل اعترف بإهماله في أعماله، حتى ترك المجال لخصمه يسقطه في نظر الخليفة؛ وكأن ابن المدِّبر رماه بما رماه وهو موقن بأن هذا الإهمال لا بد أن يكافئه عليه عماله، ويعطوه بعض ما يجنون، فتضيع حقوق الدولة، وتهمل مصالح الرعية.

(ما كل مرة تسلم الجرة) فقد صار الصولي إلى زمن ما استطاع أن يدفع عن نفسه بغير ما ملكت يده. كان في سنة (٢٣٣) على الأهواز، وكان صدقه محمد بن عبد الملك الزيات وزيرًا، فوجه إليه من أقامه للناس، فصالحه عن نفسه بألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم، وأُحدر الصولي بعد ما قُبض عليه إلى بغداد لأخذ ما له بها، وأخذوا غلامه وكان قهرمانه، في يده أمواله يتجر بها، وأخذوا عدة من أهل بيته، وأخذ معهم حمل بغل من الدنانير، ووجدت له بيوت فيها أنواع التجارة، وكان جميع ما قبض له، مع ما وجد قيمة تسعين ألف دينار، وأمر المتوكل بحبسه، فقال إبراهيم يخاطب الوزير صديقه القديم:

وكنت أخي بأرخى الزمان فلما نبا عُدْتَ حربًا عوانًا
وكنت أذمُّ إليك الزمان فأصبحت فيك أذم الزمانا
وكنت أعدك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمانا

وقال:

أصبحت من رأي أبي جعفر في هيئة تنذر بالصيلم[1]
من غير ما ذنب ولكنها عداوة الزنديق للمسلم

وذكر من ترجموا للصولي أن الذي تولى أمر كشفه تحامل عليه تحاملًا شديدًا، فكتب إبراهيم إلى الوزير محمد بن عبد الملك:

(١) الصيلم: الأمر الشديد والداهية.

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب ... وسُلط أعداء وغاب نصير
تكون عن الأهواز داري بنجوة[1] ... ولكن مقادير جرت وأمور
وإني لأرجو بعد هذا محمدًا ... لأفضل ما يُرجى أخ ووزير

والسبب في العداوة بين محمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم بن العباس الصولي: أنه لما ولي ابن الزيات وزارة المعتصم نقص إبراهيم عما يستحقه من الدعاء، فلم تحتمل ذلك نفسه ورياسته، وموضعه من الصناعة والدولة، فعاتبه في ذلك فلم يُعْتبه، فألهب له نار هجاءٍ لا يطفئها الدهر، فزعم إبراهيم أن ابن الزيات ما ظن أن الرياسة تنجذب إليه، ولا أن العز يتحصل له، إلا بحط إخوانه عن منزلتهم، ونقصهم عن مرتبتهم، ثم نظم ذلك في شعر فقال:

من رأى في المنام مثل أخ لي ... كان عوني على الزمان وخلي
رفعته حال فحاول حطي ... وأبى أن يُعَزَّ إلا بذلي

وكان هذا الخطاب في أول الأمر، ثم أنحى عليه بالهجاء، وكان محمد بن عبد الملك، على علمه وأدبه، وكونه واحدًا في صناعته، مفردًا في براعته، لا يخلو من لؤم أحيانًا.

ولما وقف الخليفة على تحامل ابن الزيات رفع يده عن إبراهيم، وأمره أن يقبل منه ما رفعه، ويرده إلى الحضرة مصونًا، ثم ولاه ديوان زمام النفقات، وتولى أيضًا الضياع، فبسط إبراهيم لسانه في ابن الزيات، وهجاه هجاءً كثيرًا منه:

قدرت فلم تَضْرُر عدوًّا بقدرة ... وسمتَ بها إخوانك الذل والرغما
وكنت مليًّا بالتي قد يعافها ... من الناس من يأبى الدنية والذَّما

وقال فيه أيضًا:

(١) النجوة: ما ارتفع من الأرض.

أبـا جعفـر خـفْ خفـضة بعـد رفعـة[١] وقــصر قلـيلًا عــن مــدى غلوائكــا
فـإن كنـت قـد أُوتيـت عـزًّا ورفعـة[٢] فـــإن رجـــائي في غـــدٍ كرجائكـــا

وقال فيه أيضًا:

دعوتـــك في بلـــوى أَلَمَّـــت صروفهـــا فأوقــدت مــن ضــغن علـيَّ ســعيرها
وإني إذا أدعـــــوك عنـــــد ملمـــــة كداعيـــة بـــين القبـــور نـــصيرها

ومما قال فيه:

أخ كنــت آوي منــه عنــد ادُّكــاره إلى ظــل آبــاء مــن العــز بــاذخ
ســعت نــوب الأيــام بينــي وبينــه فــأقلعن منــا عــن ظلــوم وصــارخ
وإني وإعـــدادي لـــدهري محمـــدًا كملـــتمس إطفـــاء نـــار بنـــافخ

وقال فيه:

فـــإن تكـــن الـــدنيا أنالتـــك ثـــروة فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عُسر
فقــد كــشف الإثــراءُ منــك خلائقًــا من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وتَغيّر الزمان، ورأى ابن الزيات تغيرًا من الواثق فخافه، وفرق مالًا عظيمًا، وجوهرًا نفيسًا، في ثقاته ومعامليه من التجار، والصولي (يعاديه ويرصد له بالمكاره لإساءته إليه)، فنظم أبياتًا وأشاعها حتى بلغت الواثق يُغريه به؛ وفي السنة التي قبض فيها ابن الزيات على الصولي، هلك ابن الزيات في حبس المتوكل.

ولما أمر المتوكل إبراهيم بن العباس الصولي أن يكتب فيما كان أمر به من تأخير الخراج حتى يقع في خمس من حزيران ويقع استفتاح الخراج به، كتب في ذلك كتابه

---

(١) في رواية: (أبا جعفر خف نبوة بعد دولة).

(٢) في الأغاني بدل هذه الشطرة: (لئن كان هذا اليومُ يومًا حويته)؛ وفي رواية: (فإن يك هذا اليوم يومًا حويته).

المعروف، وأحسن فيه غاية الإحسان، فدخل عبيد الله بن يحيى على المتوكل فعرفه حضور إبراهيم بن العباس وإحضاره الكتاب معه، فأمر بالإذن له فدخل وأمره بقراءة الكتاب فقرأه، واستحسنه عبيد الله بن يحيى وكل من حضر؛ قال البلاذري: فدخلني حسد له، فقلت: فيه خطأ، قال فقال المتوكل: في هذا الكتاب الذي قرأه عليَّ إبراهيم خطأ؟ قال: قلت: نعم. قال: يا عبيد الله وقفت على ذلك؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ما وقفت فيه على خطأ. قال: فأقبل إبراهيم بن العباس على الكتاب يتدبره، فلم ير فيه شيئًا، فقال: يا أمير المؤمنين الخطأ لا يعرى منه الناس، وتدبرت الكتاب خوفًا من أن أكون قد أغفلت شيئًا وقف عليه أحمد بن يحيى فلم أرَ ما أنكره، فليعرفنا موضع الخطأ. قال: فقال المتوكل: قل لنا: ما هو هذا الخطأ الذي وقفت عليه في هذا الكتاب؟ قال: فقلت: هو شيء لا يعرفه إلا علي بن يحيى المنجم ومحمد بن موسى، وذلك أنه أرَّخ الشهر الرومي بالليالي، وأيام الروم قبل لياليها، فهي لا تؤرخ بالليالي، وإنما يؤرخ بالليالي العرب؛ لأن لياليها قبل أيامها بسبب الأهلّة. فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين هذا ما لا علم لي به ولا أدعي فيه ما يدعي. قال: فغيّر تاريخه.

وقد عُرف من سيرة الصولي أنه كان يستمتع بمباهج الحياة ومناعمها، ويتبسط في مجالسه مع عشرائه، ويصرف جانبًا من وقته في اللهو، ومداعبة الغواني والقيان. هوى جارية لبعض المغنين بسر من رأى يقال لها: شاهر شُهر بها، وكان منزله لا يخلو منها، وله معها وقائع وتجنيات، وقال فيها أشعارًا كثيرة وكانت هي شاعرة، وكانت تهواه أيضًا، فعاتبها وعاتبته، وغازلها وغازلته، وما زالا كذلك حتى فرَّق الموت بينهما.

وكأن الصولي كان يرى من حقه أن يحب، ومن حقه أن يطرب ويمجن، وأن يسمع الغناء والموسيقى، ويخلع أثواب الوقار في بعض ساعات يومه، وما كان يرى في ذلك بأسًا، بل يعتقد أن هذه الملاهي مما يخفف من تعبه، ويزيد في الإمتاع بأدبه. ولقد قال له بعضهم ذات يوم: قد أخملت نفسك ورضيت أن تكون تابعًا أبدًا، لاقتصارك على القصف واللعب، فأنشأ يقول:

إنـــما المـــــرء صـــــورة حيـــــث حَلَّـــــت تناهـــــت
أنـــــا مـــــذ كنـــــت في التــــــصرف[1] لي حـــــال ســـــاعتي

وهذا سرُّ تخلفه في عمله الإداري، يُلقي الحبل على الغارب، ويلتفت لإرضاء نفسه بما تصبو إليه من راحة ونعيم، وربما كان ذلك من دواعي معاداته بعض رجال الدولة، ومنهم من كان يريد أن يستوفي مال السلطان منه، فيما يُولاه من الأعمال الجليلة، ومنهم من يحاول أن يشاطره مغانمه، ويريده أن ينزل على إرادته، أو يصادره ويسعى به إلى السلطان.

استلزمت حياة الصولي الخاصة تعرّف طرق الأخذ من المال، وإنفاقه فيمن كان يحيط به من الناس، وهو في كرمه على أخلاق عالية، ولعله كان من المتعذر في ذاك العصر أن يعتصم العامل بعصمته من كل وجه، ويعف عن كل منكر؛ ولو فعل ذلك لقضت الحال أن ينعزل في رأس جبل أو يأوي إلى بعض الرباطات يجاهد في سبيل الله قانعًا مخبتًا. والمجتمع لا يعيش بهذا المقتر، ولا بذاك المسرف.

(١) التصرف: الاستخدام.

أدبه وكتابته:

كأن ملكة النثر والنظم كانت كالشيء الواحد في نظر الصولي، إن شاء نثر، وإن شاء شَعر، والإجادة مكتوبة له في كلتا الوجهتين، وما كان شعره لولا أوزانه وقوافيه إلا نثرًا، وبعمل قليل يُحال نثره شعرًا وشعره نثرًا. كان إبراهيم بن العباس إن قال الشعر كأنه يخطب أو يكتب، وإذا كتب الكتاب وخطب الخطاب كان كأنه يشعر، فأكذب من قالوا: إنه لا إجادة لشاعر في الكتابة، ولا لكاتب في الشعر، فهو إمام في الصناعتين، فرد في الكتابة، وبحق دُعي كاتب العراق، وعدّ في زمرة أعاظم الشعراء؛ وهذا من أندر ما وقع لمن عانوا صناعة القلم منذ القديم وإلى اليوم.

يقول المسعودي: إنه لا يُعلم فيمن تقدم وتأخر من الكُتَّاب أشعر منه، وكان دِعْبِل يقول: لو تكسب إبراهيم بالشعر لترَكَنا في غير شيء، وتعجب من قوله:

إن امـــرأ ضـــنَّ بمعروفـــه … عنـــي لمبـــذول لـــه عـــذري
مـــا أنـــا بالراغـــب في خـــيره … إن كـــان لا يرغـــب في شـــكري

قال ابن رشيق: والكتّاب أرق الناس في الشعر طبعًا، وأملحهم تصنيعًا، وأحلاهم ألفاظًا، وألطفهم معاني، وأقدرهم على تصرف، وأبعدهم من تكلف؛ وقد قيل: الكُتَّاب دهاقين الكلام، وما نزيدك على قول إبراهيم بن العباس الصولي بين يدي المتوكل حين أحضر لمناظرته أحمد بن المدبر، فقال ارتجالًا:

صـــدّ عنـــي وصـــدّقَ الأقـــوالا … وأطـــاع الوشـــاة والعـــذالا
أتـــراه يكـــون شـــهر صـــدود … وعـــلى وجهـــه رأيـــت الهـــلالا

وكان أحمد بن يحيى ثعلب يقول: إبراهيم بن العباس أشعر المحدثين، وما روي شعر كاتب غيره، وكان يستجيد قوله:

لنا إبل كوم[1] يضيق بها الفضا ... ويغبرّ منها أرضها وسماؤها
فمن دونها أن تستباح دماؤنا ... ومن دوننا أن تستباح دماؤها
حمًى وقِرًى فالموت دون مرامها ... وأيسر خطب يوم حق فناؤها

ويقول: والله لو أن هذا لبعض الأوائل لاستجيد له.

وسُمع إبراهيم بن العباس يقول لأبي تمام الطائي، وقد أنشده شعرًا له في المعتصم: يا أبا تمام أُمراء الكلام رعية لإحسانك، فقال أبو تمام: لأني استضيء بك وأَرِدُ شرعتك.

ولما قرأ إبراهيم على المتوكل رسالته إلى أهل حمص: أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين يرى من حمد الله عليه بما قَوَّم به من أَوَد، وعدّل به من زَيْغ، ولمَّ به من منتشر، استعمال ثلاث، يقدم بعضهن أمام بعض، أُولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف، ثم التي لا يقع بحسم الداءِ غيرها.

أناة فإن لم تغنِ عقّب بعدها ... وعيدًا فإن لم تغن أغنت عزائمه

عجب المتوكل من حسن ذلك، وأومأ إلى عبيد الله، أما تسمع؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلة خبأها الله لك، واحتبسها على أيامك؛ وهذا أول شعر نفذ في كتاب عن خلفاء بني العباس.

وكتب عن أمير المؤمنين إلى بعض البغاة الخارجين يتهددهم ويتوعدهم، وما زاد أن وضع خمس كلمات في أول البيت السابق، فأصبح كتابًا منثورًا قال: «أما بعد؛ فإن لأمير المؤمنين أناة، فإن لم تغن عقب بعدها وعيدًا، فإن لم تُغن أغنت عزائمه، والسلام».

---

(١) الكوم بضم الكاف: قطعة من الإبل.

واشتهر إبراهيم بإيجازه في رسائله؛ ومن ذلك رسالة له أنشأها في بعض العصاة الذين نصبت جثثهم لاعتبار: «قسم الله عدوه أقسامًا ثلاثة: روحًا معجلة إلى دار عذاب الله، وجثة منصوبة لأبصار أولياء الله، ورأسًا منقولًا إلى مقر خلافة الله».

حدَّث أبو بكر الصولي عن العباس بن محمد قال: أنشدني إبراهيم بن العباس في مجلسه في ديوان الضياع:

ربما تجزع النفوس من الأمر ... له فرجة كحلّ العقال

ونكت بقلمه ثم قال:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذَرعًا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تفرج

قال: فعجبنا من سرعة طبعه، وجودة قريحته؛ وشاعت الأبيات الثلاثة في المتأخرين حتى أصبحت مما لا يكاد يغفل عن التمثل بها أحد، وكذلك كثير من أبياته، وقلَّ في الناس من يعرف ناظمها.

ومما ذكروا من بدائع بداهته: أنه خرج ودعبل الخزاعي وأخوه رزين في نظراء من أهل الأدب رجالةً إلى بعض البساتين في خلافة المأمون، وذلك في زمن خمول إبراهيم، فلقوا جماعة من أهل السواد من حُمّال الشوك، فأعطوهم شيئًا وركبوهم حميرهم، فأنشأ إبراهيم يقول:

أُعيضت عن حمول الشو ... ك أحمالًا من الحَزْف
نشاوى لا من الصهبا ... ء بل من شدة الضعف

فقال رزين:

فلو كنتم على ذاك ... تملينون إلى قصف

تــــسارت حــــــالكم فيــــــه ولم تبقـــــوا عــــــلى خــــسف

فقال دعبل:

وإذ فــــــات الـــــــذي فـــــات فكونــــــوا مــــــن أولي الظـــــرف
ومـــــــرّوا نقـــــــصف اليــــــوم فـــــــإني بـــــــائع خفــــــــي

ثم باع خفه وأنفق ثمنه عليهم.

ومما أنشد الصولي ثعلبًا لنفسه:

كم قد تجرعت من حزن ومن غُصص إذا تجـــدد حـــزن هـــوَّن المـــاضي
وكــم غــضبت فــما بــالَيْتُمُ غــضبي حتــى رجعــت بقلــب ساخط راضي

قال أبو بكر الصولي كأنه أخذه عندي من قول خاله العباس بن الأحنف:

تعلمت ألوان الرضا خوف عتبها وعَلمهـــا حبـــي لهـــا كيـــف تغـــضب
ولي غـير وجـه قـد عرفـت مكانـه ولكـــن بـــلا قلـــب إلى أيـــن أذهـــب

ومما يتمثل به من شعره قوله:

ورب أخ ناديتــــــــه للمــــــــــة فألفيتـــه منهـــا أجـــلَّ وأعظـــما

ومما أُثر له:

لا تمـدحن ابـن سـهل إن وجـدت لـه فعـــلًا جمـــيلًا ولا تعـــذل إذا أزِمـــا[1]
فلـــيس يمنـــع إبقـــاءً عـــلى نَـــشَب ولـيس يعطـي الـذي يعطيـه معتزمـا
لكنهـــا خطـــرات مـــن وساوســـه يعطـــي ويمنـــع لا بخـــلًا ولا كرمًـــا

---

(١) أزم العام: اشتد قحطه.

ربما كان لإبراهيم دوران أخصب فيهما شعره ونثره، دور افتتانه بتلك القينة الشاعرة في سامرّا، ودور اضطهاد محمد بن عبد الملك الزيات له، وهياج النفس بالحب، وهياج النفس بالشدة، مدعاة إلى تفتح القريحة عند بعض الناس؛ فمن كتبه يستعطف ابن الزيات: «كتبت إليك وقد بلغت المدية المحزّ، وعَدَتْ الأيام عليَّ، بعد عدوي بك عليها، وكان أسوأ ظني وأكثر خوفي أن تسكن في وقت حركتها، وتكف عند أذاتها، فصرت عليَّ أضَرَّ منها، وكفَّ الصديق عن نُصرتي خوفًا منك، وبادر إليَّ العدو تقربًا إليك» وكتب تحت ذلك:

أخ بيني وبين الدهـ ... ـر صاحب أيّنا غلبا
صديق ما استقام فإن ... نَبَا دهر عليَّ نبا
وثبتُ على الزمان به ... [illegible]
ولو عاد الزمان لنا ... لعاد به أخًا حَدِبا

وكتب إليه: «أما والله لو أَمنت ودك لقلت، ولكني أخاف منك عتبًا لا تنصفني فيه، وأخشى من نفسي لائمة لا تحتملها لي، وما قُدّر فهو كائن، وعن كل حادثة أُحدوثة، وما استبدلت بحالة كنت فيها مغتبطًا، حالة أنا في مكروهها وألمها أشد عليَّ من أنِّي فزعت إلى ناصري عند ظلم لحقني، فوجدت من ظلمني أخفّ في ظلمي منه، وأحمد الله كثيرًا».

ولما انحرف الوزير عن الصولي تحاماه الناس أن يلقوه، وكان الحارث المغني صديقًا له مصافيًا، وهجره في من هجره من الإخوان، فكتب إليه:

تغيّر لي فيمن تغير حارث ... وكم من أخ قد غيرته الحوادث
أحارث إن شوركت فيك فطالما ... غنينا وما بيني وبينك ثالث

دخل أحمد بن المدبر على إبراهيم بعد خلاصه من النكبة مهنئًا، وكان استعان به في أمر النكبة فقعد عنه، وهو الذي كان جاهره العداوة في حضرة المتوكل، وأغضى الخليفة عما نُسب إلى الصولي، وكان بلغه أن ابن المدبر حرَّض عليه ابن الزيات، فقال الصولي:

وكنت أخي بالدهر حتى إذا نبا ... نبوتَ فلما عاد عدت مع الدهر
فلا يوم إقبالي عددتك طائلًا ... ولا يوم إدباري عددتك من وتر
وما كنت إلا مثل أحلام نائم ... كلا حالتيك من وفاءٍ ومن غدر

وله فيه أيضًا:

لو قيل لي خذ أمانًا ... من أعظم الحدثان
لما أخذت أمانًا ... إلا من الخلان

وقال:

بلوت الزمان وأهل الزمان ... وكل بلوم وذم حقيق
فأوحشني من صديقي الزمان ... وآنسني بالعدو الصديق

وقوله:

يا أخا لم أر في الدهر خِلًّا ... قبله أسرع هجرًا ووصلا
كنت لي في صدر يومي صديقًا ... فعلى عهدك أمسيتَ أم لا

***

حكى الجهشياري قال: رأيت دفترًا بخط إبراهيم بن العباس الصولي فيه شعر قاله في حبس موسى بن عبد الملك، أخي محمد بن عبد الملك الوزير، يصف غليظ ما هو فيه من الحبس، وثقل الحديد والقيد، ويذكر موسى في شعره، وكان يكنى بأبي الحسن، فكناه بأبي عمران. فقال في قصيدة طويلة:

كم ثُرى يبقى على ذا بدني ... قد بَلي من طول همي وفني

أنا في أسر وأسباب رَدّى ... وحديد فادح يَكْلَمُني

وأبو عمران موسى حنق ... حاقدٌ يطلبني بالإحنِ

ليس يشفيه سوى سفك دمي ... أو يراني مدرجًا في كفن

وقد كتب أحمد بن المدبر بخطه في ظهر هذا الدفتر:

أبا إسحاق إن تكن الليالي ... عطفن عليك بالخطب الجسيم

فلم أر صَرف هذا الدهر يجري ... بمكروه على غير الكريم

وله أبيات في الغزل والنسيب فيها إبداع جميل، ومنها:

وعلمتني كيف الهوى وجهلته ... وعلمكم صبري على ظلمكم ظلمي

وأعلم ما لي عندكم فيردني ... هواي إلى جهلي فأرجع عن علمي

وقال وأورده أبو تمام في الحماسة:

ونُبئت ليلى أرسلت بشفاعة ... إليَّ فهلا نفس ليلى شفيعها

أأكرم من ليلى عليَّ فتبتغي ... به الجاه أم كنت امرًا لا أطيعها

وقال:

تدانت بقوم عن تناءٍ زيارة ... وشطَّ بليلى عن دنو مزارها

وإن مقيمات بمنعرج اللِّوى[1] ... لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

وقال:

وليلى كمثل النار ينفع ضوؤها ... بعيدًا نأى عنها ويحرق جارها

ومما قال في حسن الحديث:

---

(١) اللوى كإلى: ما التوى من الرمل.

إن الزمـــان ومـــا تـــرين بمفرقـــي … صرَفَ الغوايـــة فانـــصرفت كـــريما
وضـــجرت إلا مـــن لقـــاء محـــدّث … حـــسن الحـــديث يزيـــدني تعلـــيما

ومن قوله:

لا تلمنـــي فـــإن همـــك أن تثـــ … ـــرى وهمـــي مكـــارم الأخـــلاق
كيـف يـستطيع حفـظ مـا جمعـت كفـ … ـــاه مـــن ذاق لـــذة الإنفـــاق

ومن إشاراته:

لا يمنعنـك خفـض العـيش في دعـة … نـــزوع نفـــس إلى أهـــل وأوطـــان
تلقـى بكـل بـلاد إن حللـت بهـا … أهـــلًا بأهـــل وجيرانًـــا بجـــيران

وقال:

لا تُهنِّيـــــــك بطـــــــوس … بـــل نهنـــي بـــك طوســـا
أصـــبحت بعـــد طـــلاق … بـــك بالفـــضل عروســـا(١)

وقال في أبي الوليد أحمد بن أبي الورد:

عَفَّـت مـساوٍ تبـدت منـك فاضـحةً … عـلى محاسـن أبقاهـا أبـوك لكـا
لـئن تقـدمتَ أبنـاء الكـرام بهـا … لقـد تقـدم آبـاء اللئـام بكـا

وقال:

وأنـت هـوى الـنفس مـن بيـنهم … وأنـــت الحبيـــب وأنـــت المطـــاع
فـــما بـــك إن بَعـــدوا وحـــدةٌ … ولا معهـــم إن بعـــدت اجـــتماع

---

(١) هذه رواية الثعالبي في المنتحل، وروايته في كتابه نثر النظم وحل العقد هكذا:

فلقـــد أصـــبحت اليـــو … م بـــك الطـــبوس عروســـا

ومما نسب إليه:

كن كيف شئت وقل ما تشا ... ء وأبرق يمينًا وأرعد شمالا
نجا بك لؤمك منجى الذبا ... ب حمته مقاذره أن يُنالا

ومن تغزله:

أراك فلا أردُّ الطرف كيلا ... يكون حجابُ رؤيتك الجنون
ولو أني نظرتُ بكل عين ... لما استقصت محاسنك العيونُ

ومن شعره وهو مما صار في حُكْم الأمثال شيوعًا، وقيل: هو لأبي تمام الطائي، وهو الأرجح:

أَوْلَى البرية طرًّا أن تؤاسيه ... عند السرور الذي آساك في الحزن
إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا ... من كان يألفهم في الموطن الخشن

وأنشد الأخفش من شعر الصولي الأبيات الثلاثة التالية، وكان يفضلها ويستجديها:

أميل مع الصديق على ابن[1] أمي ... وأقضي[2] للصديق على الشقيق
وإما تلقني حرًّا مطاعًا ... فإنك واجدي عبد الصديق
أفرِّق بين معروفي ومني ... وأجمع بين مالي والحقوق

قال المسعودي: ومما استحسن من شعره الذي لم يسبقه عند جماعة أهل الأدب أحد من زمانه قوله: «لنا إبل كُوم يضيق بها الفضا» إلخ.

وهي الأبيات الثلاثة التي تقدمت، وكان ثعلب يستحسنها.

---

(١) في رواية: ابن عمي.
(٢) رواية: وآخذ.

ويقول أبو هلال العسكري في ديوان المعاني، ومن المديح البارع قول إبراهيم بن العباس:

أسـدٌ ضـارٍ إذا هيجتـه   وأبٌ بـرٌّ إذا مـا قـدرا
يعلـم الأبعـد[1] إن أثـرى ولا   يعلـمُ الأدنـى إذا مـا افتقـرا

قال: وقد أحسن إبراهيم في قوله:

إمـا تريني أمـام القـوم متبعًـا   فقـد أرى مـن وراء الخيـل أتبـع
يومًـا أُنيخ فـلا أبقـي علـى نـشب   وأسـتبيح فـلا أبقـي ولا أدع
لا تـسألي القـوم عـن حـي صـحبتهم   مـاذا صـنعت ومـاذا أهلـه صـنعوا

ونقل له قوله:

فكـن كيـف شـئتَ وقـل مـا تـشا   وأبـرق يمينًـا وأرعـد شـمالا

إلى آخر ما ورد آنفًا.

قال: وهذه الأبيات وإن كانت مشهورة، فإن لإيرادها هاهنا معنى كبيرًا، وذلك أني لست أجد خيرًا منها في معناها وأجود.

وقال المرزباني أيضًا: وأنشدني أبو أحمد، أنشدني أبو مسلم بن بحر لإبراهيم بن العباس، وهي أبيات مشهورة أوردتها لأني لست أجد مثلها في معناها:

ولمـا رأيتـك لا فاسـقًا   تهـابُ ولا أنـت بالزاهـد
ولـيس عـدوُّك بـالمتقى   ولـيس صـديقك بالحامـد
أتيـت بـك الـسوق سـوق الرقيـ   ـق فناديـت هـل فيـك مـن زائـد
عـلى رجـل غـادر بالـصديـ   ـق كفـور لنعمائـه جاحـد

(١) في رواية: (يعرف) بدل (يعلم) في الموضعين.

فـما جـاءني رجـل واحـدٌ يزيـد عـلى درهـم واحـد
سـوى رجـل حـار منـه الـشقا وحَلّـت بـه دعـوة الوالـد
فبعتـك منـه بـلا شـاهد مخافـة أدرك بالـشاهد
وأبـتُ إلى منـزلي سـالمًا وحـلَّ الـبلاءُ عـلى الناقـد

قال: وقد أحسن التصرف فيها فما قاربه في معانيها أحد. قال: ومن ظريف الشكاية قول إبراهيم:

فـدعني راغـمًا أشـقى بوجـدي وخُـذ قلبـي إليـك بغـير حمـدِ
سـقام لا يـرق عـليَّ منـه ووجـه لا يكافئـه بـود
وقـد أصـفيته ودي بجهـدي فعـارض في الجفـاء بمثـل جهـدي

ومما يجب على الرؤساء أن يحفظوه قوله:

تزيـده الأيـام إن أقبلـت حزمًـا وعلـمًا بتـصاريفها
كأنهـا في وقـت إسـعافها تُـسمعه صـوت تخاريفهـا

ومما أحسن فيه وبرَّز على نظرائه قوله:

سـقيًا ورعيًـا لايـام لنـا سـلفت بكيـت منهـا فـصرت اليـوم أبكيهـا
كـذاك أيامنـا لا شـك نندبهـا إذا تقـضت ونحـن اليـوم نـشكيها

وقال:

قلـت لهـا حـين أكثـرت علـ ـيَّ ويحـك أزرت بنـا المـروءات
قالـت فـأين الكـرام قلـت لهـا لا تـسألي عـنهم فقـد مـاتوا

وقال:

خـلِّ النفـاق لأهلـه وعليـك فـالتمس الطريقـا
وارغـب بنفـسك أن تُـرى إلا عـدوًّا أو صـديقا

وقال:

وعابــكِ أقــوام فقــالوا شــبيهة ... ببدر الدجى حاشاك أن تشبهي البدرا
لــئن شــبهوك البــدر ليلــة تمــه ... لقد قارنوا الشنعاء واقترفوا الوزرا
أيــشبه بــدرٌ آفــلٌ نــصف شــهره ... ضياءً منيرًا يطلع الشهر والدهرا

ومن قوله في الفضل بن سهل وهو كسائر شعره كأنه نثر:

لفــضل بــن ســهل يــدٌ ... تقــاصر عنهــا المثــل
فبــسطتها للغنــى ... وســطوتها للأجــل
وباطنهــا للنــدى ... وظاهرهــا للقُبَــل

وقوله:

تمر الصبا صفحًا بساكن ذي الغضا ... ويصدع قلبي أن يهب هبوبها
قريبــة عهــد بالحبيــب وإنــما ... هوى كل نفس حيث حلَّ حبيبها
وزالت زوال الشمس عن مستقرها ... فمــن مخــبري في أي أرض مغيبها
تطلــع مــن نفسي إليها نــوازع[1] ... عــوارف أن اليأس منك نصيبها

ومما ينسب إليه:

يُمــنُّ علــيكم بــأموالكم ... وتُعطــون مــن مائــة واحــدًا

ونقل المرزباني:

ومؤمــل للنائبــات إذا ... هــب الزمــان بــأزره هبــا
لمــا رآني نهــب حادثــة ... جعــل الــذخائر دونهــا نهبــا

ونقل له ياقوت قوله:

---

(١) في رواية: طوالع.

ولكــن الجــواد أبــا هــشام ... وفيّ العهــد مــأمون المغيــب
بطــيءُ عنــد[1] مــا اســتغنيت عنــه ... وطَــلّاع عليــك مــع الخطــوب

فقال: إن هذا من نادر الشعر وجيده. وقال أيضًا: ومن أحسن ما قيل في قصر الليل قول إبراهيم بن العباس:

وليلــة مــن الليــالي الزُّهــر ... قابلــت فيهــا بــدرها ببــدر
لم تــك غــير شَــفَق وفجــر ... حتــى تولَّــت وهــي بكــرُ الــدهر

ومن شعره والناس يروونه لغيره:

ليلــة كــاد يلتقــي طرفاهــا ... قــصرًا وهــي ليلــة المــيلاد

وهكذا تكاد لا ترى للصولي إلا البيتين والثلاثة، ومنها ما يغني عن قصيدة أو قصائد. ذكروا أن عبد الله بن العباس وهب لأخيه إبراهيم بن العباس ثلث ماله، ووهب لأخته الثلث الآخر، فصار مساويًا لهما في المال. فقال إبراهيم:

ولكــن عبــد الله لمــا حــوى الغنــى ... وصــار لــه مــن بــين إخوتــه مــال
رأى خَلــة مــنهم تُــسدّ بمالــه ... فــساهمهم حتــى اســتوت بهــم الحــال

وكان لإبراهيم ابن قد يفع وترعرع، وكان مُعجبًا به، فاعتلَّ علة لم تطل حتى مات، فرثاه مراثي كثيرة، وجزع عليه جزعًا شديدًا، فمن مراثيه:

أنــت الــسواد لمقلــة ... تبكــي عليــك ونــاظرُ
مــن شــاء بعــدك فليمــت ... فعليــك كنــت أحــاذر

(١) في رواية: بطيء العهد ما استغنيت عنه.

قال الحسين بن علي الباقطائي: شاورت أبا الصقر قبل وزارته في أمر لي، فعرفني الصواب. فقلت له: أنت -أيدك الله- كما قال إبراهيم بن العباس في هذا المعنى:

أتيتك شتى الرأي لابس حيرة ... فسددتني حتى رأيت العواقبا
على حين ألقى الرأيُ دُوني حجابه ... فجبت الخطوب واعتسفت المذاهبا

فقال: لا تبرح والله حتى أكتب البيتين، فكتبتهما له بين يديه بخطي.

نثره وطريقته:

خلطنا نثر الصولي بشعره، وكان الغرض أن نقتصر على نثره دون شعره، والإنشاء مرمانا في هذه الورقات، ولكن هكذا جاء؛ وفي شعره كما في نثره ما يُتعلم منه ويُحتذى، وشعره لمن يحاول أن يترجم له أصدق وثيقة تترجم عنه، ثم إن الباقي من شعره كثير، لا يوازيه المأثور من نثره. وللصولي فيما ذكره ابن النديم كتاب ديوان رسائله، وكتاب ديوان شعره، وكتاب الدولة كبير، وكتاب الطبيخ، وكتاب العطر، وكلها في المفقودات.

يقول المسعودي: إن الصولي كان يتكسب في حداثته بشعره، ورحل إلى الملوك والأمراء، ومدحهم طلبًا لجدواهم. وقال: إن له مكاتبات قد دُوِّنت، وفصولًا حسانًا من كلامه قد جمعت. ومما استحسن من فصوله، وكلها في نهاية الجودة: «وقديمًا[1] غذت المعصية أبناءها، فحلبت عليهم من دَرِّها مرضعة، وبسطت لهم من أمانيها مطمعة، وركبت فيهم مخاطرها موضِعة، حتى إذا رتعوا فأمنوا، وركبوا

(١) في رواية عريب في صلة تاريخ الطبري أن أول هذه الرسالة هكذا: وقسم الله عدوه ثلاثة: روحًا معجلة إلى عذاب الله، وجنة منصوبة لأولياء الله، ورأسًا منقولًا إلى دار خلافة الله، استنزلوه من معقل إلى عقال، وبدلوه آجالًا من آمال، وقديمًا... إلخ.

فاطمأنوا، وانقضى رضاع وآن فطام، سقتهم سمًّا ففجرت مجاري ألبانها دمًا، وأعقبتهم من حلو غذائها مُرًّا، وحطت بهم من معقل إلى عقال، ومن حسرة إلى حسرة، قتلًا وأسرًا، وإباحة وقسرًا، وقلَّ من أوضع في الفتنة مرهجًا[١] في لهبها، واقتحم لهبها مؤججًا، إلا استقحمته آخذة بمخنقه، وموهنة بالحق كيده، حتى تجعله لعاجله جرزًا[٢]، ولآجله حطبًا، وللحق موعظة، وللباطل حجة، ذلك لهم جزاء في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر، وما ربك بظلام للعبيد».

كان الكاتب عبد الله بن عمرو من بني (عبد كان) المصريين يستصغر كتَّاب سُرَّ من رأى، لما وردها، ولا يرضى أحدهم، فلما أدخلوه على إبراهيم بن العباس، وهو يملي رسالة في قتل إسحاق بن إسماعيل، سمع ما أعجبه فقال: هذا من لم تلد النساء مثله، فإني سمعته يملي شيئًا كأنه فيه نذير مبين.

ومن كلامه: ووجد أعداءُ الله زخرف باطلهم، وتمويه كذبهم، سرابًا بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، وكوميض برق عرض فأسرع، ولمع فأطمع، حتى انحسرت مشرقة مغاربه، وتشعبت مولية مذاهبه، وأيقن راجيه وطالبه، ألَّا ملاذ ولا وَزَر، ولا مورد ولا مصدر، ولا من الحرب محصر، وهناك ظهرت عواقب الحق منجية، وخواتم الباطل مردية، سنة الله فيما أزاله وأداله، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، ولا لقضائه تحويلًا.

وله في غرض التعزية رسالة منه إلى الخليفة الواثق بالله يعزيه بالمعتصم: إن أحق الناس بالشكر من جاء به عن الله، وأولاهم بالصبر من كان سلفه رسول الله، وأمير المؤمنين أعزه الله، وآباؤه نضرهم الله، أُولو الكتاب الناطق عن الله بالشكر، وعترة

---

(١) أرهج الغبار: أثاره.

(٢) أرض جرز وجرز وأجرز وجرز ومجروزة: لا تنبت أو أكل نباتها أو لم يصبها مطر.

رسوله المخصوصون بالصبر، وفي كتاب الله أعظم الشفاء، وفي رسوله أحسن العزاء، وقد كان من وفاة أمير المؤمنين المعتصم بالله، ومن مشيئة الله في ولاية أمير المؤمنين الواثق بالله، ما عفى أوله على آخره، وتلافت بدأته عاقبته، فحق الله في الأولى الصبر، وفرض في الأخرى الشكر، فإن رأى أمير المؤمنين أن يستجيز ثواب الله بصبره، ويستدعي زيادته بشكره، فعل إن شاء الله وحده.

وله تعزية على لسان الخليفة إلى طاهر بن عبد الله مولى أمير المؤمنين، وقد يجيد الكاتب إذا كتب لنفسه، ولا يجيد إذا كتب بلسان غيره؛ إلا أن إبراهيم في ذلك سواء وغاية، قال:

«أما بعد؛ تولَّى الله توفيقك وحياطتك، وما يرتضيه منك ويرضاه عنك، إن أفضل النعم نعمة تُلقيت بحق الله فيها من الشكر، وأوفر حادثة ثوابًا حادثة أدى حق الله فيها من الرضا والتسليم والصبر، ومثلك من قدم ما يجب لله في نعمة فشكرها، وفي مصيبة فأطاعه فيها، وقد قضى الله سبحانه وتعالى في محمد بن إسحاق مولى أمير المؤمنين -عفا الله عنه- قضاءه السابق والمتوقع، وفي ثواب الله ورضا أمير المؤمنين -أدام الله عزه- وتقديم ما يقدِّم مثله أهل الحجا والفهم، ما اعتاضه معتاض، وقدمه موفق، فليكن الله عز وجل وما أطعته به، وقدمت حقه فيه، أولى بك في الأمور كلها، فإنك إن تتقرب إليه في المكروه بطاعته يحسن ولايتك في توفيقك لشكر نعمه عليك».

ومن توقيعاته توقيع كتبه في كتاب عامل له يعتدُّ بحسن أثر، ويمتُّ بمقام محمود: يا هذا لست أشك أن لك أثرًا في التوفير كان من تقدمك مقصرًا عنه، وأنك معنيٌّ محتاط، غير أنك عفيت على ما أحمدتُ منك بما يتناهى إليَّ عنك على السن المتظلمين وأصحاب الأخبار. وذكر لي فلان ما جرى بينك وبين أخيه ما كثر وصفه

له، وقام منه وقعد، وتالله لأكونن الباحث عليك والمطالب لك دونه، لإقدامك على شيخ ابن ستين سنة بما أقدمت به عليه، وأُفٍّ لدنيا اضطرت إليكم فكنتم خيار من يعلم فيها، وأبرأُ إلى الله من أعمالكم التي رجعتم بها إلى أنفسكم ونياتكم.

ومن تحميداته في فتح:

فالحمد لله المزيل لما يمهد المبطلون، ويمكر به الماكرون، ويكيد به الملحدون، تمكينًا لعبده وخليفته، وذبًّا[1] عن دينه وحقه، وإظهارًا لأوليائه وحزبه، وإمضاءً لعزائمه[2] وقدرته، منعمًا قادرًا، وممليًا ممهلًا، عدلًا إذا استدرج، متفضلًا إذا أنعم، حمدًا به يُستنزل نصره، ويُبلغ به رضوانه، ويُمترى[3] بمثله فواضل مزيده.

ومن آخر:

والحمد لله بجميع محامده التي حُمد بها على جميع آلائه، وجميل بلائه، فيما ولَّى به خليفته، ونصر به دينه، وأقام به حقه، وأقرَّ به وليه، وقمع به من ألحد[4] عن سبيله، حمدًا يؤدي حق نعمته، ويوجب به أفضل مزيده، بمنه وطوله.

وله في فتح إسحاق بن إسماعيل:

الحمد لله معز الحق ومديله، وقامع الباطل ومزيله، الطالب فلا يفوته من طلب، والغالب فلا يعجزه من غلب، مؤيد خليفته وعبده، وناصر أوليائه وحزبه، الذين أقام بهم دعوته، وأعلى بهم كلمته، وأظهر بهم دينه، وأدال بهم حقه، وجاهد

(١) ذب عنه: دفع ومنع.
(٢) عزائم الله: فرائضه.
(٣) مرى الشيء: استخرجه كامتراه.
(٤) ألحد: مال وعدل.

بهم أعداءه، وأنار بهم سبيله، حمدًا يتقبله ويرضاه، ويوجب أفضل عواقب نصره، وسوابغ نعمائه.

وله تحميد آخر:

أما بعد؛ فالحمد لله الأول بلا أبد يحصى، والآخر بلا أمد يفنى، الظاهر لخلقه بعزته، العزيز سلطانه بعظمته، الفرد بوحدانيته بقدرته، المدبر في ملكه بجبروته، الذي نأى عن الأشياء أن يكون فيها محويًا، واتصل بها فلم يكن من علمًا خليًّا، وهو فيها غير مستكنّ، ومعها غير مماسّ، في لجج البحار، ومفاوز القفار، وشوامخ الجبال، وكثبان الرمل، مع كل خلق، في كل أُفق، وعلى كل شرف ومكان، وفي كل وقت وأوان، موجود إذا طلب، وقريب حيث نُدب، عالم خفيات الغيوب، وخطرات القلوب، وما في السموات وما في الأرض، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبةٍ في ظُلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتاب مبين.

ومن توقيعاته ما وقّع به لرجل مَتَّ إليه بحرمة:

«تقدمت بحرمة مألوفة، ووسيلة معروفة، أقوم بواجبها وأرعاها من جميع جوانبها». وورد إليه كتاب بعض الكتاب بذم رجل ومدح آخر فوقَّع في كتابه: «إذا كان للمحسن من الجزاء ما يقنعه، وللمسيء من النكال ما يقمعه، بذل المحسن الواجب على رغبة، وانقاد المسيء للحق رهبة»، فوثب الناس يقبلون يده.

وكتب شفاعة لرجل إلى بعض إخوانه:

فلان مما يزكو شكره، ويحسن ذكره، ويعنيني أمره، والصنيعة عنده واقعة موقعها، وسالكة طريقها:

وأفضل ما يأتيه ذو الدين والحجا إصابة شكر لم يضع معه أجر

وقال: الكريم أوسع ما تكون مغفرته، إذا ضاقت بالمذنب معذرته.

ومن مشهور كلامه: أتاني فلان في وقت استثقل فيه لحظة الفرح.

وقال: كأن ابن أخي خُلق من ثلاث أشياء: من الثلج والمصل والعذرة، بارد حامض منتن. وكان يقول: مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلًا ثم وقعوا منه، أقربهم من التلف أبعدهم من الارتقاء.

وقيل له: إن فلانًا يحب أن يكن لك وليًّا. فقال: أنا والله أحب أن يكون الناس جميعًا إخواني، ولكني لا آخذ منهم إلا من أُطيق قضاء حقه، وإلا استحالوا أعداء؛ وما مثلهم إلا كمثل النار قليلها مُقْنِع، وكثيرها مُحْرِق. وكان يقول: مثل الأصدقاء كالنار، قليلها متاع، وكثيرها بوار. وقال: لو وُزنت كلمات النبي عليه السلام: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم» بكلام أهل الأرض لرجحت.

كتب الصولي على لسان المتوكل إلى عُمَّاله في الآفاق كتابه بأخذ أهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير. قال: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فإن الله - تبارك وتعالى- بعزته التي لا تُحاولُ، وقدرته على ما يريد، اصطفى الإسلام فَرَضِيَه لنفسه، وأكرم به ملائكته، وبعث به رسله، وأيد به أولياءه، وكنفه بالبر، وحاطه بالنصر، وحرسه من العاهة، وأظهره على الأديان، مبرًّا من الشبهات، معصومًا من الآفات، محبوًّا بمناقب الخير، مخصوصًا من الشرائع بأطهرها وأفضلها، ومن الفرائض بأزكاها وأشرفها، ومن الأحكام بأعدلها وأقنعها، ومن الأعمال بأحسنها

وأقصدها، وأكرم أهله بما أحلَّ لهم من حلاله، وحرَّم عليهم من حرامه، وبيَّن لهم من شرائعه وأحكامه، وحدَّ لهم من حدوده ومناهجه، وأعدَّ لهم من سعة جزائه وثوابه فقال في كتابه فيما أمر به ونهى عنه، وفيما حضَّ عليه فيه ووعظ: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون}. وقال فيما حرم على أهله مما عمط[1] فيه من رديء المطعم والمشرب والمنكح لينزعهم عنه، وليطهر به دينهم، ليفضلهم عليهم تفضيلًا: {حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة} إلى آخر الآية. ثم ختم ما حرَّم عليهم من ذلك في هذه الآية بحراسة دينه ممن عنَدَ عنه، وبإتمام نعمته على أهله الذين اصطفاهم، فقال عز وجل: {اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشوني * اليوم أكملت لكم دينكم} الآية، وقال عز وجل: {حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم} الآية، وقال: {إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان} الآية، فحرَّم على المسلمين من مآكل أهل الأديان أرجسها وأنجسها، ومن شرابهم أدعاه إلى العداوة والبغضاء، وأصدَّه عن ذكر الله وعن الصلاة، ومن مناكحهم أعظمها عنده وزرًا، وأولاها عند ذوي الحجا والألباب تحريمًا، ثم حباهم محاسن الأخلاق وفضائل الكرامات، فجعلهم أهل الإيمان والأمانة، والفضل والتراحم، واليقين والصدق، ولم يجعل في دينهم التقاطع والتدابر، ولا الحمية ولا التكبر، ولا الخيانة ولا الغدر، ولا التباغي ولا التظالم، بل أمر بالأُولى ونهى وعن الأخرى، ووعد وأوعد عليها جنته وناره، وثوابه وعقابه. فالمسلمون بما اختصهم الله من كرامته، وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذي اختاره لهم، بائنون على الأديان بشرائعهم الزاكية، وأحكامهم المرضية الطاهرة، وبرهاناتهم المنيرة، وبتطهير الله دينهم، بما أحلَّ وحرَّم فيه، لهم وعليهم، قضاء من الله عز وجل

(١) عمط عرضه: عابه وثلبه كاعتمطه.

في إعزاز دينه حتمًا، ومشيئة منه في إظهار حقه ماضية، وإرادة منه في إتمام نعمته على أهله نافذة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيّ عن بينة، وليجعل الله الفوز والعاقبة للمتقين، والخزي في الدنيا والآخرة على الكافرين.

وقد رأى أمير المؤمنين -وبالله توفيقه وإرشاده- أن يحمل أهل الذمة جميعًا بحضرته، وفي نواحي أعماله، أقربها وأبعدها، وأخصهم وأخسهم، على تصيير طيالستهم التي يلبسونها من لبسها من تجارهم وكتابهم، وكبيرهم وصغيرهم، على ألوان الثياب العسلية، لا يتجاوز ذلك منهم متجاوز إلى غيره، ومن قصر عن هذه الطبقة من أتباعهم وأرذالهم، ومن يقعد به حاله عن لبس الطيالسة منهم، أُخذ بتركيب خرقتين صبغهما ذلك الصبغ، يكون استدارة كل واحدة منهما شبرًا تامًّا في مثله، على موضع أمام ثوبه الذي يلبسه، تلقاءَ صدره ومن وراء ظهره، وأن يؤخذ الجميع منهم في قلانسهم بتركيب أزرة عليها يخالف ألوانها ألوان القلانس، ترتفع من أماكنهم التي تقع بها لئلا تلصق فتُستر، ولا يركب منها على حباك[1] فيخفَى، وكذلك في سروجهم، باتخاذ ركب الخشب لها ونصب أُكر على قرابيسها[2] تكون ناتئة عنها وموفيَة عليها، لا يرخص لهم في إزالتها عن قرابيسهم وتأخيرها إلى جوانبها، بل تتفقد ذلك منهم، ليقع ما وقع من الذي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليه ظاهرًا يبينه الناظر من غير تأمل، وتأخذه العين من غير طلب، وأن تؤخذ عبيدهم وإماؤهم، ومن يلبس المناطق من تلك الطبقة، بشد الزنانير والكساتيج[3] مكان المناطق التي كانت في أوساطهم، وأن توعز إلى عمالك فيما أمر به أمير المؤمنين في ذلك، إيعازًا تحدوهم به إلى استقصاء ما تقدم إليهم فيه، وتحذرهم إدهانًا وميلًا،

---

(١) القدة التي تضم الرأس إلى خشبة القتب.

(٢) القربوس كحلزون: حنو السرج.

(٣) الكستيج بالضم: خيط غليظ يشده الذي فوق ثيابه دون الزنار.

وتتقدم إليهم في إنزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل الذمة عن سبيل عناد وتهوين إلى غيره، ليقتصر الجميع منهم على طبقاتهم وأصنافهم على السبيل التي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليها، وأخذهم بها إن شاء الله.

فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين وأمره، وأنفذ إلى عُمّالك في نواحي عملك ما ورد عليك من كتاب أمير المؤمنين بما تعمل به إن شاء الله. وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه، أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وملائكته، وأن يحفظه فيما استخلفه عليه من أمر دينه، ويتولى ما ولاه مما لا يبلغ حقه فيه إلا بعونه، حفظًا يحمل به ما حمله، وولايةً يقضي بها حقه منه، ويوجب بها له أكمل ثوابه وأفضل مزيده، إنه كريم رحيم.

«وكتب إبراهيم بن العباس في شوال سنة خمس وثلاثين ومائتين».

هذا ما أمكن التقاطه من كلام الصولي، وعدَّه صاحب العقد في جملة من نبُل بالكتابة وكان قبل خاملًا فاستحق اسمها، وعدّه ابن النديم في البلغاء الحُدُث. وفي كتاب الأوراق: اجتمع الكُتَّاب عند أحمد بن إسرائيل فذكروا الماضين من الكُتَّاب، فأجمعوا أن أكتب من كان في دولة بني العباس أحمد بن يوسف وإبراهيم بن العباس، وأن أشعر كتاب دولتهم إبراهيم بن العباس ومحمد بن عبد الملك الزيات؛ فإبراهيم أجودهما شعرًا، ومحمد أكثرهما شعرا؛ ثم الحسن بن وهب وأحمد بن يوسف، وأن أذكى كتّاب الدولة وأجمعهم لمحاسن الكتابة من ذكاء وخط وفطنة: جعفر بن يحيى وإسماعيل بن صبيح. وقال صاحب الأغاني: كان محمد بن عبد الملك الزيات شاعرًا مجيدًا لا يقاس به أحد من الكتاب، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك؛ وكان إبراهيم مقلًّا، وصاحب قصار ومقطعات؛ وكان محمد شاعرًا يطيل فيجيد، ويأتي بالقصار فيجيد، وكان بليغًا حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب. وقال آخر: كلام

إبراهيم بن العباس نمط واحد قد أسدته القريحة، وألحمته الغزارة، فاتصل أوله بآخره، ووارده بصادره.

ولعل حب التأنق الذي غلب عليه منذ نشأته الأولى، دعاه إلى أن لا يخرج من كلامه إلا المجوَّد المنقح، وأن يعمد إلى الإيجاز في منظومه ومنثوره، لا يكتب إلا ما رأى بعينه، وتخيله بحسه ونفسه، (وكان إذا قال شعرًا اختاره وأسقط رذله وأثبت نخبته)، وإذا كتب أوجز وألبس المعنى قالبًا شفافًا من نسجه، ليس بالفضفاض المسترسل، ولا بالضيق المخنوق. ذكره أبو زيد البلخي فقال: «كان من أبلغ الناس في الكتابة، حتى صار كلامه مثلًا». والمثل لا يدور على الألسن إلا لاختصاره، والشعر لا تتناقله الألسن إلا لسهولة حفظه، ولما فيه من إيقاع ووزن وتساوق. ولا يزال المتصفح لكلامه يقع له على المعنى الكثير في الجملة القصيرة، فكان حقًّا كما قالوا: «كاتبًا من أشعر الكتاب وأرقهم لسانًا، وأسيرهم مثلًا» وهو «أشعر نظرائه الكتاب... وأشعاره قصار، ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة، وهو أنعت الناس للزمان وأهله غير مدافع»، وهذا من أعظم ما امتاز به؛ لأنه عرف أخلاق الناس في نكبته.

وأبان إبراهيم عن طريقته وسبب نجاحه في تنضيد درره فقال: ما اتكلت في مكاتبتي قط إلا على ما يجلبه خاطري، ويجيش به صدري، إلا قولي: وصار ما يُحْرزهم يُبرزهم، وما كان يعقلهم يعتقلهم. وقولي في رسالة أخرى: فاستنزلوه من معقل إلى عِقال، وبدلوه آجالًا من آمال. فإني ألممت بقولي آجالًا من آمال بقول مسلم بن الوليد الأنصاري المعروف بصريع الغواني وهو:

موفٍ على مُهَج في يوم ذي رهج ... كأنه أجل يسعى إلى أمل

وفي العقل والعقال بقول أبي تمام:

فإن باشر الإصحار فالبيض والقنا قِراه وأحواض المنايا مناهله
وإن يَبْنِ حيطانًا عليه فإنما أولئك عُقّالاته لا معاقله
وإلا فأعلمه بأنك ساخط عليه فإن الخوف لا شك قاتله

ذُكر شعر الكُتَّاب بحضرة إبراهيم بن العباس فقال: أشعرهم عندي الذي مزحه أفصح وأحسن من جد الناس. وكان يقول: ما تمنيت كلام أحد أن يكون لي إلا قول عبد الحميد بن يحيى: الناس أصناف متباينون، وأطوار متفاوتون، منهم عِلق مضنة لا يباع، ومنهم غِلٌّ مظنة لا يُبتاع.

ولعل أعظم سبب في توفيقه وتفوقه زهده في الغريب من اللفظ، وتشبثه بأهداب المعنى أكثر من كل شيء، واعتداده بعفو القريحة ووحي الساعة. قال أبو الغيث: كنت عند إبراهيم بن العباس وهو يكتب كتابًا، فنقطت من القلم نقطة مفسدة، فمسحها بكمه، فعجبت، فقال: لا تعجب، المال فرع والقلم أصل. ومن هذا السواد جاءت هذه الثياب، والأصل أحوج إلى المراعاة من الفرع، ثم فكر قليلًا وقال:

إذا ما الفكر وَلّدَ حسن لفظ وأسلمه الوجود إلى العيان[1]
ووشّاه ونمنمه بيانٌ فصيح في المقال بلا لسان
ترى حلل البيان مُنشرات تضاحك بينها صور المعاني

وكان يقول: المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل فيه من منشئه. وقال: الكتب موات، ما لم يوقّع فيها توقيع الختم وتختم، فإذا فُعل ذلك بها عاشت. وقال لغلام

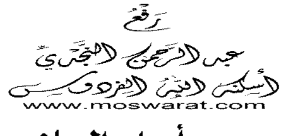
(١) روى الصولي في أدب الكتاب هذا البيت هكذا:
إذا ما الفكر أظهر حسن لفظ وأداه الضمير إلى العيان

كان يكتب بين يديه: «ليكن قلمك صلبًا بين الدقة والغلظ، ولا تبره عند عُقَده، ولا تجعلن في أنبوبه أنبوبة، ولا تكتبن بقلم ملتوٍ، ولا بذي شق غير مستوٍ، واختر من الأقلام ما يضرب إلى السمرة، وأحدَّ سكينك ولا تستعملها لغير قلمك، وتعهده بالإصلاح يصلح، وليكن مقطعك صلبًا ليمضي الخط مستويًا لا مستطيلًا، وابرِ قلمك بين التحريف والاستواء، وإذا كتبت الدقيق فأَمِلْ قلمك إلى إقامة الحروف لإشباع الخط، وإذا جللت فإلى التحريف، واعلم أن تبطين القلم شُؤم، وتحريفه حرن، وهما دمار الخط، واعلم أن وزن الخط مثل وزن القراءة، فأجود الخط أبينه، كما أن أحمد القراءة أبينها».

وبعد، فإن إبراهيم بن العباس أحد أركان البيان في عصره، كان كما قال فيه أبو الشبل لما رآه يكتب:

ينظّم اللؤلؤ المنثور منطقه ... وينظم الدر بالأقلام في الكُتب

توفي إبراهيم بن العباس الصولي في سنة (٢٤٣هـ).



محمد بن عبد الملك الزيات

عصره:

بالقوة التي أورثها الرشيد والمأمون للملك العباسي، عاش العباسيون أيام المعتصم والواثق دون أن يشهدوا ضعفًا محسوسًا في دولتهم. عاشروا بقوة التسلسل، لا بقوة هذين الخليفتين، وكانا يستران نقصهما بمن يعهدان إليهم تدبير الملك من الرجال وإطلاق أيديهم في الحكم، ولم تظهر في الدولة آثار الخطأ الذي ارتكبه المعتصم بتقديم الأتراك، والقضاء على قيادات العرب إلا في أيام المتوكل، ففي عهده بدأ ضعف الدولة، وزاده ضعف المتوكل في التدبير والسياسة، حتى قُتل، فكان أول خليفة قُتل جهرة من خلفاء بني العباس، وكثر بعد ذلك القتل في المستخلفين.

نفذ المعتصم ثم الواثق خطط المأمون في تدبير الملك، فاعتمد المعتصم على من اعتمد عليهم أخوه من الرجال، وجرى ابنه الواثق من بعده على خطة المأمون والمعتصم في القول بخلق القرآن، وحمل الأمة على اعتقاد ذلك، فتألم الناس من هذا التحكم، وحنقوا على المعتزلة أصل هذه المحنة، وكان للمعتزلة السلطان الأكبر في خلافة المأمون.

بيد أن المأمون لم يكن بالخليفة المستضعف؛ والمعتصم، وإن لم يصدر عن رأيه الخاص، فقد كان على جانب من حسن الخلق والكرم، وكذلك ابنه الواثق، وكان الواثق يحاسن العلويين ويحسن إليهم وإلى أهل الحرمين، حتى لم يبق منهم من يسأل الصدقة؛ ويشبه الواثق عمه المأمون في كثير من أخلاقه؛ وكان المعتصم قليل البضاعة

من الأدب، وابنه على جانب عظيم منه. وفي أيام المعتصم كان الروم من جيوشه في أمر عظيم، على نحو ما كانوا في عهد أبيه الرشيد، وفي أيامه قوي أمر بابك الخُرَّمي في أذربيجان، يريد أن يقيم ملة المجوس، فأخرب البلاد، وقتل عشرات الألوف من الجند والرعية، حتى قتل بعد أن أتعب الخلافة عشرين سنة.

وفي أيام المعتصم والواثق لم يقتطع شيء من جسم الدولة العباسية، وكان الأمويون في الأندلس يعملون على توطيد أمرهم، وإنشاء حضارتهم؛ وفي هذا العهد كان عبد الرحمن الثاني حامي الآداب والعلوم، ومن أعظم خلفاء بني أمية في المغرب؛ وكان ببو الأغلب في إفريقية، يرضون الخليفة العباسي ببعض الخراج، ويدعون له على المنابر، ويصدرون في المسائل الكبرى عن رأيه في الجملة، ويتولون استصفاء جزيرة صقلية؛ وكان ما وراء ذلك من بلاد الغرب الأقصى في أيدي الأدارسة العلويين يتخبطون ولا يستطيعون قيام مملكة قوية.

وظل العلم الديني والمدني سائرًا في طريقه التي أخذ بها في عهد الرشيد وابنه المأمون، ولكن بمعزل عن تنشيط المعتصم والواثق، وقلما كان هذان الخليفتان يشاركان أهل العلم، أو يعطفان عليهم العطف المطلوب، كفعل من كان قبلهما؛ وإذا لم يقع من هذين الخليفتين شيء يستحق أن يسمى تنشيطًا للآداب، فإنهما لم يعملا ما من شأنه أن يثبط العاملين عن عملهم، فكأن دورهما أول مرحلة إلى برزخ جديد، يقلب الأمة بين القوة والضعف. وبعد عهد المتوكل انتهت أيام العز في بني العباس، وفرح الجمهور لأول أمره بأنه أعاد السنَّة، وأبطل القول بخلق القرآن، وعندئذ بدأ اضطهاد الناس والحكام سرًّا لجماعات المعتزلة بعد أن غَلبوا على ثلاثة خلفاء.

نشأته ووزارته:

هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن أبي حمزة، عُرف بابن الزيات؛ لأن جده -على ما قيل- كان يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد، فغلب هذا التلقيب على بيته، وكان جده أبان من أهل قرية الدسكرة مقابل جُبَّل من عمل بغداد، فهو عربي بأصوله، وُلد ونشأ في بغداد، ولا يُعرف شيءٌ عن أوليته، ولا عمن أخذ العلم في صباه، وغاية ما أُثر عنه أنه أُولع بالأدب، وكان أبوه من مياسير تجار الكرخ، يحثه على التجارة وملازمتها، فيمتنع ويأبى إلا الكتابة وطلبها، ويخاطب الكتاب، ويلازم الدواوين، فقال له ذات يوم: والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك وليضرَّنك، لأنك تدع عاجل المنفعة، وما أنت فيه مكفى، ولك ولأبيك فيه مال وجاه، وتطلب الآجل الذي لا تدري كيف تكون فيه. فقال: والله لتعلمن أينا ينتفع بما هو فيه، أأنا أم أنت؛ ثم شخص إلى الفضل بن سهل بفم الصلح، فامتدحه بقصيدة، فأعطاه عشرة آلاف درهم، فعاد بها إلى أبيه، فقال له أبوه: لا ألومك بعدها على ما أنت فيه؛ وكان من جملة أبيات تلك القصيدة:

إني شعرت فلم أمدح سواك ولم ... أُعْمِل إلى غيرك الإدلاج[1] والبُكرا
ما كان ذلك إلا أنني رجل ... لا أقرب الورد حتى أعرف الصدرا
لم أمتدحك رجاء المال أطلبه ... لكن لتلبسني التحجيل والغررا

فابن الزيات إذًا من بيت اغتنى في التجارة، وسمت نفس محمد إلى العلا، فعدَّ مفخرة أهله، لما وجه وجهته إلى الآداب، وسار في طريق سعادته بحسب ميله

(١) الدلج -محركة- والدلجة -بالضم والفتح-: السير من أول الليل، وقد أدلجوا، فإن ساروا من آخره، فادلجوا بالتشديد. والبكرة -بالضم-: الغدوة كالبكرة -محركة- اسمها الإبكار. وشعر كنصر وكرم شعرًا وشعرًا: قاله. أو شعر: قاله، وشعر: أجاده.

واستعداده، وسما به شوق إلى المجد فدخل حظيرته من أبوابه، واتخذ لنجاحه الأسباب فتعلم، ولابس أرباب الكتابة في أعظم دواوين الدولة في عهد المأمون، فرأى -ولا شك- كبار الكتاب كعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف وسهل بن هارون؛ هذا إن لم يكن قد أخذ عنهم. فمدرسته الأولى في الواقع هي ذاك الديوان الذي اختلف إليه في صباه، وعرف فيه معاملات الحكومة وأصولها في سياسة الملك، وكتب كتبًا، وشاهد الكُتَّاب يكتبون، وأرهف حسه، وهذب نفسه، منذ ألقى في روعه أن يكون ذات يوم صاحب شأن في الدولة.

كان ابن الزيات جهميًّا، يقول بمذهب جهم بن صفوان، وهو يوافق المعتزلة في مسائل كثيرة، ومنها القول بخلق القرآن وأن الله لا يُرى في الآخرة، وكان ممدوحه الأول الفضل بن سهل يتشيع، وهو من أعاظم الفرس أدبًا وفضلًا، وهو ابن الوزير الحسن بن سهل، والد بوران زوج المأمون. وتصرفت الأقدار تصرفها، وأبى فضل أبي جعفر إلا أن يظهر ظهورًا رائعًا خرج به من خمول الذكر إلى نباهة القدر. اتفق أن ورد على المعتصم كتاب من بعض العمال، قرأه عليه وزيره أحمد بن عمار، وكان في الكتاب ذكر الكلأ فقال المعتصم: ما الكلأ؟ فقال: لا أعلم، وكان قليل المعرفة بالأدب. فقال المعتصم: «خليفة أُمي ووزير عامي»، وكان المعتصم ضعيف الكتابة، ثم قال: أبصروا مَن بالباب من الكُتَّاب، فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات، فأدخلوه إليه فقال له: ما الكلأ؟ فقال: الكلأ العشب على الإطلاق، فإن كان طريًّا فهو الخلا، فإذا يبس فهو الحشيش، وشرع في تقسيم أنواع النبات، فعلم المعتصم فضله، وتجلى له في كل موطن أنه قريع دهره في قيام الملك، وأنه حاضر البديهة، واسع المعرفة، جم الأدب. سأل المعتصم مرة جماعة من خواصه عن معنى سبب تسمية طاهر ذا اليمينين فلم يعلموا. فقال محمد بن عبد الملك: ذو الاستحقاقين، استحقاق ما لجده من رزق في الدولة، واستحقاق ما له في دولة المأمون.

وكان ابن الزيات يتولى قهرمة[1] الدار، ويشرف على مطبخ الخليفة، ويقف في الدار وعليه دُرَّاعة سوداء. يقول الطبري: إن محمد بن عبد الملك الزيات كان يتولى ما كان أبوه يتولاه للمأمون من عمل الفساطيط وآلة الجمازات[2]، ويكتب على ذلك: «مما جرى على يدي محمد بن عبد الملك»، وكان يلبس إذا حضر الدار دُرّاعة سوداء وسيفًا بحمائل، فقال له الفضل بن مروان وزير المعتصم قبل أحمد بن عمار: إنما أنت تاجر فما لك وللسواد والسيف؟ فترك ذلك محمد، ولما تركه أخذه الفضل برفع حسابه إلى دُلَيْل بن يعقوب النصراني، فرفعه فأحسن دُلَيْل في أمره ولم يرزأه شيئًا. وكان الفضل بن مروان نصراني الأصل (قليل المعرفة بالعلم، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء) حاول أن يسقط محمد بن عبد الملك، لأنه كان يتفرس فيه الذكاء النادر والعلم، ولا يحب أن يشاهده في دار الخلافة، ولا أن يخالط أهلها، ويعرف اسمه ورسمه، فأبت الأقدار إلا رفعه، وصادر المعتصم الفضل بن مروان على ألفي ألف دينار وأبقى على حياته، ورفعت إلى الفضل قصص العامة، فرأى في جملتها رقعة مكتوبًا فيها:

تفرعنت يا فضل بن مروان فاعتبر ... فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم ... أبادهم التقييد والحبس والقتل
وإنك قد أصبحت في الناس ظالمًا ... ستودى[3] كما أودى الثلاثة من قبل

أراد بالفضول الثلاثة: الفضل بن يحيى البرمكي، والفضل بن الربيع، والفضل بن سهل، وهم ثلاثة وزراء نكبوا وقتلوا على عهد الرشيد وابنيه المأمون والمعتصم.

---

(١) القهرمان: هو المسيطر الحفيظ على من تحت يده. والقهرمان من أمناء الملك وخاصته، وفي الحديث: كتب إلى قهرمانه، هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس. «اللسان».

(٢) الجمازة: دراعة من صوف بضم الدال، والدراعة: ثوب من صوف.

(٣) أودى: هلك. وبه الموت: ذهب.

تولى الوزارة أحمد بن عمار، ولما عرف المعتصم غَناء ابن الزيات، وعجز ابن عمار وجهله، قال له المعتصم: انظر أنت في الدواوين، وهذا يعرض عليَّ الكتب، ثم استوزر ابن عبد الملك وصرف ابن عمار صرفًا جميلًا، فأصبح ابن الزيات وزيرًا كاتبًا، وجرى على يديه عامة ما بنى المعتصم بسامرّا، من الجانبين الشرقي والغربي. أحيا المعتصم بذلك سُنَّة أخيه بتقليده الوزارة إلى كاتب، وكان لا يتولاها في عهد أخيه إلا من جمع أسباب الفضل، وذهب في الأدب كل مذهب.

لا نعلم سنة مولد أبي جعفر، ولا نستطيع تقدير سنه يوم تولى الوزارة، وربما كان حوالي الأربعين، وقد حكّمه المعتصم وبسط يده، فارتقى من ابن تاجر يعد الدوانيق، إلى أرقى رتب الخلافة يصرف الأمور كما يرى. ولما تولى الوزارة (اشترط أن لا يلبس القَباء، وأن يلبس الدُّراعة، ويتقلد عليها سيفًا بحمائل، فأُجيب إلى ذلك)، لبس ما كان يحب أن يلبس وهو ابن تاجر يبيع من القصر بضاعته، ويدل بما ورث عن أبيه من عادات التجار أصحاب التربيح والتكسب والتدنيق[1]. وكان يقول: قد صنع إليَّ الخليفة صنيعًا تفرد بها: نقلني من ذل التجارة إلى عز الوزارة، وأحرز ابن الزيات نعمة كما قال له أحدهم بحقها، واستوجبها بما فيه من أسبابها.

علمه وسياسته:

يقول إبراهيم بن المدّبر الوزير: إن محمد بن عبد الملك من ألطف الناس ذهنًا، وأرقهم طبعًا، وأصدقهم حسًّا، وأرشقهم قلمًا، وأملحهم إشارة، إذا قال أصاب، وإذا كتب أبلغ، وإذا شعر أحسن، وإذا اختصر أغنى عن الإطالة. وما زاد اليعقوبي والمسعودي -وهما المؤرخان القريبان من عهده- على أن وصفاه بالكتابة والبلاغة كما يوصف آحاد الكُتَّاب لا كما يوصف من كان (واحدًا في صناعته، ومفردًا في

(١) التدنيق: الاستقصاء وإدامة النظر إلى الشيء.

براعته). وقال فيه من لا غرض له: إنه كان شاعرًا يطيل فيجيد، ويأتي بالقصار فيجيد، وكان بليغًا حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب، وكان يعدّ من علماء النحو واللغة، وهو فتى لم تَعلُ به السن حتى إن أبا عثمان المازني، لما كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في النحو إذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان: ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب -يعني: ابن الزيات- فاسألوه، واعرفوا جوابه، فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذي يرتضيه أبو عثمان.

لا جرم أن اشتغال ابن الزيات بسياسة الدولة أضاع من مكانته الأدبية، والناس في كل زمان يرهبون القريب من السلطان، ويغتابونه في السر، ويستثقلون ظله أو يعادونه لعدة أسباب؛ فابن الزيات كان يدعو الأمة إلى حرمة القوانين، وكثير في الناس من يحبون أبدًا الخروج عليها، ويمقتون من يدعو إليها ويحنقون عليه، ومنهم الحُسَّاد يشق عليهم الإقرار بفضائل أهل الفضل، ومنهم أعداء عزه وأعداء مذهبه. ومثل منصبه الخطير مما تلتهب الصدور إلى الوصول إليه، ومنهم من أبغضوه لمجرد كونه جهميًّا كالشيعيَّين اليعقوبي والمسعودي، ولو كان يذهب في الإمامة مذهبهما لسكتا عن كثير من مساوئه، ولجملاه بصفات هو منها أعرى من مغزل. ومن تولى وزارة أعظم خلافة أربع عشرة سنة، لخليفتين بدون انفصال، وتولاها للثالث أيضًا، على ما لم يكن يعهد له نظير في دولة من الدول، لا يتوقع من الناس كافة أن يجمعوا على حبه. ولطالما سلبت أهواء السياسة من ذوي الفضل فضلهم، ومن أجلها عراهم أرباب اللؤم من محامدهم.

نسبوا إلى ابن الزيات أنه كان يقول إذا استرحمه أحد ممن يعذبهم: «الرحمة خور في الطبيعة، وضعف في المنة»، فكانوا يطعنون عليه في دينه بهذا القول. ولا دليل على أنه قال هذا القول، ويرد على الخاطر أن أعداءه اخترعوه من عند أنفسهم لينالوا منه

عند الخاصة والعامة. وكم من كِتاب ألفه مؤلفه فنسبه إلى غيره ليسقطه، وكم من قصيدة قالها رجل فعزاها إلى آخر للوقيعة به، وكأي من حديث وضعه واضعه على لسان من لم يخطر له هذا الكلام المزور ببال.

وضعوا حكايات أسندوها إلى أشخاص في جمل مزوقة قد تستغوي القارئ الغر، أوردوها في باب الملح والنوادر، يشيرون بها إلى لؤم ابن الزيات وتجبيهه الناس؛ زعموا أنه بعيد عن إسداء المعروف، يتجافى عن نفع غيره، وما حملوا عليه ولفقوا من الأحاديث المسقطة له إلا لأنه وصل إلى المعالي عن جدارة، وكم سعى غيره ليبلغوا منزلته فخابوا وما أفلحوا، وعَظُم ما رمى به من تلفيق منافسيه وقاصديه؛ ولن يرضى العامة والحامة إلا إذا عمل لهم رب الأمر والنهي المعقول وغير المعقول، وصاحب الحاجة أرعن لا يروم إلا قضاءها، ومن كان على شيء من الأخلاق لا يستقيم له حال مع الغوغاء، ومن أراد أن يصدع بالحق مع الكبير والصغير مقته كل من لم يظفر بطلبته، ويعز في الطبقات من تصبر نفسه على مر الحق، وحرارة الإصلاح والتقويم.

ثم إن من كان في مثل هذه الصدارة يستحيل عليه، وهو بشر يخطئ ويصيب، أن تكون أعماله كلها مسددة، والنقص من خلق الآدميين في الجملة، مثال من خطئه في اجتهاده؛ ولعل بعض العارفين يعدونه صوابًا: روى الراوون، أن المعتصم كان أمر بأن يعطى الواثق عشرة آلاف ألف درهم يستعين بها على أمره، ويصلح بها ما يحتاج إلى إصلاحه، فدافعه بذلك مدافعة متصلة أحوجته إلى شكايته إلى المعتصم، فأنكر عليه تأخر المال. فقال: يا أمير المؤمنين، العدل أولى بك وأشبه بقولك وفعلك، ولك عدة أولاد، أنت في أمرهم بين خلتين: إما أن تسوي بينهم في العطية فتجحف ببيت المال، وإما أن تخص بعضهم فتحيف على الباقين. فقال: قد رهنت لساني فما

تصنع؟ قال: تأمر لباقي ولدك بإقطاعات وصلات، وتطلق لهارون صدرًا من المال فأدافعه بباقيه، ويتسع الأمر قليلًا، وتُدَبّر الأمر بعد لك بما تراه، فقال له: وفقك الله، فما زلت أعرف الصواب في مشورتك.

وتأدى الخبر إلى هارون، فحلف بعتق عبيده ومماليكه، وبحبس عدة خيل، ووقف عدة ضياع، وصدقة مال جليل، لئن ظفر بمحمد ليقتلنه، وكتب اليمين بخطه، وجعلها في درج وأودعها دايته، ومرت مدة وأفضى الأمر إلى هارون، وكان ذا أناة وعقل، وكره أن يعاجله، فيقول الناس بادر بشفاء غيظه، ثم عزم على الإيقاع به، فتقدم بأن يُجمع له من وجوه الكُتَّاب من يصلح لولاية الدواوين والوزارة فجمعوا، ودعا بواحد منهم وقال له: اكتب كذا، في أمر رسمه له، فاعتزل وكتب وعرض الكتاب عليه فلم يرضه، حتى امتحن الجميع، فأمر صاحبه فقال: أَدخل مَن المُلكُ مضطر إليه، محمد بن عبد الملك، فجيء به وهو واجم مضطرب. فلما وقف قال له: اكتب إلى صاحب خراسان في كذا وكذا. فأخرج من كمه نصفًا، ومن خفه دواة، وابتدأ يكتب بين يديه، حتى فرغ من الكتاب، ثم أخرج خريطة فيها حصى فأترب الكتاب وأصلحه، وتقدم فناوله إياه، فوجده قد أتى على جميع ما في نفسه، فأعجب به جدًّا وقال: اختمه. فأخرج من الخريطة طينًا فوضعه عليه وتناوله، فختمه وأنفذه من ساعته. فقال الواثق لخادم له: امض إلى دايتي وقل لها: توجه إليَّ بالدُّرج الفلاني، فمضى الخادم فجاء به، فأخرج الرقعة فدفعها إليه. فقال: يا أمير المؤمنين أنا عبد من عبيدك إن وفيت بيمينك فأنت محكّم، وإن كفَّرت وصفحت كان أشبه بك، قال: لا والله ما يمنعني من الوفاء بيميني إلا النفاسة على أن يخلو الملك من مثلك، وأمر بعتق من حلف بعتقه، ووقف الضياع وحبس الخيل وأنفذ صدقة المال؛ وظل ابن الزيات وزيرًا للواثق كما كان في عهد أبيه. وقيل: إن موضوع الكتاب الذي اقترحه الواثق عليه كان يتعلق بأمر البيعة، فكتبوا فلم يرضَ بما كتبوه، فكتب

ابن الزيات نسخة رضيها، وأمر بتحرير المكاتبات عليها، وأن الواثق قال: عن المال والفدية عن اليمين عوض، وليس عن الملك وابن الزيات عوض.

إن السبب الذي غضب له الواثق أيام ولايته العهد، من تضييق ابن الزيات عليه ثم عفوه عنه لما أفضت إليه الخلافة، يدل على وفرة عقل الواثق. أما معاملة محمد بن عبد الملك الزيات قبل الخلافة لولي عهدها فما كانت غير محض اجتهاد، لأنه لا يريد استرسال ولي العهد في طلباته من مال الدولة بدون حساب، ويود أن يعرفه قدر المال، وأن يعدل الخليفة بين أولاده، حتى لا تتأثر أنفسهم من معاملة شاذة، لا يرون -ولو في باطنهم- أنها تمت إلى الإنصاف بسبب. وأدرك الواثق بعقله الراجح أن في قتل مثل هذا الرجل العظيم لشفاء غضب، قد يكون سكن بمرور الزمن، خسارة على الدولة لا تعوض، فما كل دهر ينبغ مثل ابن الزيات، وما كل حين يتهيأ للخليفة رجل مجرب مثله، ومن أخلص لسيده الأول كان حريًّا أن يخلص لسيده الثاني، والدين النصيحة.

وعلل صاحب النشوار غضب الواثق على ابن الزيات بما كان محمد بن عبد الملك يعامله به في أيام أبيه؛ فمن ذلك أن المعلم شكا إلى المعتصم أن الواثق لا يتعلم، فإذا طالبه بذلك شتمه ووثب عليه، فأمر المعتصم محمدًا بأن يضرب الواثق أربع مقارع، فخرج محمد واستدعى الواثق، وضربه ثلاث عشرة مقرعة حتى مرض، فلما عرف أبوه الخبر أنكر ذلك، وحلف للواثق أنه ما أمر محمدًا إلا أن يضربه أربع مقارع، فأخفاها في نفسه، فكان يبغضه، وعلم محمد بذلك فكان يقصده في ضياعه وأملاكه لما ترعرع وصار أميرًا، فوقع المعتصم يوما أن يُقطع الواثق ما ارتفاعه ألف ألف دينار، فمحاها محمد وكتب (ما قيمته ألف ألف درهم) فلما دخل إليه الخادم وعرفه ما عمله محمد وثب إلى أبيه وعرفه ذلك، وعرض التوقيع عليه، فقال له

المعتصم: ما أُغير ما وقعت به، وما أرى في التوقيع إصلاحًا، وكان محمد قد أجاد محوه، وعلم المعتصم أن رأي محمد في الاقتصاد أصلح، فبطل ما كان يريده الواثق وانصرف، فقال للخادم: قد تم عليَّ من هذا الكلب كل مكروه؛ فإن أفضت الخلافة إليَّ فقتلني الله إن لم أقتله. ثم قال له: أنت خادمي وثقتي، فإن أفضى هذا الأمر إليَّ فقاتله ساعة أخاطب بالخلافة ولا تشاورني، وجئني برأسه. قال: فمضت الأيام وتقلد الواثق، فحضر الدار في أول يوم محمد بن عبد الملك مع الكُتَّاب، فتقدم الواثق إلى الكتَّاب دونه بأن يكتب كل منهم نسخة بخبر وفاة المعتصم وتقلده الخلافة، فكتبوا بأسرهم، وعرضوا ذلك عليه فلم يرضه، فقال لمحمد: اكتب أنت، فكتب في الحال بلا نسخة كتابًا حسنًا، وعرضه فاستحسنه، وأمر بتحرير الكتب عليه، ولم يبرح حضرته حتى أقره على الوزارة، وخرج من بين يديه والناس كلهم خلفه. قال الخادم: فعجبت من ذلك وقلت: تُراه أنسى ما كان أمرني به؟ لِمَ لا استأذنه في ذلك وأذكره به؟ فتقدمت إليه لما خلا وأذكرته الحديث واستأذنته فقال: «ويحك، السلطان إلى محمد بن عبد الملك أحوج من محمد إلى السلطان، دعه».

عن محمد بن الفضل بن الأسود الكاتب قال: حدثني قريش بن أنس عن أبيه قال: دخلت على الواثق فقال لي: يا أبا قريش أخرج رقعة من تحت المصلى؛ فمددت يدي فأخرجت الرقعة وقرأتها وقلت: يا أمير المؤمنين رقعة حسنة، أولها تشوق، وأوسطها استعتاب، وآخرها استبطاء. وإذا آخر الرقعة:

إن يكن حبلك من حبلي وهى ... فإلى شوقي يكون المنتهى
لم يذكرنيك خطب حادث ... إنما يذكر من كان سها

وكانت الرقعة من محمد بن عبد الملك، فقال الواثق: ويلومني الناس على حب محمد بن عبد الملك؟

وبعد؛ فإن من أصعب ما أصيب به ابن الزيات عداوة أحمد بن أبي داود شريكه ومنافسه في سلطانه، وكان كصاحبه في العلم والأدب المثل الأعلى، جهمي الرأي مثله (مؤالفًا لأهل الأدب من أي بلد كانوا، وكان قد ضم منهم جماعة يعولهم ويمونهم)، وكان المأمون أوصى أخاه المعتصم به قائلا: «وأبو عبد الله أحمد بن أبي داود لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك، فإنه موضع ذلك».

أمر الواثق أن لا يرى أحد من الناس محمد بن عبد الملك الوزير إلا قام له، فكان ابن أبي داود إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلي، فقال ابن الزيات:

صلى الضحى لما استفاد عداوتي ... وأراه يَنْسَك بعدها ويصوم
لا تعدمن عداوة مشئومة ... تركتك تقعد تارة وتقوم

وقال ابن أبي داود: إني لأمتنع من تكليم الخلفاء بحضرة محمد بن عبد الملك الزيات في حاجة، كراهة أن أعلمه ذلك، ومخافة أن أعَلّمه التأني لها. وقد أثر لابن الزيات شعر كثير في هجو أحمد بن أبي داود، ومنه:

أبلغ دعي إياد إن مررت به ... قول امرئ ناصح لله والدين
لن تصلح الأرض ما أُسكنت ظاهرها ... ولا ترى العدل أو تلحق بأفشين
ما زلت تضمر للخذلان عن دخل ... في القلب منك لهذا الدين مكنون
وكنت في ذاك لما أن قصدت له ... كالعنز أن بحثت عن حد سكين
نحن الذين إذا عدَّ العفاف يُرى ... فينا العفاف ومأوى كل مسكين

وفي سنة (٢٢٩) نصب ابن الزيات لأصحاب المظالم العداوة، فكشفوا وحبسوا وأقيموا للناس ولقوا كل جهد، ومن جملتهم صديقه إبراهيم بن العباس الصولي نسي صداقته في مطالبته بما تأخر في ذمته من حق بيت المال، فاستهدف لهجائه؛ هكذا كان ابن الزيات مع سائر الناس لا يجوّز لعامل أن يسرق، ولا للرعية أن تتلكأ في

أداءِ ما عليها، حتى ينتظم سير الأعمال. فهو رجل الدولة، خلق للحكم، وكأن معاني الحكم ممزوجة بلحمه ودمه، حتى لقد هُجِيَ بذلك، وكان من حقه أن يُمدح، فقال علي بن الجهم في وصف توقيعاته:

على ابن عبد الملك الزيات ... لَعائن الله موفرات

يرمي الدواوين بتوقيعات ... مطولات ومقصرات

أشبه شيء برقى الحيات

من عادة ابن الزيات المبالغة بتعظيم مظاهر الخلافة، ليقتدي به الناس، وينتظم الدولةَ الوقارُ والمهابة. كان إذا أراد أن يختم الكتاب دعا بدرج فيه الخاتم، فإذا جيء به وهو خاتم الملك، قام قائماً فأخذه إجلالًا له، ثم جلس فأخرجه، وختم الكتاب به، ورده إلى الدرج وختم عليه. ومع هذا ربما كان يناقش الخليفة في بعض المشاكل إذا خلا به، وربما قام بأعمال يبتدعها، وبعض تراتيبه ما عُهد له مثيل قبله، كفعله لما عقد لإسحاق بن إبراهيم على اليمامة والبحرين وطريق مكة مما يلي البصرة في دار الخلافة. قالوا: ولم يُذكر أن أحدًا عقد لأحد في دار الخلافة إلا الخليفة غير محمد بن عبد الملك الزيات، كما لم يعهد أن أحدًا بدأ الكلام مع الخلفاء قبل أن يبدءوه غير أحمد بن أبي داود.

وابن الزيات سياسي ذاك العصر المنقطع القرين، كان يراعي عواطف العوام، ويحاذر مما يَهيجهم، ويقول: إرجاف العوام مقدمة الكون[1]. نظمه جحظة فقال:

أرى الإرجاف متصلًا بحال ... ولابس حليتي كبرٍ وتيه

وإرجاف العوام مقدمات ... لأمر كائن لا شك فيه

(١) الكون: الحدوث، كالكينونة، والكائنة: الحادثة، وفي رواية: مقدمة الفتنة.

ولابن الزيات عطف خاص على العلماء، وقد ترجموا له كتبًا مهمة في الطب وغيره، ومنهم حنين بن إسحاق، نقل له بعض الكتب إلى العربية، وكان الجاحظ منقطعًا إليه، قال ابن أبي أُصيبعة: وكان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ في كل شهر ألفي دينار، ونقل باسمه عدة كتب، وكان أيضًا مما نقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه، وجبرئيل بن بختيشوع، وبختيشوع بن جبرئيل بن بختيشوع، وداود بن سرابيون، وسلمويه بن بنان، واليسع، وإسرائيل بن زكريا بن الطيفوري، وحبيش بن الحسن، ومما قال الجاحظ فيه:

بدا حين أثرى بإخوانه ... ففلّل منهم شباة[1] العدم
وأبصر كيف انتقال الزما ... ن فبادر بالعُرف قبل الندم

وقد مدحه أعاظم شعراء العصر، ومنهم أبو تمام، وصف قلمه بقوله:

لك القلم الأعلى الذي بشباته ... تُصاب من الأمر الكُلى والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه ... وأزي الجنى اشتارته[2] أيد عواسل
له ريقة طلٌّ ولكن وقعها ... بآثاره في الشرق والغرب وابل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوضت ... لنجواه تقويض الخيام الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت ... أعاليه في القرطاس وهي أسافل
وقد رفدته الخنصران وسددت ... ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلًا شأنه وهو مرهف ... ضني وسمينًا خطبه وهو ناحل

(١) الشباة: حد كل شيء، وفلل: ثلم، والعدم بالضم وبضمتين وبالتحريك: الفقدان.
(٢) اشتارته: جنته، والأزي: العسل، والجنى: كل ما يجنى.

ولهذه القصيدة قصة طريفة. قال ابن عبدوس: وجدت بخط أبي أحمد إسماعيل، حدثني محمد بن علي بن سعيد الطبري وأخوه إبراهيم بن علي وأمهما أخت محمد بن عبد الملك قالا: جاءنا حبيب بن أوس الطائي -يعني: أبا تمام- بقصيدته التي يقول فيها:

لك القلم الأعلى الذي بشباته ... تُصاب من الأمر الكُلى والمفاصل

فسألنا أن نعرضها على محمد، وأن نتوخى بها وقتًا تكون نفسه طيبة فيه، فتوحينا ذلك الوقت وأوصلنا القصيدة، فقرأها من أولها وتوقف على أكثرها، ثم قال: الطائي جيد الشعر، إلا أنه يهجّن شعره بأنه يمتدح السوقة بما يمدح به الملوك، فيعطي السوقي أكثر من حقه، ويبخس الملك حقه إذا أعطى السوقي ما يعطيه، ثم قلب القرطاس وكتب شيئًا في ظهره، وقال: إذا جاء فادفعوه إليه، فقرأنا ما كتبه فإذا هو:

رأيتك[1] سمح البيع والعِلقُ إنما ... يغالَى به إن ضنَّ بالعلق بائعه
وأحرِ بمن هانت بضائع ماله ... لدى البيع يومًا أن تبور بضائعه
هو الماء إن أجمعته طاب ورده ... ويفسده أن تستباح شرائعه

فلما جاء الطائي أعلمناه أنا قد أوصلنا شعره، فلم يشك أن معه جائزة، قال: فأين الجائزة؟ قلنا: خذها، ودفعنا القرطاس إليه، فلما قرأه قال: الله الله، قد وصيت من جائزته أن تكتما هذا الشعر، فإنه إن انتشر أفسد عليَّ عمود الصناعة، وكان

(١) في رواية البديعي:
رأيتك سمح البيع سهلًا وإنما ... يغالى إذا ما ضين بالشيء بائعه
فأما الذي هانت بضائع بيعه ... يوشك أن تبقى عليه بضائعه

لبخلاء الملوك مثله أعزه الله حجة. قلنا: وتهجوه؟ قال: ما أدير لساني بهجائه، ولكني استفدت مما وصلني به. فحكينا ذلك لمحمد فضحك وبعث إليه بمائتي دينار.

وفي رواية: أن محمد بن عبد الملك عاتب أبا تمام واحتج عليه بأنه مدح غيره، وأنه لو اقتصر عليه أغناه، وأن كثرة مدحه للناس زهدته فيه، وكتب إليه الأبيات الثلاثة، فكتب إليه أبو تمام:

أبا جعفر إن كنتُ أصبحتُ شاعرًا ... أُساهل في بيعي له من أبايعه
فقد كنتَ قبلي شاعرًا ذا رواية ... تساهل من هانت عليه بضائعه
وصرت وزيرًا والوزارة مشرب ... يغَصُّ به بعد اللذاذة كارعه
وكم من وزير قد رأينا مسلطًا ... رأيناه قد سُدَّت عليه مطالعه
ولله قوس لا تطيش سهامها ... ولله سيف لا تُفَلُّ مقاطعه

ووصف البحتري إنشاء ابن الزيات بقوله:

لتفننت في الكتابة حتى ... عطَّل الناس فن عبد الحميد
في نظام من البلاغة ما شـ ... ـك امروٌ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزَّهَر الضا ... حك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يخـ ... ـلقه عوده على المستعيد
ما أُعيرت منه بطون القراطيـ ... ـس وما حُمِّلت ظهور البريد
مستميل سمعَ الطروبِ المعنَّى ... عن أغاني مُخارق وعبيد
حجج تُخرس الألد بألفا ... ظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصلتها القوافي ... هَجَّنت شعر جَرْوَلٍ ولبيد
حُزْن مستعمل الكلام اختيارًا ... وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـ ... ـن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون في الحلل البيـ ... ـض إذا رُحْن في الخطوط السود

وهذا أجمل وصف لبلاغة ابن الزيات في الكتابة، ولم يمدحه أبو تمام وأبو عبادة بشعره مع أنه كان أشعر كتّاب الدولة، ومدحاه بأظهر خصائصه.

حدَّث عبد الله بن العباس الربيعي قال: دخل محمد بن عبد الملك الزيات على الواثق وأنا بين يديه أغنيه وقد استغناني صوتًا فاستحسنه؛ فقال له محمد بن عبد الملك: هذا والله يا أمير المؤمنين أولى الناس بإقبالك عليه، واستحسانك له، واصطناعك إياه. فقال: أجل هذا مولاي وابن مولاي وابن مواليّ، لا يعرفون غير ذلك. فقال له: ليس كل مولى يا أمير المؤمنين بولي لمواليه، ولا كل مولى متجمل بولاية تجمع ما جمع عبد الله من ظرف وأدب، وصحة عقل، وجودة شعر. فقال له: صدقت يا محمد. فلما كان من الغد جئت محمد بن عبد الملك شاكرًا لمحضره، فقلت له في أضعاف كلامي: وأفرط الوزير -أعزه الله- في وصفي وتقريظي، ولو كان عندي أيضًا شيء بعد ذلك لصغر عن أن يصفه الوزير، ومحله في هذا الباب المحل الرفيع المشهور. فقال: والله يا أخي لو عرفت مقدار شعرك وقولك:

يا شادنًا رام إذ مـ ـر في السعانين[1] قتلي
يقول لي كيف أصبحـ ـت كيف يصبح مثلي

لما قلت هذا القول، والله لو لم يكن لك شعر في عمرك كله إلا قولك: «كيف يصبح مثلي» لكنت شاعرًا مجيدًا. روى هذا الأصفهاني. وقال أيضًا: أخبرني الصولي قال: حدثني عون بن محمد الكندي قال: حدثني عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع قال: وصفني محمد بن عبد الملك للمعتصم، وقال ما له نظير في ملاحة الشعر والغناء والعلم بأمور الملوك، فلقيته فشكرته وقلت: جعلت فداءك أتصف شعري وأنت أشعر الناس! ألست القائل:

---

(١) السعانين: عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع يخرجون فيه بصلبانهم (القاموس).

ألم تعجـــب لمكتئـــب حـــزين خـــدين صـــبابة وحليـــف صـــبر
يقـــول إذا ســـألت بـــه بخـــير وكيـــف يكـــون مهجـــور بخـــير

قال: وأين هذا من قولك:

يقـــول لي كيـــف أصبحـــت كيـــف يـــصبح مـــثلي

ماءٌ ولا كصدَّاء، ومَرْعى ولا كالسعدان[1].

كتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك: سروري -أعاذ الله حياتك- إذا رأيتك، كوحشتي لك إذا لم أرك، وحفظي لك في مغيبك، كمودتي لك في مشهدك، وإني لصافي الأديم، غير نَغل ولا متغير، فامنحني من مودتك مزن لذاذة مشربك، وكن لي كأنا، فوالله ما عجت عن ناحيتك إلا وأنا محنيُّ الضلوع إليك، والسلام. فكتب إليه محمد: يا أخي ما زلت عن مودتك، ولا حلت عن أخوتك، ولا استبطأت نفسي لك، ولا استزدتها في محبتك، وإن شخصك لماثل نصب طرفي، ولقل ما يخلو من ذكرك قلبي، ولله در الذي يقول:

أمـا والـذي لـو شـاء لم يخلـق النـوى لئن غبتَ عن عيني لما غبت عـن قلبـي
يـذكرنيك الـشوق حتـى كـأنني أناجيـك مـن قـرب وإن لم تكـن قـربي

هذا إجمال ما أمكن الوقوف عليه من حياة ابن الزيات وصفاته. بقي أن نقول ما انتهى إليه مصيره بعد أن خدم الدولة العباسية بروحه وقلبه وعينه؛ فقد ذكر أرباب السير أن المتوكل كان في نفسه شيء منه قبل أن يتولى الخلافة، لأن محمدًا كان أشار بتولية ولد الواثق بدلًا من أخيه المتوكل، وأشار ابن أبي داود بتولية المتوكل. وقيل: كان ابن الزيات يتجهم للمتوكل في أيام الواثق، ويغلظ عليه الكلام، فحقد

---

(١) صداء: اسم ركبة عذبة الماء، وسعدان: نبت، وهو من أفضل مراعي الإبل، والجملة من أمثال العرب.

المتوكل عليه، فلما ولي الخلافة قتله مخدوعًا بالذين قالوا له: إنه كان صاحب أموال كثيرة، فلما قتله بعد أربعين يومًا من توليته لم يرَ جميع ما يملك من الضياع والأملاك والذخائر إلا ما كانت قيمته مائة ألف دينار، فندم على ذلك.

وقيل: إن المتوكل قال لابن أبي داود: أطمعتني في باطل، وحملتني على شخص لم أجد عنه عوضًا، ذلك لأن هذه الثروة تافهة لمن تولى الوزارة أربع عشرة سنة، وكان أهله أغنياء موسرين. وقضى ابن الزيات نحبه في التنور الذي قيل: إنه كان اتخذه أيام وزارته من حديد وأطراف مساميره المحدودة إلى داخل، وهي قائمة مثل رأس المسالّ، وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال. وكان يقول لنفسه قبل موته بيومين أو ثلاثة: يا محمد بن عبد الملك لم تقنعك النعمة والدواب الفُره، والدار النظيفة، والكسوة الفاخرة، وأنت في عافية حتى طلبت الوزارة، ذق ما عملت بنفسك. فكان يكرر ذلك على نفسه، فلما كان قبل موته بيوم ذهب عن عتاب نفسه، فكان لا يزيد على التشهد وذكر الله. وراح أعداؤه يصنعون عن لسانه أقوالًا وأشعارًا ربما لم يقلها، ويزورون ما يحاولون به إلقاء الغطاء على محاسنه الكثيرة.

نموذج من إنشائه:

لم يؤلف ابن الزيات كتابًا في موضوع خاص، صرف جميع ما أوتيه من موهبة البلاغة في رسائل الدولة، وذكروا أن له كتاب رسائل قدره خمسون ورقة، ولم يعثر عليه، والمعقول أن يكون خلف مئات من الأوراق، والباقي اليوم من رسائله في دواوين الأدب لا يتجاوز بضع صفحات، وله ديوان شعر رائق؛ ومن كتبه عهد الواثق على مكة بحضرة المعتصم، وهو: «أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين قد قلدك مكة وزمزم، وتراث أبيك الأقدم، وجدك الأكرم، وركضة جبريل، وسقيا إسماعيل،

وجعفر عبد المطلب، وسقاية العباس، فعليك بتقوى الله تعالى والتوسعة على أهل بيته»، وهذا من الإيجاز المعجب الذي تمليه قريحة اعتادت البديهة واعتادت الروية، وما أحلى قوله: «ركضة جبريل وسقيا إسماعيل»، وهي من التعابير التي يفترعها أمثاله من الكاتبين.

***

أمر الواثق ابن الزيات أن يتلطف بعبد الله بن طاهر، ويعلمه أنه صرفه عن أمر الجزائر والعواصم، وفوَّض ذلك لابن عمه إسحاق بن إبراهيم، فكتب: «أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين رأى أن يخلع ما في يمينك من أمر الجزائر والعواصم فيجعله في شمالك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»، وليس في الوصول إلى الغرض مع مراعاة المكتوب إليه أوجز ولا ألطف من هذا السطر.

***

لما بُويع المتوكل أمر بالكتاب إلى الناس باعتمادهم على اللقب الذي لقب به، وكتب ذلك ابن الزيات: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر -أبقاكَ الله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه- أن يكون الرسم الذي يجري به ذكره على أعواد منابره، وفي كتبه إلى قضاته وكُتَّابه وعماله وأصحاب دواوينه وغيرهم، من سائر من تجرى المكاتبة بينه وبينه (من عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين) فرأيك في العمل بذلك، وإعلامي بوصول كتابي إليك موفق إن شاء الله».

***

وكتب إلى الحسن بن وهب: يجب على المرءوس إذا تحاور به الرئيس حق مرتبته بعمله، وكان تفضيله إنما وقع له بخفته على القلب، ومحله من الأدب، أن يقابل ذلك بمثله، إن كان محاميًا على محله، وإلا فلا يؤمن عليه.

وكتب: إن حق الأولياء على السلطان تنفيذ أمورهم، وتقويم أودهم، ورياضة أخلاقهم، وأن يميز بينهم فيقدم محسنهم، ويؤخر مسيئهم، ليزداد هؤلاء في إحسانهم، ويزدجر هؤلاء عن إساءتهم.

***

وفصل له: إن من أعظم الحق حق الدين، وأوجب الحرمة حرمة المسلمين، فحقيق لمن راعى ذلك الحق، وحفظ تلك الحرمة، أن يراعى له حسب ما راعاه الله، ويحفظ له حسب ما حفظ الله على يديه.

***

وفصل له: إن الله أوجب لخلفائه على عباده حق الطاعة والنصيحة، ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرأفة، وإحياء السنن الصالحة، فإذا أدَّى كل إلى كل حقه، كان ذلك سببًا لتمام المعونة، واتصال الزيادة، واتساق الكلمة، ودوام الألفة.

***

فصل: ليس من نعمة يجددها الله لأمير المؤمنين في نفسه خاصة، إلا اتصلت برعيته عامة، وشملت المسلمين كافة، وعظم بلاء الله عندهم فيها، ووجب عليهم شكره عليها، لأن الله جعل بنعمته تمام نعمتهم، وبتدبيره وذبه عن دينه حفظ حريمهم، وبحياطته حقن دمائهم وأمن سبيلهم، فأطال الله بقاء أمير المؤمنين منطوي القلب على مناصحته، مؤيدًا بالنصر، معززًا بالتمكين، موصول البقاء بالنعيم المقيم.

***

وله: الحمد لله الذي جعل أمير المؤمنين معقود النية بطاعته، منطوي القلب على مناصحته، مستحوذ السيف على عدوه، ثم وهب له الظفر، ودوخ له البلاد، وشرد به العدو، وخصه بشرف الفتوح، شرقًا وغربًا، وبرًّا وبحرًا.

***

وله: أفعال أمير المؤمنين عندنا معسولة كالأماني، متصلة كالأيام، ونحن نواتر الشكر لكريم فعله، ونواصل الدعاء له مواصلة برِّه، إنه الناهض بكلنا، والحامل لأعبائنا، والقائم بما ناب من حقوقنا.

***

وله: أما بعد؛ فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره، ولا يخلو من إحدى منزلتين، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة، ولا يزيل لائمة: إما تقصير في عملك دعاك للإخلال بالحزم، والتفريط في الواجب، وإما مظاهرة لأهل الفساد، ومداهنة لأهل الريب، وأية هاتين كانت منك مُحِلَّةُ النكر بك، وموجبة العقوبة عليك، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنَّظِرة، والأخذ بالحجة، والتقدم في الإعذار والإنذار، على حسب ما أقلت من عظيم العثرة، وما يجب اجتهادك في تلافي التقصير والإضاعة، والسلام.

***

والمظنون أن الكِتاب الذي كتب عن المعتصم إلى ملوك الآفاق من المسلمين عند قبض الإخشيد على بابك الخرمي، ونقله القلقشندي (صبح الأعشى ٦/ ٤٠٠) هو من كتابة محمد بن عبد الملك الزيات، لولا ما يحول دون هذا الظن من أثر التطويل فيه، وعلى كل فهو مما كتب تحت إشرافه لأن بابك قتل سنة (٢٢٣)، وابن الزيات تولى الوزارة في سنة (٢٢٠)، والكِتَاب بأسلوب ابن الزيات أشبه، لا تكلف في

ألفاظه وتراكيبه، ويستبعد أن لا يجول قلم ابن الزيات في هذا الموضوع الخطير، الذي أقام الخلافة وأقعدها؛ وما جاء فيه بعد التحميد: ولا يعلم أمير المؤمنين -مع كثرة أعداء الإسلام وتكنفهم إياه من أقطاره، والضغائن التي في قلوبهم على أهله، وما يترصدونه من العداوة، وينطوون عليه من المكايدة، إذ كان هو الظاهر عليهم، والآخذ منهم- عدوًّا كان أعظم بلية، ولا أجل خطبًا، ولا أشد كلَبًا، ولا أبلغ مكايدة، ولا أرمى بمكروه، من هؤلاء الكفرة، الذين يغزوهم المسلمون، فيستعلون عليهم، ويضعون أيديهم حيث شاءوا منهم، ولا يقبلون لهم صلحًا، ولا يميلون معهم إلى موادعة، وإن كان لهم على طول الأيام وتصرف الحالات وبعض ما لا يزال يكون من فَتَرات ولاة الثغور أدنى دولة من دولات الظفر، وخُلسة من خلس الحرب، كان بما لهم من خوف العاقبة في ذلك منغصًا لما تعجلوا من سروره، وما يتوقعون من الدوائر بعد مكدرًا لما وصل إليهم من فرحة.

فأما اللعين بابك وكفرته فإنهم كانوا يغزون أكثر مما يغزون، وينالون أكثر مما يُنال منهم؛ ومنهم المنحرفون عن الموادعة، المتوحشون عن المراسلة، ومن أديلوا[1] من تتابع الدول، ولم يخافوا عاقبةً تدركهم، ولا دائرة تدور عليهم، وكان مما وطأ ذلك ومكَّنه لهم أنهم قوم ابتدءوا أمرهم على حال تشاغل السلطان، وتتابع من الفتن، واضطراب من الحبل؛ فاستقبلوا أمرهم بغرة من أنفسهم وضعف، واستثارة ممن باراهم، فأجلوْا من حولهم لتخلُص البلاد لهم، ثم أخربوا البلاد ليعز مطلبهم، وتشتد المؤنة وتعظم الكلفة، ويقوَوْا في ذات أيديهم، فلم يتوافَ إليهم قواد السلطان، إلا وقد توافت إليهم القوة من كل جانب، فاستفحل أمرهم، وعظمت شوكتهم، واشتدت ضراوتهم، واستجمع لهم كيدهم، وكثر عددهم واعتدادهم، وتمكنت الهيبة في صدور الناس منهم، وتحقق في نفوسهم أن كل ما يَعدهم الكافر

(١) أدالنا الله من عدونا، من الدولة والإدالة: الغلبة.

ويُمنِّيهم أخذٌ باليد، وكان الذي بقي عندهم منه كالذي مضى، وبدون هذا ما يُختَدَع الأريب، ويستنزل العاقل، ويُعتقَل الفطن، فكيف بمن لا فكرة له، ولا روية عنده؟!

هذا مع كل ما يقوم في قلوبهم من حسد أهل النعم، ومنافستهم على ما في أيديهم، وتقطعهم حسراتٍ في إثر ما خُصوا به، وأنهم إن لا يكونوا يرون أنفسهم أحق بذلك، فإنهم يرون أنهم فيه سواء.

وفيه: فأعدَّ (أمير المؤمنين) من أمواله أخطرها، ومن قواد جيشه أعلمهم بالحرب، وأنهضهم بالمعضلات، ومن أوليائه وأبناء دعوته ودعوة آبائه -صلوات الله عليهم- أحسنهم طاعة، وأشدهم نكاية، وأكثرهم عُدة؛ ثم أتبع الأموال بالأموال، والرجال بالرجال، من خاصة مواليه، وعدد غلمانه، وقبل ذلك ما اتكل عليه من صُنع الله عز وجل، ووجّه إليه من رِعيته؛ فكيف رأى الكافر اللعين وأصحابه الملاعين؟ ألم يُكذِّب الله ظنونهم، ويشفِ صدور أوليائه منهم؟ يقتلونهم كيف شاءوا في كل موطن ومعترك، ما دامت عند أنفسهم مقاومة.

وفيه: فلما حصرهم الله وحبسهم عليهم ودانتهم مصارعهم، سلطهم الله عليهم كيدٍ واحدة، يختطفونهم بسيوفهم، وينتظمونهم برماحهم؛ فلا يجدن ملجأ ولا مهربًا، ثم أمكنهم من أهاليهم وأولادهم ونسائهم وحُرَمهم، وصيروا الدار دارهم والمحلة مِحلتهم، والأموال قسمًا بينهم، والأهل إماء وعبيدًا؛ وفوق ذلك كله ما فعل بهؤلاء، وأعطاهم من الرحمة والثواب، وما أعد لأولئك من الخزي والعقاب، وصار الكافر بابك لا فيمن قُتل فسلم من ذل الغلبة، ولا فيمن نجا فعاين من الحياة بعض العوض، ولا فيمن أُصيب، فيشتغل بنفسه عن المصيبة بها سواه.

وجاء في خاتمته: فالحمد لله الذي أعز دينه، وأظهر حجته، ونصر أولياءه، وأهلك أعداءه، حمدًا يُقضى به الحق، وتتم به النعمة، وتتصل به الزيادة، والحمد لله الذي فتح على أمير المؤمنين وحقق ظنه، وأنجح سعيه، وحاز له أجر هذا الفتح وذُخره وشرفه، وجعله خالصًا لتمامه وكماله، بأكمل الصُّنع وأحسن الكفاية.

***

كان ابن الزيات يقول: احذروا الصديق الجاهل أكثر من حذركم العدو العاقل، فليس من أساء وهو يعلم أنه مسيء كمن أساء وهو يظن أنه يحسن. ومن شعره:

لو كان يمنع حسن الوجه صاحبه ... من أن يكون له ذنب إلى أحد
كانت عليم أبر الناس كلهم ... من أن تكافا بسوء آخر الأبد

ومنه:

ما لي إذا غبتُ لم أُذكر بصالحة ... وإن مرضتُ وطال السقم لم أُعد
ما أعجب الشيء ترجوه فتحرمه ... قد كنت أحسب أني قد ملأت يدي

ذكر ابن المدبر في الرسالة العذراء أنهم لم يجيزوا أن يكتبوا بمثل: «أبقاك الله وأمتع بك» إلا إلى ذوي الحرمة والأهل والتابع والمنقطع إليك، وأما في كتب الإخوان فغير جائز، بل مذموم مرغوب عنه، ولذلك كتب عبد الله بن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات:

أحلتَ عما عهدتِ من أدبك ... أم نلت ملكًا فتهت في كتبك
أم هل ترى أن في التواضع للـ ... ـإخوان نقصًا عليك في حسبك
أتعبت كفيك في مكاتبتي ... حسبك مما يزيد في تعبك
إن جفاءً كتاب ذي أدب ... يكتب في صدره «وأمتع بك».

فكتب إليه ابن الزيات:

أنكرتَ شيئًا فلست فاعله ... فلن تراه يُخَطُّ في كتبك
فاعفُ فدتك النفوس عن رجل ... يعيش حتى الممات في أدبك
كيف أخون الإخاء يا أملي ... وكل شيء أنال من سببك
إن يك جهلًا أتاك من قِبَلي ... فَعُدْ بفضل عليّ في أدبك

تعشق محمد جارية، فبيعت من رجل من أهل خراسان وأخرجها، فذهل عقله حتى خُشي عليه، ثم أنشأ يقول:

يا طول ساعات ليل العاشق الدنف ... وطول رعيته للنجم في السدف[1]
ماذا تُواري ثيابي من أخي حُرَقٍ ... كأنما الجسم منه دقة الألف
ما قال يا أسفي يعقوب من كمد ... إلا لطول الذي لاقى من الأسف
من سره أن يرى ميت الهوى دنفًا ... فليستدل عَلَى الزيات وليقف

وكان محمد بن عبد الملك يحب بعض جورى القيان، ثم تنكر لها، فكتبت على خاتم لفظًا تعرِّض فيه بالعتاب، فبلغه ذلك، فكتب على خاتمه ضد ما كتبت، فبلغها، فمحت ما كان على خاتمها، وكتبت ضد ما كتب، فبلغه ذلك، فمحا ما كان على خاتمه، وكتب ضد ذلك في أبيات يقول فيها:

كتبت على فص لخاتمها ... من ملَّ من أحبابه رقدا
فكتبت في فصي ليبلغها ... من نام لم يشعر بمن سهدا
فمحته واكتتبت ليبلغني ... ما نام مَن يهوى ولا هجدا
فمحوته ثم اكتتبت أنا ... والله أول ميت كمدا
قالت يعارضني بخاتمه ... والله لا كلمته أبدًا

(١) السدف -محركة-: الصبح وإقباله، وسواد الليل، كالدفة. والدنف -محركة-: المرض الملازم.

وقال:

أترحل والذي تهوى مقيم ... لعمرك إن ذا خطر جسيم
إذا ما كنت للحدثان عونًا ... عليك وللزمان فمن تلومُ

ومن شعره في العيادة:

ونعود سيدنا وسيد غيرنا ... ليت التشكي كان بالعُوَّاد
لو كان يقبل فديةً لفديته ... بالمصطفى من طارفي وتلادي

وقال في عباس بن المأمون وقصته أيام عمورية:

حلفة ما حلفت لا تعبر اللُّـ ... ـكام مبرورة من الأيمان
ورب حنث فيه النجاة وبر ... قد أحلَّ الفتى بدار هوان

وقال:

أباح الدمع سرًّا لم أبحه ... فدمعي آفتي لا تظلميني
فما ذنبي إذا كانت دموعي ... تعين عليَّ أسباب المنون
إذا ظن الجليس ببعض ما بي ... يبين لعينه وجه اليقين
ويرمي بالظنون إذا التقينا ... فتكشف لمحتي لبس الظنون

وله:

تمكنت من قتلي فأزمعت قتلها ... على غير عمد منك والروح تذهب
كعصفورة في كف طفل يسومها ... ورود حياض الموت والطفل يلعب

وله:

وعائب عابني بشيبي ... لم يعْدُ لما ألمَّ وقته
فقلت إذا عابني بشيبي ... يا عائب الشيب لا بَلَغْته

ومن قصائده قصيدته التي أغرى فيها بإبراهيم بن المهدي في أيام المأمون، عند رضا المأمون عنه، وعدد فيها ما كان منه عند دعائه إلى نفسه، وأولها:

ألم تــر أن الــشيء للــشيء علــة ... يكــون لــه كالنــار تقــدح بالزنــد

وقال في جارية يهواها اسمها عذر:

يــا عــذر زيــن باســمك العــذر ... وأســا ولم يحــسن بــك الــدهر
وهــي التــي قالــت وقــد جعلــت ... تنــسل مــن وجناتهــا الخمــر
أكمــد بــدائك هــل رأيــت كــذا ... بــدر يلــوح بخــده البــدر

ورأته هذه الجارية في ليلة أربع عشرة من الشهر فقال:

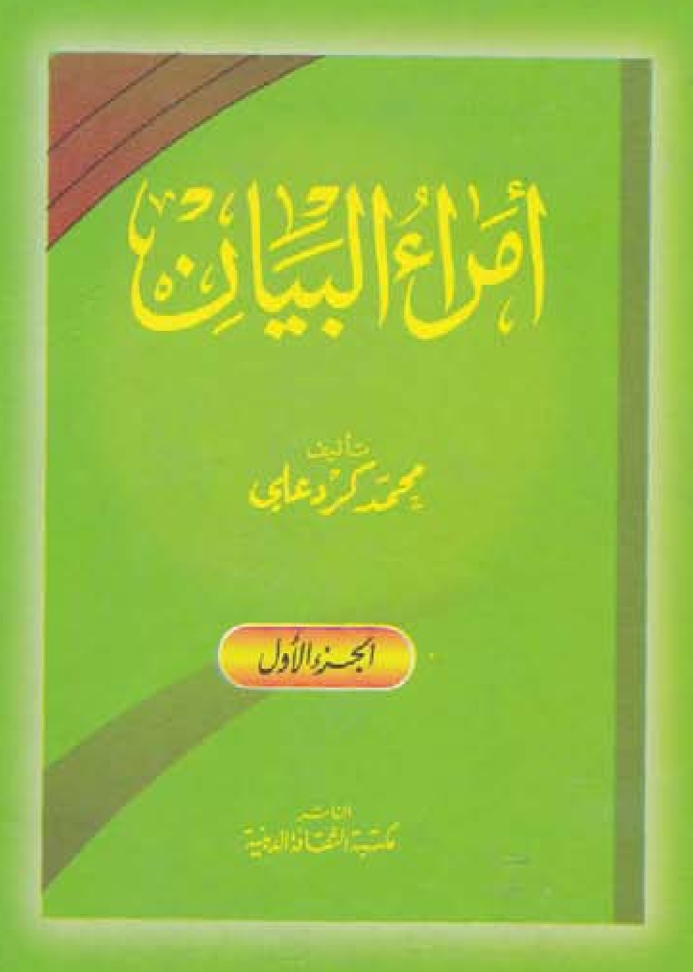
بــدر بــدا في ليلــة البــدر ... في ليلــة الأربــع والعــشر
لــذلك الــشهر لــه شــاهد ... لا ينقــضي الــدهر لــه شــكري
أطلــع بــدرين ومــا عهــدنا ... بــأن نــرى بــدرين في شــهر
وَيْــلِي مــن بــدرين في ليلــة ... كلاهمــا في صــورة يــسري

ومن هذه المقاطيع عرفنا أيضًا أن ابن الزيات كان رجل صبابة ودعابة، ورقة طبع وحاشية، وجميل إخاء ووفاء.

فهرس الجزء الأول

غرض هذا الكتاب ٣
مصادر الكتاب ٤
البيان العربي ١٠
عبد الحميد الكاتب ٣٧
عبد الله بن المقفع ٩٦
سهل بن هارون ١٥٥
عمرو بن مسعدة ١٨٦
أحمد بن يوسف الكاتب ٢١٢
إبراهيم بن العباس الصولي ٢٣٨
محمد بن عبد الملك الزيات ٢٧٢
فهرس الجزء الأول ٣٠١
عمرو بن بحر الجاحظ ٣٠٥
أبو حيان التوحيدي ٤٨٠
ابن العميد ٥٥٢





الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٣٦ شارع بورسعيد - القاهرة
ت: ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٢٨٤١١
فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧ ص.ب: ٢١ توزيع الظاهر
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com